

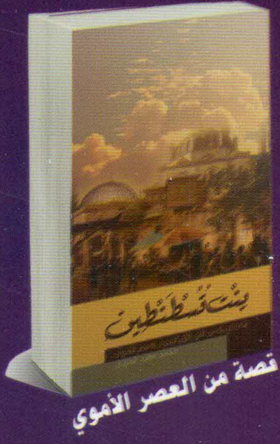
عَلَى بَابِ زُوَيْلَةَ

قِصَّة تَارِيخِيّة مِنَ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْهِجرِي (الْعَصْر الْمَمْلُوكِي)

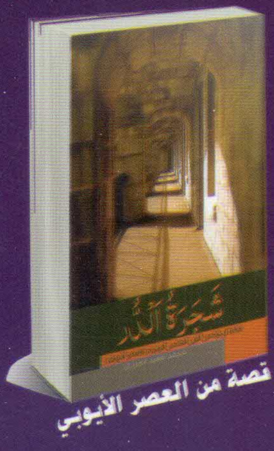
محمد سعيد العريان



قطر الندى
قصة من العصر العباسي
على باب زويلة
قصة من العصر المملوكي



بنت قسطنطين
قصة من العصر الأموي



شجرة الدر
قصة من العصر الأيوبي



دار الصحوة للنشر والتو زيع
الصحوة
ALSAHOH
Telefax: +202 42 10 60 60
daralsahoh@gmail.com

على باب زويلة

قصة تاريخية من القرن العاشر الهجرى
(العصر المملوكى)

تاليف

محمد سعيد العريان

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٢١٨

الترقيم الدولي:

978-977-255-415-7



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب- السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف[1]

بقلم الدكتور طه حسين

كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد، كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين، فتحيى فى النفوس أملاً، وترد إلى القلوب ثقة واطمئنانًا؛ لأننا نشعر حين نقرؤه بأن الحياة الأدبية فى مصر ما زالت خصبة قوية قادرة على الإنتاج، وعلى الإنتاج القيم الممتع الذى لا تتردد مصر فى أن تفاخر به وفى أن تعرضه إذا عرضت الأمم الحية كتبها الممتعة وأدبها الرفيع.

كتاب لم يخرجه صاحبه إلا بعد جهد أى جهد، واستقصاء أى استقصاء، وعناء عنيف لا يحب أن يحتمل بعضه كثير من كتابنا الذين يحبون الطرق المطروقة والسبل المألوفة، ويكرهون أن يشقوا على أنفسهم بالقراءة المضنية والبحث المتصل، ثم بالتفكير فيما قرءوا والاستنباط مما بحثوا عنه، ثم بالعرض المتقن لما استنبطوا، وبالإبانة الرائعة عما أرادوا أن يقولوا لقرائهم. وكل هذا قد فعله الأستاذ محمد سعيد العريان دون

(١) مجلة الكاتب المصرى: أبريل سنة ١٩٤٧.

أن يظهر أحد على ما كلف نفسه من مشقة، وما حمل عليها من جهد، وما أخذها به من شدة فى القراءة والبحث والاستقصاء، ثم بالفقه الجاد الحازم الذى لا يعرف ضعفًا ولا تخاذلاً ولا إيثارًا للعافية ولا كلفًا بالنجح اليسير.

وقد أراد الأستاذ العريان أن يعرض طرفًا من تاريخ مصر، من تاريخها العسير المؤلم الذى تكثر فيه الحوادث وتلتوى بالمؤرخين ويقراء التاريخ جميعًا؛ وهذا الطرف هو الذى يمثل انقضاء سلطان المماليك فى مصر، وزوال الاستقلال المصرى بأيدى الفاتحين من الترك العثمانيين، ويكفى أن أذكر هذا الموضوع ليشعر القارئ بعسره ومشقته، وما يفرض على من يريد تحصيله وتمثله من جهد وعناء. ثم لم يُرد الأستاذ العريان أن يضع كتابًا فى تاريخ هذا العصر من عصور مصر يعرض فيه الحوادث عرضًا دقيقًا مستوفيًا للشروط التى يحرص المؤرخون على استيفائها، ولم يُرد أن يتحدث إلى المؤرخين وحدهم؛ وإنما أراد أن يتحدث إلى المثقفين جميعًا، فآثر مذهب القاص على مذهب المؤرخ، وأعمل خياله فى الوقت الذى أعمل فيه عقله، فأضاف بذلك جهدًا إلى جهد وعناء إلى عناء، ووُفق فى الأمرين جميعًا توفيقًا أعترف بأنى لم أشهد مثله فى الأعوام الأخيرة التى خيل إلينا فيها أن الإنتاج الأدبى فى مصر قد أفسده حب السهولة، وكاد يرده إلى العقم وكسل الكتاب والقراء جميعًا.

أما من الناحية التاريخية فقد بدأ المؤلف حديثه بتلك السنين المضطربة التى انتهى فيها مُلك السلطان قايتباى بين طمع الطامعين من الأمراء والولاة ورؤساء الجند من المماليك، ومضى فى طريقه حتى صور أبرع تصوير وأقواه ما كان من اختصام هؤلاء الأمراء والولاة والرؤساء حول العرش أولاً، وحول المنافع القريبة والبعيدة بعد ذلك، وما كان من تولية وعزل، ومن تتويج وخلع، ومن أسر وقتل، وما كان من كيد فى القصر وخارج القصر، وما كان يجرى على ألسنة الشعب من حديث، وما كان يضطرب فى قلوبه من أمل، وما كان يخامر نفسه من يأس، حتى ارتقى السلطان الغورى إلى عرش مصر، فرد إلى الملك أمنه وإلى السلطان استقراره، ولكنه روع النفوس وملأ القلوب هلعًا وفزعًا ولوعة وحسرة؛ لإسرافه على الناس فى الظلم وإسرافه على نفسه فى البخل، وتهالكه على جمع المال، يأخذه بحقه ويأخذه بغير حقه، ويطلق أيدى أعوانه فى أموال الرعية حتى يعم الفساد، وينتشر الخوف، وتظلم الحياة، ثم يُستأنف الكيد حول هذا السلطان الشيخ فى القصر وخارج القصر، وفى مصر وخارج مصر، ثم ينتهى

الأمر إلى الكارثة حين تنشب الحرب بينه وبين العثمانيين، وحين تنهزم الجيوش المصرية، لا عن ضعف ولا عن جهل، ولكن عن خيانة السادة والقادة والرؤساء. ثم تكون المقاومة الأخيرة الرائعة التى يبذلها شعب قد لقى من ظلم المماليك شراً عظيماً، ولكنه على ذلك مؤثر لاستقلاله حريص عليه، يفضل أن يظلمه ملوكه وسلاطينه على أن يتحكم فيه الأجنبى، ولا تطيب نفسه عن هذه الإمبراطورية العظيمة ذات الأطراف المترامية فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب، وذات الألوية المنتشرة على البحرين جميعًا. ولكن المقاومة لا تجدى على هذا الشعب البائس شيئًا؛ لأن المماليك قد نَحَّوْه عن الأمر، فلم يعتمدوا عليه فى تدبير الملك، ولم يقيموا سلطانهم على إرادته ورضاه، ولم يلتمسوا عنده الجنود المدربين، وإنما استغلوه استغلالاً، ولم يحكموه لمصلحته هو، وإنما حكموه لمصلحتهم.

هذا كله يصوره المؤلف تصويراً رائعًا، يروع بصدقه وقوته ودقته وقرب مأخذه وبعده عن العسر والالتواء.

وأما الناحية الخيالية، فليست أقل من هذه الناحية التاريخية روعة وجمالاً، ولعلها أن تكون أسحر منها للقلوب وأخلب منها للعقول؛ وأى غرابة فى ذلك وطبيعة الخيال البعيد القوى

أن يسحر القلوب ويخلب العقول ويشغل القارئ عن نفسه أثناء القراءة وبعد انتهاء القراءة .

والكاتب يبدأ قصته فى ذلك الغور الذى كان مستودعًا يجد فيه المماليك مادتهم من الرقيق الذين يختطفون أو يختلسون أو يؤخذون عنوة يجلبون إلى القاهرة ليتعلموا فيها فنون الحرب والحكم، ثم ليصبحوا جندًا وقادة وأمراء وملوكًا وسلاطين، وليدبروا أمر هذه الإمبراطورية الواسعة البعيدة الأرجاء .

نحن إذن فى هذا الغور نشهد أمًا تعطف على ابنها الصبى بقلب يملؤه الحنان والحسرة؛ فهذا الصبى وحيدها، وهو عزاؤها عن أبيه الذي ذهب يطلب ثأر والده، فلم يعد إلى امرأته منذ عشر سنين، حتى يئست من عودته، ووقفت حبها وأملها على هذا الصبى . فهى ترعاه يقظان، وتحرسه نائمًا، وهى كذلك ذات ليلة إذ تحس نبأة، فتخرج من خيمتها مستقصية ثم تعود فلا تجد ابنها؛ لأنه قد خطف كما يخطف غيره من أبناء الغور؛ وقد أقسمت أمه لَتسعيَنَّ فى طلبه حتى تدركه أو يدركها الموت .

من هنا تبدأ القصة، ومن هنا يسلك بنا الكاتب طريقين متوازيتين : إحداهما طريق الصبى طومان الذى يذهب به خاطفه إلى بلاد الروم ثم إلى الإمبراطورية المصرية حيث

يباع لأمير القلعة فى حلب، ثم يمضى مع سيده الذى يصبح عمه ذات يوم. وما أحب أن أفصل ذلك للقراء؛ فقد ينبغى أن يلتمسوا تفصيله فى الكتاب -وما يزال الصبى طومان يمضى فى طريقه إلى المجد، محتملاً للخطوب، مصابرًا للأحداث، مذللاً للعقاب، حتى يرقى عمه عرش مصر، وحتى يصبح هو مستشاره وذراعه اليمنى فى تدبير الملك، ثم خليفته على مصر حين يذهب للقاء العثمانيين، ثم خليفته على العرش بعد أن يقتل فى الموقعة، ثم زعيم المقاومة المصرية حتى يتفرق عنه الجند منهزمين، ثم طريدًا يغدره أعرابى فيسلمه إلى سلطان العثمانيين، ثم أسيرًا يطاف به فى القاهرة، ثم قتيلاً قد علقت جثته على باب زويلة.

أما الطريق الثانية فهى طريق الأم التى خرجت من الغور تطلب ابنها، فهى تمر ببلاد الروم، ثم بالإمبراطورية المصرية، وهى تلقى فى هذه الطريق أهوالاً وأهوالاً، وهى لا تعرف مكان ابنها إلا بعد أن يُقتل الغورى ويصبح ابنها سلطانًا. وهى تسعى لتلقاه، وتبلغ مصر مع المنهزمين، ولا تتيح لها الحرب لقاء ابنها على كثرة ما تحاول من ذلك، ولكنها تراه ذات يوم وفى آخر طريقها وفى آخر طريقه: جثةً معلقة على باب زويلة!

وهاتان الطريقان لا تخلصان لطومان وحده ولا لأمه وحدها، وإنما هما ممتلئتان بضروب مختلفة من الناس، وبألوان متباينة من الأحداث والخطوب، وبفنون متمايزة من الشخصيات: شخصيات الرجال الطامحين الطامعين، والضعفاء الأذلاء، والذين يترددون بين العزة والذلة، والذين يكيدون فى سبيل المال، والذين يكيدون فى سبيل الحب، والذين يكيدون فى سبيل السلطان، والذين يعيشون للذاتهم، والذين يعيشون لعبادة الله والتخلص من أوزار الحياة الدنيا؛ وشخصيات النساء اللاتى يكدن ليدخلن القصر، ثم يكدن ليبلغن العرش، ثم تخرجهن الثورات من القصر، فيكدن للعودة إليه، وتنزلهن الفتن عن العرش فيمكرن ليرقين إليه مرة أخرى؛ كل هؤلاء وغير هؤلاء تكتظ بهم الطريقان.

والأشخاص فى هذه القصة كثيرون، قد تفرقت بهم الطرق والْتَوَتْ بهم المذاهب، واختلفت بهم وعليهم الأهواء، وهم مع ذلك لا يصرفون القارئ عن قراءته ولا يردونه عن غايته، وإنما يدفعونه إلى هذه الغاية دفعًا، ليس منهم إلا من يثير فى القارئ عاطفة حب أو بغض، أو رغبة فى الاستطلاع، أو تذكرًا لشخصيات أخرى من شخصيات التاريخ، أو تفكرًا فى بعض الأحداث والخطوب التى يشهدها هنا وهناك فى حياة العصر الحديث.

قلت لك : إنه كتاب رائع بأدق معانى الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد .

وإذا كان الناقد مستشاراً للقراء ، وإذا كان المستشار مؤتمنًا كما يقال ، فإنى أشير على القراء أن يقرءوا هذا الكتاب ، فسيجدون فيه أدبًا رفيقًا وتاريخًا صحيحًا وتحليلاً دقيقًا وأسلوبًا رصينًا ، لولا هذه الإنات التى يسرف بها الكاتب على نفسه وعلى الناس ، لا فى هذا الكتاب وحده ، بل فى كل ما يكتب ، وأكاد أملى : فى كل ما يقول!



بدأت حوادث هذه القصة منذ خمسمائة سنة

فى بلاد الكرج: «جورجيا، موطن ستالين»

وانتهت بالقاهرة فى قصور السلاطين



فى بلاد الكرج

على امتداد الطرف فى أرجاء الغور المنبسط بين جبال القبج، القوقاز، كانت تقيم قبيلة من أشد قبائل الجركس بأسًا، وأعزهم نفسًا، وأقواهم شكيمة فى الحرب والسلم، وأحرصهم على الغلبة وإدراك الثأر.

على أن هذه القبيلة -على ما تهيأ لها من أسباب المنعة فى أرضها هذه التى تكتنفها رءوس الجبال منتصبة فى كل ناحية كأنها أنياب الأسد، ومن قوة بأس أبطالها المغاوير ذوى الحفاظ والنخوة- لم يتعود أهلها الهدوء يومًا على حال من الطمأنينة والسلام؛ فلم يزالوا منذ كانوا هدفًا لغارات التتار، وغزوات التركمان، وبغتات تجار الرقيق؛ فقد اشتهر فتيان هذه القبيلة وفتياتها بصباحة الوجوه، ورقة الطباع، ولين الخلق، وجمال القوة؛ فإن كل ذى مطمح من أصحاب الجاه ليرنو بعينيه من وراء هذه الجبال المنيعة إلى فتى من فتيان هذه القبيلة يتخذه ولدًا

أو يصطنعه بطانة وحاشية، أو إلى فتاة من فتياتها يؤاخيها على السراء فيتخذها حليلة أو جارية؛ من أجل ذلك لم تنم هذه القبيلة ليلة من لياليها إلا على وتر ولم تصبح إلا على غارة!

وفى ليلة من ليالى الربيع رقراقة النسيم معطارة الأرج، أوى أهل العشيرة إلى مضاربهم هادئين وادعين، وانسرحت أحلامهم إلى ما وراء هذه الجبال الشُّم، تطوف فى الآفاق وراء بعض من فارقهم من الفتيان والفتيات منذ قريب أو منذ بعيد، راضين أو كارهين، إلى حيث يلقون الجاه والغنى والسعادة، أو حيث يحتملون الهوان والمذلة وضيق العيش وأنكاد الحياة!

وكانت خيام العشيرة متناثرة على غير نظام، يقترب بعضها من بعض حينًا ويتباعد بعضها عن بعض أحيانًا؛ وقد أسبغ الليل رداءه على الغور كله فلا بصيص من نور، وضربَ الصمتُ على آذان الأيقاظ والنائمين من أهل الحى، فلا حس ولا حركة، إلا عواء كلب، أو ثغاء عنز، أو ضُغاء طفل رضيع؛ وإلا زفيف الريح تضرب فى مسالكها بين الخيام المتناثرة، فتضرب الأطناب فى أوتادها وتهز البيوت هزة خفيفة كما تهدهد الأم وليدها فى مهده لينام!

***

فى تلك الليلة كانت نور كلدى ساهرة إلى جانب فراش ولدها طومان لا يكاد يغمض لها جفن أو ترفأ لها دمعة . . .

ذلك الصبيُّ هو كل أسرتها التى تعتزُّ بها حين يعتز الناس بأهليهم وذوى قرابتهم. لقد ذهب الجميع فلم يبقَ- لها إلا هذا الصبى؛ طفل فى العاشرة، ولكنها مع ذلك سعيدة به، لأن لها به أسرةً ذات عدد!

لقد ذهب زوجها أركماس آخر من مضى، وخلّفها وليس لها من الأهل وذوى الصهر والنسب إلا جنين يرتكض فى أحشائها، فكانت هى وذلك الجنين كلَّ الأسرة، لا تجد من تتحدث إليه أو يستمع إليها إلا جنينًا حين تخلو إلى نفسها فى تلك الوحدة الموحشة، فتمر براحتها على بطنها وتتحدث إلى ذلك الجنين كأنه منها بمرأى ومسمع، وكأنه إنسان حى له عقل وأذنان... وتتنبه أحيانًا إلى نفسها فتسخر من تلك الأوهام التى تُخيل إليها أن معها أحدًا تتحدث إليه فيسمع منها، وأنه يحدثها فتسمع منه... ولا شىء ثمة ولا أحد، إلا هى وبطنها، هى وذاك الجنين، أو تلك الجنينة!

تلك كانت حالها منذ عشر سنين: امرأة بائسة منقطعة تعيش من الوهم فى أسرة ذات عدد، فيها خيال الزوج الذى رحل إلى غير معاد، وخيال الطفل الذى أجنَّته فى بطنها إلى ميعاد، ومضت بضعة أشهر منذ غاب زوجها، ثم انهتك حجاب الوهم عن حقيقة صريحة تراها بعينها وتلمسها بيديها وصار لها ولد... هذا طفلها طومان بن أركماس: إنسان حى

تستطيع أن تتحدث إليه وتسمع منه وتقص عليه من خبر أبيه ؛ ولكن أين أبوه الساعة؟

لقد كانت ليلة مشئومة تلك التي رحل فيها أركماس لأمر من أمره فلم يعد؛ لقد حدثها قلبها ليلتئذ أنه لن يعود؛ فتعلقت به وقد همَّ أن يمضى، تتوسل إليه بعينين ضارعتين أن يبقى، فألقى يدها عن كتفه وضمها إليه برفق وهو يقول :

- سأعود إليك يا نور كلدى!

وارتكض الجنين ساعتئذ فى أحشائها كأن له عند أبيه أمنية كأمنية أمه. . . ولكن أركماس لم يستمع إليه، فمضى، ولم يعد منذ تلك الليلة، ولم يعرف أحد أين ذهب؛ وعاشت نور كلدى منذ تلك الليلة وحيدة هى وجنينها، ثم هى وابنها، ولكنها لم تقطع الأمل من لقياه؛ لقد وعدها، ولابد أن يفى بما وعد، ولابد أن تلقاه. . .

وها هى ذى الليلة تعاودها الذكرى، فهى فى خيمتها مع وليدها النائم، ولكن إلى جانبها خيال شخص ثالث. . .

- أركماس! أركماس! أين أنت الساعة يا زوجى الحبيب؟ أفلا يشوقك أن ترى ولدك إن كانت رؤية زوجتك الحبيبة لا تشوقك؟

وأرسلتْ عينيها، ورفعت يد ولدها النائم إلى فمها برفق فقبلتها وبللتها بدمعة!

لقد كان أركماس فتى عزيز الجانب، جرىء القلب، عارم الخُلق، لا يصبر على دنيَّة ولا ينام على ثأر. وكذلك كان أبوه، ولكن أباه قد مات منذ سنين: كان فى بعض المعارك فأصابته طعنة فى ظهره فأردته قتيلاً، وفر قاتله بدمه تحت الليل فى ركاب قافلة من تجار الرقيق، وكان أركماس وقتئذ صبيًا لم يبلغ الحلم، ولكنه أقسم أن يثأر لأبيه من قاتله أينما كان، وأن يناله ولو كان سلطانًا على العرش... وترادفت السنون ولم يزل أركماس يتربص لقاتل أبيه ويتقصى أخباره، حتى عرف أين يجده، فودع زوجته وخرج لوجهه فلم يعد...

تُرى أين هو الساعة؟ أفى الأحياء هو أم فى الموتى؟ وماذا ردَّ زوجته الليلة إلى ذكراه بعد تلك السنين؟...

***

وتململ الغلام فى فراشه، وفتح عينيه وتثاءب، والتقت عيناه بعينى أمه، وبادلها ابتسامة بابتسامة ثم نهض إليها وطوقها بذراعيه، وطبع على خدها قبلة، وطبعت على جبينه مثلها.

وسمعت الأم فى سكون الليل نباح كلب؛ فنهضت فى خفة وأزاحت ستر الخيمة وخرجت إلى الخلاء تتفقد غنماتها

الجائمة على مقربة تجتر؛ وعاد طومان فأوى إلى فراشه ثم أغفى . . .

وكان نسيم السحر عطراً نديًا، وقد عم الظلام وانتشر فلا ضوء إلا ما ترسله هذه النجوم المرصعة فى السماء كأنها عيون تنظر من فروج الخباء!

وغابت نور كلدى قليلاً عن ولدها ثم عادت، ولكنها لم تجد فتاها حيث كان، وكان فراشه لم يزل دافئًا، فهتفت فى قلق:

- طومان! . . .

ولكن طومان لم يجب أمه؛ وكررت النداء فلم يجبها إلا الصدى، وصرخت . . .

واستيقظ رجال ونساء فى الخيام القريبة، وتراكضت الأقدام فى الطرق الملتوية بين مضارب العشيرة. وكان يتردد فى الجانب الآخر من الحى صراخ واستغاثة كذلك، وذهبت طائفة من الناس هنا وطائفة هناك، وقال بعضهم لبعض فى قلق وغيظ:

- نخَّاس! . . .

وضمَّت كل أم وليدها إلى صدرها فلو أطاقت لردَّته إلى بطنها جنينًا! وانبث الرجال بين المضارب يتحسسون مواضع

خُطاهم ويتعارفون بكلمة السر، يرجون أن يعثروا بذلك الغريب الذى اقتحم عليهم مضاربهم فى هدوء الليل ليسترقّ أطفالهم . . . ولكن ذلك الطارق الغريب قد اختفى أثره فلم يقف له أحد على خبر؛ وكأنما أعجلته صرخات الاستغاثة فلم يظفر من غارته تلك إلا برأسين اثنين: طومان بن نور كلدى، ومصرباى بنت جركس؛ أما مصرباي فطفلة يتيمة لا أم لها ولا أب، وإنما تعيش فى كنف سيدة عجوز من ذوى قرابتها؛ فليس يشق غيابها على أحد؛ وإنها لذات جمال وحيلة، فما أحرى ذلك أن يكفل لها من أسباب السعادة ما يهيئها لأن تعيش هانئة فى قصر سلطان من سلاطين الروم أو من سلاطين مصر؛ وأما طومان فواحزنا! إنه كل شىء فى حياة أمه المسكينة وهى كل شىء فى حياته . . . يا للمسكين ويا للمسكينة!

وأصبح الناس وليس لهم حديث إلا أخبار أولئك النخاسين الغلاظ الذين يطرقونهم حينًا بعد حين فيسترقون بنيهم وبناتهم ويمضون بهم موفورين لا يعترض سبيلهم أحد، ليبيعوهم فى أسواق حلب أو دمشق أو القاهرة!

وأصبحت نوكلدى باكية قد ذهب بها الحزن كل مذهب تنادى فتاها، وتنادى زوجها، ولا مجيب، ومن حولها نساء يحاولن أن يُجرّعنها الصبر والسلوان.

قالت واحدة منهن :

- الصبر يا نور كلدى! إن الأمر لأهون مما تقدرين؛ فماذا تظنين أن يصيب ولدك؟ إنه لذو عقل وجمال، وإن فيه مخايل من أبيه؛ فماذا تكون عاقبة أمره إلا أن يصير أميرًا من أمراء السلطان فى مصر أو فى بلاد الروم، ينعم بالغنى والمجد والسعادة!

قالت نور كلدى :

- خلى عنك ياصديقتى! لقد كنت فى غنى عن كل ذلك به، وكان فى غنى بى؛ ومَن لى غيره وقد ذهب أركماس!

قالت صاحبتها :

- يا أخية! إنك لتنظرين إلى حظ نفسك؛ فكيف لو رأيته غدًا فارسًا على سرجه يقود فرقة من المماليك، والعيون ترمقه من حيث اتجه؟ فما أرى النخاس الذى خطفه وخطف معه مصرباى إلا ذاهبًا بهما إلى مصر، تلك البلاد التى تصنع السلاطين؛ ولعلهما غدًا أن يصيرا سلطانًا وسلطانة على عرش فرعون!

فتأوهت نوركلدى وقالت :

- يا ليت كل ذلك لم يكن . . . لقد كنت أدخر طومان ليقفو آثار أبيه حتى يلقاه حيًا أو يدرك ثأره!

ثم أطبقت راحتيها على وجهها واسترسلت فى البكاء!

قالت عجوز فى المجلس:

- هونّى على نفسك يا ابنتى؛ أفلست تعلمين أن طومان اليوم أدنى إلى إدراك الثأر، وقد وضع قدمه على أولى درجات المجد؟ سيثأر لك ولأبيه من هذه العيشة الضنك التى تعيشين؛ فليس الثأر هو إدراك الدم، ولكنه إدراك المجد؛ أم لم يبلغك نبأ جاهنشاه التى باعت ولدها جانبلاط راضية لنخاس خوارزمى، ولم تقبض منه الثمن مالاً تنفقه، ولكنها قبضت وعدًا منه بألا يبيعه إلا لسلطان مصر؛ وقد برّ النخاس بما وعد؛ فإن جانبلاط ابن جاهنشاه هو اليوم أمير ألف من مماليك السلطان قايتباى ملك مصر والشام وسيد البحرين، ومن يدرى؟ فقد يكون جانبلاط غدًا هو سلطان مصر والشام وسيد البحرين!

كانت العجوز تتحدث وقد أرهف النساء آذانهن يستمعن إلى ما تقول فى لهفة وشوق، والأحلام تحلق بهن فى أودية بعيدة، وقد غفلن عن نوركلدى وأحزانها؛ فما كادت العجوز تنتهى من حديثها حتى ابتدرتها فتاة من عرض المجلس تسألها فى لهفة:

- ماذا قلت يا أماه؟ جانبلاط ابن جاهنشاه أمير ألف...؟

وغصَّت الفتاة بريقها فلم تتم، وتعاقبت على وجهها ألوان شتى. وعرف النساء ما بها فرفَّت ابتسامة على كل شفة؛ لقد كن جميعًا يعرفن ما كان بينها وبين جانبلاط؛ ذلك الذى كان يطمع أن يتخذها زوجة له، فصعَّرتْ خدَّها وردَّت يده كبرياء وأنفة؛ فأين هو اليوم منها وأين هى! . . .

ثم استردت الفتاة أنفاسها وأردفت كأنما تعزى نفسها:

- ومن أين لك هذه الأخبار وأنت هنا وهو هنالك يا أماه؟

فاعتدلت العجوز فى مجلسها وقالت باسمة:

- حدثنى بها النخاس الذى ذهب به؛ لقد طرق هذه الحلة مساء أمس يسأل عن أمه ليقص عليها خبره، ولعله كان يطمع أن تدفع إليه الحلوان حين يزف إليها البشرى! ولم يكن يعرف أنها قد ماتت منذ عام! ولقيته أنا فحدثنى . . .

قالت الفتاة منكرة:

- حدثك أن جانبلاط قد صار أمير ألف؟ . . .

قالت العجوز ساخرة:

- نعم، وأنه قد تزوج واحدة من بنات السلاطين . . . عرفتُ ذلك من نخاس خوارزم نفسه! . . .

وكانت نور كلدى فى شغل بنفسها عما يتحدث به النساء

حولها لا تكاد تسمع شيئًا منه ، فما كاد يطرق أذنها آخر حديث العجوز حتى اتجهت إليها تسألها فى اهتمام :

- نخاس خُوارزم كان هنا أمس؟

- نعم!

قالت نوركلدى وقد عاد صوتها أكثر اطمئنانًا وأمنًا :

- الآن عرفت أين ذهب ولدى طومان ومن ذهب به . . . آه من ذلك الوحش الغليظ الذى خطف ولدى فأثكلنى بعد ترمُّل وتركنى وحيدة فى أحزانى!

ثم هتفت فى عزم :

- لا ، لن أتركه يذهب به بعيدًا ، سأدركه ، لابد أن يعود إلىَّ طومان العزيز! سألقاه . . . سألقاه . . . سأراه ثانية ولو لفظتُ آخر أنفاسى على الطريق إليه!

●●●



فى بلاد الروم

كان خان يونس الرومى فى ظاهر مدينة قَيْسَارِيَّة من بلاد الروم ملتقى لكثير من تجار المشرق؛ فقد كان طريق الغادى والرائح من هؤلاء التجار، إلى حلب ودمشق والقاهرة، أو إلى أرمينية وبلاد الكرج وما وراء الجبال؛ يأوون إليه فى ذهابهم، وفى معادهم، يلتمسون الغذاء والدفء والمأوى؛ وكان يونس الرومى صاحب ذلك الخان، مستودع أسرار هؤلاء النزلاء جميعًا، فإنه ليعرفهم ويعرفونه منذ سنين بعيدة؛ وكثيرًا ما كان واسطة تعارف بين بعضهم وبعض، وكثيرًا ما ربط بينهم روابط تجارية وعقد صفقات رابحة . . .

وكان أبو الريحان الخوارزمى من رواد ذلك الخان، يأوى إليه بغلمانه ذاهبًا وآيبًا، ويُفضل على الخان وصاحبه من معروفه وبذله؛ فقد كان من أغنى تجار الرقيق فى شرق بلاد الروم وغربها؛ وكانت تجارته هذه تكفل له من الربح ما لا

يحسب معه حسابًا لنفقاته . . . على أن يونس الرومى لم يكن يستريح إلى الخوارزمى أو يطمئن إلى رؤيته؛ فقد كان -إلى بذله ومعروفه- فظًا غليظ القلب فيه قساوة وجفاء، ولم يكن أحد غير يونس الرومى يعرف أنه ليس تاجرًا من تجار الرقيق بالمعنى الذى يفهمه عملاؤه، ولكنه نخاس: يسرق أبناء الحرائر وبناتهن من أحضان آبائهم وأمهاتهم ليبيعهم فى أسواق الرقيق، ويزعم أنه يشتريهم من عملائه فى أرَّان وكِرْمان، وخوارزم! . . .

❊❊❊

ففى ليلة من ليالى الربيع، بينما كان يونس يتهيأ للنوم بعد أن أدى ما عليه للنزلاء من حق وأغلق باب الخان، سمع طرقًا على الباب، فأزاح الغطاء عن جسده، وحمل شمعة موقدة فى يده، وقصد إلى الباب ليرى من ذلك الطارق بليل . . . وكان الطارق أبا الريحان الخوارزمى، وفى يديه فتى وفتاة يجرهما جرًا فى قسوة وغلظة؛ فما كاد ينفتح له باب الخان حتى دفع أمامه الفتى والفتاة ودخل وراءهما؛ ثم جلس وجلسا بين يديه صامتين يتبادلان نظرات حزينة فيها انكسار وخوف، على حين ارتفع صوت أبى الريحان خشنًا جافيًا يقول ليونس:

- ما لك واقفًا كذلك كأنما أصابك المسخ؟ اذهب فهيئ لنا عشاء طيبًا وفراشًا وطيئًا؛ إننى وهذين الخبيثين لم نذق طعم الغمض منذ ثلاث، ولم نطعم شيئًا منذ أمس! . . .

ورفَّت على شفتى الفتاة ابتسامة خابية وهمَّت أن تقول شيئًا ثم أمسكت؛ وقال الفتى متحديًا وفى عينيه بريق العزم والفتوة:

- أما أنا فلن أطعم شيئًا من الزاد حتى تنبئنى أين تذهب بنا! . . .

فصرَّت أسنان الخوارزمى فى غيظ، ثم اصطنع الهدوء والرفق وقال فى صوت ناعم:

- ويحك يا غلام! . . . انظر إلى مصرباى الجميلة الهادئة؛ لقد كنت أحسبك أعقل منها وأكثر إدراكًا لحقيقة الحال؛ أفلم أنبئك . . ؟ .

قال الفتى معاندًا:

- نعم، ولست أريد إلا أن أرجع إلى أمى . . .

فربت أبو الريحان كتفه حانيًا وهو يقول:

- حسبُك يا طومان ولا تذكر أمك، فما أظنك تراها بعد؛ إنك منذ اليوم لست ابن نوركلدى، ولا أبوك هو أركماس .

انسَ ذلك كله كأن لم يكن، فما وراء التذكر إلا الألم والندم؛ وليس إلى ما فات من سبيل، فهيئ نفسك لغدك، يوم تصير مملوكًا فى حاشية السلطان قايتباى، أو أميرًا من أمراء جنده!

قالت الفتاة باسمة:

- يا عم...

قال الخوارزمى غاضبًا:

- ماذا؟... حسبتُك قد فهمت كل ما هنالك فلن تعودى إلى ذلك الحديث؛ أفلا يرضيك أن تكونى غدًا سلطانة على عرش مصر؟

وعاد يونس الرومى يحمل إلى نزلائه طعام العشاء، فكفت الفتاة عن الحديث، وكف الفتى، وأقبل أبو الريحان على طعامه لا يعنيه من أمر أحد شىء؛ فلما أوشك أن يفرغ ما بين يديه من الطعام وقد امتلأ بطنه حتى اكتظ، أقبل على الغلامين قائلاً:

- أفلا تتبلغان بشىء، أم تريدان أن تموتا جوعًا؟

ونظر إلى الفتى نظرة، ثم عاد ينظر إلى الفتاة مثلها وهو يقول:

- كلى أنت يا بنية؛ إن أخاك قد أجمع أمره على أن يموت أو يعود إلى أمه؛ وهيهات أن يبلغ من ذلك شيئًا!

ثم مد يده إلى الفتاة بفلذة من اللحم، فأخذتها من يده وراحت تأكل فى نهم حتى أتت على كل ما أفضل لها سيدها من الطعام، والفتى ينظر إليهما محزونًا لا يكاد ينبس ببنت شفة.

ثم عاد يونس الرومى ينبئ السيد وغلاميه أنه قد هيأ لهم الفراش للنوم. . .

ومضى الثلاثة فى أثر يونس إلى غرفتهم فأغلق عليهم بابها، وعاد إلى غرفته وهو يهمس لنفسه:

- ويل له! ترى من أين اختطفهما؟ وماذا خلف وراءه من حسرات؟!

***

كان جقمق الأشرفى تاجر الرقيق من نزلاء خان يونس فى تلك الليلة، وكان رجلاً كثير الرحلة بين مصر والشام وبلاد الروم، ليتسوّق المماليك، وكان له مكان ملحوظ فى بلاط السلطان الأشرف قايتباى صاحب مصر لذلك العهد؛ فقد كان الأشرف حريصًا على أن يزيد عدد مماليكه ليكون له منهم جيش قوىٌّ يردُّ به عادية الأمراء الذين ينافسونه على العرش فى داخل بلاده، ويدفع به عن مملكته عدوان المغيرين من أمراء البلاد المجاورة، وكان مُلك قايتباى يمتد من صحراء ليبيا إلى حدود بلاد الروم شرقًا وغربًا؛ ومن بحر الروم إلى حدود

اليمن وما وراءها شمالاً وجنوبًا؛ على أنه لم يكن يخشى أحدًا من أمراء البلاد المجاورة خشيته ابن عثمان ملك الروم؛ من أجل ذلك كان دائمًا على الأهبة، فلم يكن له همٌّ إلا زيادة جيشه بما يجلب له التجار من المماليك الذين يتسوقونهم من بلاد المشرق، أو يظفرون بهم من سبى الروم والفرنجة. وكانت وظيفة «تاجر المماليك» فى ذلك العهد وظيفة رسمية من وظائف الدولة لها إقطاع يساوى إقطاع بعض أمراء البلاط؛ وكان جقمق هذا واحدًا من أولئك التجار الذين يركن إليهم قايتباى فيما يريد من هذا السبيل، وكثيرًا ما باعه من جُلبانه غلمانًا رقى بهم السعدُ حتى بلغوا مرتبة الإمارة فى البلاط. . .

على أن جقمق فى هذه الرحلة لم يكن قد وفق إلى شىء يطمع أن يحوز به رضا السلطان، فلم يقع له فى رحلته إلا غلام رومى اسمه خُشقدم، وهو فتى فيه مخايل من ذكاء وفطنة وفيه خبث وتدبير وكيد، وله إرادة وعزم. . . ولكنه غلام واحد. . .

فلما أشرق الصبح، التقى فى بهو الخان أبو الريحان الخوارزمى وجقمق الأشرفى، ووقعت عين التاجر على الفتى والفتاة فرأى صيدًا سمينًا؛ فما كان إلا صفقة يد حتى انتقل طومان ومصرباى من يد نخاس خوارزم، إلى ملك جقمق الأشرفى؛ ومضى كل من الرجلين فى سبيله!

لم تكن الأمـور فى ذلك الوقت بين بايزيد العـثـمـانى والأشرف قايتباى سائرة على نهج الصفاء والمودة؛ فقد كان كل منهما يتربص بصاحبه غرة يناله بها أو ينال منه؛ ولم يكن خافيًا على ابن عثمان أن عدوَّه قايتباى إنما يتكثر بهؤلاء المماليك المجلوبين ليتهيأ لحرب الروم بالعدد الجم؛ فمنع تجار الرقيق المصريين أن يمروا ببلاده، ورسم لجنده أن يقبضوا على كل تاجر منهم يظفرون به فى بلد من بلاد الروم؛ وكان أولئك التجار يعرفون ما ينتظرهم لو دخلوا بلاد الروم؛ ولكن ذلك لم يصدهم عما أرادوا، ومن أين لهم أن يظفروا بمثل المماليك الذين يجتمعون لهم من طريق بلاد الروم؛ من أبناء الروم أنفسهم، أو من الجركس والتركمان؟ من أجل ذلك لم يكن لينقطع وفود هؤلاء التجار إلى بلاد ابن عثمان ملك الروم؛ فمنهم من يعود ظافرًا، ومنهم من تقع عليه عين السلطان فيساق إلى الاعتقال؛ فما كاد جقمق الأشرفى يخرج بغلمانه من خان يونس، حتى بَصُر به جند السلطان بايزيد، فسيق إلى الأسر، وسيق معه جلبانه الثلاثة: طومان، ومصرباى، وخشقدم! وارتدَّ إلى العبودية السيدُ وعبيده!

●●●



جاه العبيد!

جلس الأشرف قايتباى على عرش مصر بضعًا وعشرين سنة، وبلغ الشيخوخة ولم يزل ولده محمد صبيًا لا يصلح لولاية العهد كما يأمل أبوه، على أن وراثة العرش لم تكن أمرًا مألوفًا فى مصر لذلك العهد، وما كانت ولاية قايتباى نفسه عرش مصر وراثة عن أب أو جد؛ فما هو إلا مملوك اشتراه سيده بخمسين دينارًا، فلم يزل يرقى به السعد درجة بعد درجة حتى بلغ أسمى مناصب الدولة، ورفعته مواهبه للعرش حين خلا العرش من سلطانه، فتولاه كما تولاه كثير ممن سبقه من سلاطين المماليك؛ كلهم أرقاء لا يُعرف لأكثرهم آباء ولا أمهات؛ قذفتهم المقادير إلى تلك البلاد التى تصنع السلاطين فصنعتهم سلاطين، ومنهم من فكر فى أن يجعل العرش وراثة فى ولده، ولكن التاريخ لم يكتب لواحد من أولئك الذين تولوا العرش وراثة عن آبائهم النجاح الذى يجعل توريث العرش فكرة ذات قرار...

فلما بلغ السلطان قايتباى ما بلغ من العمر وعرقته الشيخوخة، راح كل واحد من أمراء المماليك يفكر فى العرش ويهيئ أسبابه للوثوب إليه. وقد اجتمع فى عصر قايتباى طائفة من أمراء المماليك لم يجتمع مثلهم لسلطان من سلاطينهم، فكان اجتماعهم قوة لقايتباى فى أيام قوته وعنفوانه، وضعفًا فى أيام ضعفه وهوانه!

كان هناك الأمير تمراز، والأمير أزبك، وأقبردى الدوادار، وقنصوه الخمسمئى! وكان هناك الصبى محمد بن قايتباى؛ وكان هناك قنصوه الغورى...

كل أولئك كانوا يطمعون فى عرش قايتباى من بعده، ويتربصون به.... ولكن اثنين منهما كانا يتعجلان النهاية ليبلغا العرش قبل الأوان، هما أقبردى الدوادار، وقنصوه الخمسمئى.

أميران يملكان المال والعتاد، ولكل منهما جيش من المماليك والأتباع وله فى قلوب الشعب مكان؛ وكانت المنافسة بينهما سافرة حينًا، ومنتقبة أحيانًا، والسلطان الشيخ يرى ويسمع ولا يكاد يصنع شيئًا.

وكانت نُذر الحرب بين قايتباى وجيرانه تترادف عليه مع البريد يومًا بعد يوم: فهناك ابن عثمان صاحب بلاد الروم،

وإسماعيل الصفوى سلطان العجم، وجند سوار صاحب مرعش وديار بكر، وقراصنة البحر من الفرنجة . . . وولده الذى يريد أن يورِّثه العرش ما يزال صبيًا لم يبلغ حد التمييز . . .

لابد من مماليك جدد يتكثر بهم من قلة ويتقوى من ضعف؛ ولابد لذلك من مسالمة ابن عثمان ملك الروم!

وخرج جانى بك حبيب، سفير الأشرف قايتباى إلى ملك الروم فى هدية حافلة، ساعيًا فى الصلح بينه وبين سلطان مصر والشام والحرمين: الأشرف قايتباى . . .

ونجحت السفارة، وأطلق ابن عثمان من فى حبسه من تجار الرقيق المصريين؛ وخرج جقمق الأشرفى من بلاد الروم ومعه غلمانه الثلاثة: طومان، ومصرباى، وخشقدم الرومى. وانتهى إلى حلب، فحط رحاله يستريح أيامًا ويستروح نسيم الحرية فى أرض مصرية، بعد أن لبث سنتين أو يزيد معتقلاً فى بلاد الروم!

وكان قنصوه الغورى وقتئذ نائب قلعة حلب!

***

هذه مدينة حلب . . . أولى مدائن الشام مما يلى بلاد الروم، حيث يلتقى كل يوم مئات من الغرباء على غير ميعاد، ويفترقون إلى غير ميعاد . . .

وهذا جقمق الأشرفى يسوق غلمانه إلى خان مسعود، حيث يأمل أن يجد مأوى مريحًا وطعامًا شهيًا؛ ومن ذا يقصد مدينة حلب من الغرباء ولا يلتمس الراحة فى خان مسعود؟ . . .

ولكن خان مسعود كان فى ذلك اليوم غاصًا بنزلائه، فليس فيه غرفة واحدة خالية من النزلاء، ليأوى إليها جقمق وغلمانه، فبينما هو يهم بالرجوع ليلتمس ضيافة عند بعض أصحابه فى المدينة، إذ دعاه صاحب الخان وعرض عليه أن يشارك بعض النزلاء فى غرفته ريثما تخلو له غرفة أخرى؛ فأجابه جقمق وحط رحاله، وكان شركاؤه فى الغرفة الكبيرة التى تطل شرفاتها على الدرب الواسع، هم ملباى الجركسى وأولاده.

وكان ملباى هذا رجلاً من أهل صمصوم، بالقرب من بلاد الكرج، قد استهواه المجد فخرج بأولاده الأربعة إلى مصر يريد أن يهبهم للسلطان الأشرف قايتباى ليكونوا جندًا من جنده . . .

أربعة فى سن الشباب، لم يدخلوا تحت رق قط، ولم ينتزعهم من أحضان أمهاتهم نخاس، يسعون مختارين، أو يسعى بهم أبوهم، ليقدم أعناقهم للرق . . . طمعًا فى الإمارة والسلطان . . .

أربعة أحرار، يحسدون الأرقاء على بعض ما أولاهم الله من نعمته، فيبيعون حريتهم طائعين . . . يا عجبًا! ولكن لماذا العجب؟ أليس الرق هو الذى صنع كل أولئك السلاطين الذين يتوارثون عرش فرعون منذ أكثر من مائتى عام؛ فماذا يعيبهم أن يسلموا أعناقهم للرق، ليرتقى بهم الرق إلى العرش! ليس يعنيهم ماذا تكون الوسيلة ما دامت الغاية هى الإمارة والجاه والسلطان!

ولقى جقمق الأشرفى تاجرُ المماليك شركاءه فى الغرفة، وعرف من أمرهم ما عرف، فابتسم مغتاظًا وهو يقول لملباى:

- ولكنك يا سيدى تقامر بأولادك؛ فمن أين لك أن يصيروا كلهم أو بعضهم أمراء؟ أفلست تخشى أن يبقوا مماليك ويخلدوا فى الرق، لا تُفك رقابهم ولا يملكون أن يعودوا إلى الحرية؟ أم تحسب أن كل مملوك فى «الطبقة» أهل للإمارة فلابد أن يترقى حتى يبلغ العرش؟

وهمَّ ملباى أن يجيب، ولكن ولده خاير ابتدر الحديث قائلاً:

- يا سيدى، هذا كلام يقال؛ فهل ترانى أو ترى أحدًا من إخوتى هؤلاء أقلَّ أهلية للإمارة من مثل غلامك هذا الذى لا يعرف له أبًا غير النخاس الذى أدمى أذنيه يقوده منهما على طول الطريق كما يقاد الحمار!

وكان طومان الصغير جالسًا يستمع إلى حديث أستاذه وجواب خاير بن ملباى، فما كاد يرى إشارته إليه ويسمع حديثه عنه حتى غلى دمه وثارت كبرياؤه، كأن لطمة أليمة قد نالته، فصاح مغضبًا :

- صه يا فتى؛ إننى لأرفع نفسًا منك ومن أبيك هذا الذى يدفعك إلى الرق مختارًا ليزهو بأن ولده عبد من عبيد السلطان!

ثم اندفع نحوه وعيناه تقدحان الشرر، فلولا أن قبض أستاذه على ذراعه لوثب إلى خاير بن ملباى فمزق وجهه وأدماه ليثأر منه لتلك الإهانة البالغة!

غرق الجميع فى الصمت مذهولين، فما كان ليدور بخاطر واحد منهم أن يجرؤ ذلك الصبى القابع فى هدوء خلف أستاذه على أن يرفع صوته ويده فى وقت معًا فى وجه شاب أيِّد مثل خاير ابن ملباى؛ ونالت المفاجأة من خاير بن ملباى نفسه فلم يتحرك ولم تنبس شفتاه بصوت، وأحس على صلابته وقوة ساعده أنه ضئيل صغير لا يكاد يملك دفاعًا عن نفسه، فتمتم فى صوت خافت :

- ماذا قلت؟

أجاب جقمق :

- لا شيء! لا شيء!

قال طومان وهو يحاول أن يفلت من قبضة أستاذه ولم يزل في سورة غضبه :

- سيدى! دعنى أنبئ هذا الفتى بما يريد أن يعرف! . .

قال جقمق ولم تخفّ قبضته على ذراع طومان :

- اسكت يا غلام، إن خاير لم يحاول إهانتك، ثم إن له عليك حق الأخ الكبير، وقد كانت بادرة!

قال طومان :

- إنه ليس أخى، وليس يعرف مثلُه مثلى، ولا أبوه أبى!

ثم تخلص من قبضة أستاذه برفق، وخطا خطوة إلى الشرفة يتلهى بالنظر إلى المدينة التى تموج بالغرباء، وتُتبع عينيه خُطا الغادرين والرائحين فى الدرب الواسع!

ومضى يومان قبل أن تخلو غرفة أخرى فى خان مسعود فينتقل إليها جقمق وغلمانه لتخلو الغرفة الأولى لملباى وأولاده. ولكن عوامل الاحتكاك مع ذلك لم تزل بين طومان وخاير بن ملباى؛ فلم تكن تلك المشادة الحامية هى كل ما نشب بينهما من معارك فى الأيام القليلة التى قضياها معًا نزلاء فى خان مسعود؛ بل إن المعارك التالية كانت أعنف وأشد؛ فقد صعد طومان ذات صباح إلى سطح الخان لأمر

من أمره، ثم هبط سريعًا خفيف الخطا، فإذا خاير ومصرباى في خلوة يتحدثان حديثًا رأى لونه في خديها وشفتيها؛ فثار لعرضه ثورة بدويٍّ وتناول السكين، فلولا أن خاير بن ملباى فر من بين يديه معجلاً لسال بينهما دم؛ ولِم لا؟ أليست مصرباى صديقته وأخته، وعليه أن يحميها ويدافع عنها؟ . والتفت طومان إلى الفتاة التي آخاها عامين على السراء والضراء، منذ فر بهما نخاس خوارزم من مضارب الغور، ولكن الفتاة أولته ظهرها معرضة كأنما لا يعنيها شيء من ذلك الأمر!

لقد فتنها خاير بن ملباى بشبابه وصباحة وجهه ورقَّة حاشيته وعذوبة منطقه، فمالت إليه وأعرضت عن صديقها الصغير...

وظن طومان أنه مستطيع أن يستعدى زميله خشقدم على خاير، دفاعًا عن صاحبتهما مصرباى، فراح يحدثه ويطلب معونته، واستمع إليه خشقدم حتى فرغ من جملة حديثه، ثم ذهب إلى خاير بن ملباى فأفضى إليه بسر المحالفة، استجلابًا لمودته!

وساء ما بين طومان وبين أصحابه جميعًا، فانطوى على نفسه حزينًا يائسًا، وعرف منذ اليوم في أى جو من الكيد

والغدر والنفاق يعيش الأرقاء. لقد عرف مصرباى، وخشقدم، وخاير بن ملباى؛ فهل هم إلا صورة من آلاف الأرقاء الذين يعيشون فى دور الأمراء وفى قصور السلاطين!

فكيف يعيش منذ اليوم طومان ابن نور كلدى وأركماس؟!

●●●



قنصوه الغورى

كانت الفتنة ناشبة فى القاهرة بين أقبردى وقنصوه الخمسمئى تنافسًا على العرش، على حين كان سائر الأمراء العظام يتربصون منتظرين؛ وكان قنصوه الغورى وحده فى حلب، يدبر لأمره ما يدبر فى هدوء وصمت، كأنما لا يعنيه من أمر تلك الفتنة شىء. . .

لم يكن الغورى يومئذ بالمنزلة التى تسمح له أن ينافس على عرش مصر أقبردى الدوادار وقنصوه الخمسمئى. نعم إنه من أقدم مماليك الأشرف قايتباى وأدناهم إليه منزلة، ولكن أين هو من أقبردى وقنصوه الخمسمئى؟ وأين وسائله للكفاح؟ . . . إنه لا يملك المال الذى يصطنع به الأشياع، ولا الجاه الذى يتكثر به من الأتباع، وليس له كغيره من الأمراء جيش من المماليك يُعده للهجوم والدفاع؛ فمن أين له أن يبلغ ما يأمله؟ ولكنه إلى ذلك يملك الصبر والحيلة؛ أفليس يسعه الانتظار

حتى يتفانى هؤلاء الأمراء العظام ويأكل بعضهم بعضًا فينفرد في الميدان؟ بلى، وإنه ليستطيع إلى ذلك أن يتعجل آخرتهم بما يزين لهم من الأمانى، فإذا وثب بعضهم على بعض سقط الضعيف وانتهى أمره، وانحلت عروة القوى فزال خطره! ومن ذا يبقى فى طريقه إلى العرش بعد تمراز الشمسى، والأمير أزبك، وأقبردى الدوادار، وقنصوه الخمسمئى؟ من ذا يبقى فى طريقه إلى العرش بعد هؤلاء؟ محمد بن قايتباى، ذلك الصبى الذى لم يبلغ حد التمييز؟ . . . نعم، وإنه لأقواهم جميعًا، أفليس هو ابن الأشرف قايتباى سيده ومولاه؛ فحسبه بذلك قوة! . . . ولكن من ذا يزعم أن هذا الطفل سيبقى فلا تَطؤه أقدام أولئك العماليق وهم يتصارعون بين يدى العرش؟

أفيمكن هذا؟ أفيكون عرش مصر لقنصوه الغورى يومًا؟ أفيبلغ هذا الأمل بالصبر والحيلة، حين لا مال معه، ولا جاه، ولا جند؟ لقد جاوز الخمسين ولم يزل أميرًا، نائبًا لقلعة حلب، وهناك مماليك أحدث منه عهدًا فى «المملوكية» قد بلغوا عرش السلطنة ولم يبلغوا الأربعين!

يا ليت ذلك الحلم يتحقق! وماذا يمنع؟ إن الأقدار لتمده بما لم يكن يتوقع من المعونة: لقد غادر بلاده منذ ثلاثين سنة، مطلوبًا بثأر، فى ركاب قافلة من تجار الرقيق، لا يدرى أين تسعى به قدمه، حتى انتهت به المقادير إلى مصر رقيقًا يساوم

عليه بالمال، ثم لم تمضِ إلا سنوات حتى كان مملوكًا من مماليك «الخاصة» فى حاشية السلطان قايتباى، ومضى يترقى فى درجات المملوكية درجة بعد درجة حتى بلغ أن يكون نائب قلعة حلب، وصار أميرًا من أمراء السلطان يشار إليه بالبنان، فهل كان يأمل أن يبلغ هذه المنزلة يومًا؟ فماذا يمنع أن يبلغ أرفع منها فيصير سلطانًا؟ أيكون ما بينه وبين بلوغ رتبة السلطنة أبعد مما كان بين ماضيه وحاضره؟

إنه لموقن يقينًا لا شبهة فيه أن الأقدار تعينه وتمهد له الطريق وتهيئ له من الأسباب ما لا يخطر له على بال؛ فقد تعقبه أركماس من بلاد الكرج إلى القاهرة ليأخذ منه ثأر أبيه، ولقيه وجهًا لوجه، وأمكنته الفرصة منه؛ وجرد أركماس سيفه وهَمَّ أن يضربه الضربة القاضية، ولمع على رأسه السيف فلم يكن بينه وبين الموت إلا أن يهوى على رأسه فيقده قدًا؛ وفجأة حدثت المعجزة، وتدخل الأقدار فى اللحظة الأخيرة، فبرز فى الطريق جمل هائج فألقى أركماس على الأرض وداسه تحت أخفافه، ونجا الغورى، فمضى فى طريقه لم يتلفت ولم ينظر وراءه، وانمحى الثأر والثائر؛ أفليس ذلك تدبير الله؟ أليس فيه الدليل على أن الأقدار تدخره لأمر عظيم تهيئ له أسبابه وتمهد طريقه؟ بلى، فماذا يمنع أن يبلغ رتبة السلطنة، وأن يجلس على عرش مصر، وأن يذهب تمراز، وأزبك، وأقبردى،

وقنصوه الخمسمئى، يذهبون جميعًا ويأكل بعضهم بعضًا، فلا يجلس واحد منهم على عرش مصر، ويجلس عليه قنصوه الغورى. . . بالصبر والحيلة. . .

****

هكذا كان يحدث الغورى نفسه وهو وحيد فى مجلسه من قلعة حلب، حيث جاءته الأنباء من القاهرة بما ثار من الفتنة بين أقبردى الدوادار وقنصوه الخمسمئى فى سبيل المنافسة على العرش؛ وقال لنفسه مبتسمًا: الصبر، حتى يأكل بعضهم بعضًا ويتفانوا؛ حينئذ يخلص لك الطريق إلى عرش مصر، أيها. . . أيها الأفّاق المطّلوب بالثأر من أقصى بلاد الأرض.

وقهقه قهقهة عميقة تردد صداها بين جدران المجلس، ثم نهض فلبس ثيابه وأخذ زينته وخرج إلى الطريق لا يتبعه أحد من غلمانه؛ وما حاجته إلى غلام يتبعه وليس فى حلب كلها إلا صديق يحبه ويفتديه بدمه!

فإنه ليمشى فى طريقه بأحد دروب حلب، إذ لقيه صديقه جقمق الأشرفى تاجر المماليك، وكان زميله فى «الطبقة» منذ بضع وعشرين سنة، حين كانا مملوكين يتلقيان أصول العلم فى مدرسة المماليك بالقلعة ويتدربان على أساليب الحرب

والفروسية، وكان كل أملهما فى ذلك الزمان البعيد أن يترقيا درجة فيخرجا من مماليك «الطبقة» ويصيرا من المماليك «الخاصة» الذين يركبون فى مواكب السلطان ويختصون بصحبته! . . .

قال جقمق ضاحكًا:

- ومع ذلك فهأنذا أراك تمشى وحيدًا فى المدينة لا يتبعك غلام، كأنك لا غلام لك، وأنت نائب قلعة حلب!

قال الغورى:

- وهل عندك غلام تخص به صديقك نائب قلعة حلب؟ فقال تاجر المماليك.

- غلامان وجارية إذا أردت؛ إلا أن يبدو لك أن تستغنى بالغلامين عن الجارية، وإن فيهما لغناء ومتعة! . . .

فوضع الغورى كفه على فم صديقه وهو يقول:

- صه! إنك لا تزال مهذارًا كعهدى بك منذ كنت؛ فاذكر أنك اليوم تتحدث إلى نائب قلعة حلب!

وكانا قد بلغا فى مسيرهما خان مسعود، فودع جقمق صاحبه الغورى، ودخل الخان يتفقد شئون غلمانه. . .

ولقى جقمق جاره ملباى فى بهو الخان، فقال له ملباى:

- الآن أستودعك الله يا صديقى، فقد اعتزمت أن أبدأ غدًا رحلتى إلى القاهرة، فهل لك من حاجة إلى بعض أصحابك هناك؟ قال جقمق آسفًا:

- أكذلك تفارقنا سريعًا! لقد كنت أحسبك مقيمًا معنا فى حلب أيامًا أخرى، حتى يتهيأ لى أن أجمع بعض الغلمان فنصطحب فى الرحلة!

قال صاحب الخان مشاركًا فى الحديث:

- فإن بين نزلائنا الليلة جانى باى الخشن تاجر المماليك، وأحسبه سيبدأ رحلته غدًا إلى القاهرة، ومعه عصبة من أقارب السلطان عاد بهم من بلاد الجركس. . . فإن شاء ملباى رافقه فى الرحلة.

قال جقمق:

- جانى باى هنا؟ فإنى أريد أن ألقاه. . .

وحضر جانى باى، فما كاد يراه صديقه جقمق حتى أسرع إليه فاعتنقه بشوق، ثم استدار بهم المجلس يتبادلون فنونًا من الأحاديث حتى تقدم الليل، فافترقوا وذهب كل منهم إلى مضجعه لينام. . .

فلما كان الصباح، بصر طومان بخاير بن ملباى يتمشى

ثقيل الخطو عند باب الغرفة، حيث كانت مصرباى جالسة بين يدى مولاها وفى وجهها أمارات القلق واللهفة، فأدرك طومان ما بين جنبيها من السر، وهمس لنفسه قائلاً:

- يا للمسكينة! لقد غلبها الفتى على أمرها، ولكن لا بأس فسيذهب من وجهها بعد ساعات فلن تراه بعد، وتنجو الشاة من سكين الجزار!

ولكن صوت سيده لم يلبث أن رده إلى فكر جديد حين سمعه يقول:

- اسمعى يا مصرباى! ستكونين يا ابنتى منذ اليوم تحت يد صديقى جانى باى، وستصحبينه فى رحلته غداً إلى القاهرة، حيث أرجو لك أيتها العروس الصغيرة حظًا سعيداً...

ثم صمت برهة ونظر على طومان وخشقدم فإذا فى أعينهما سؤال حائر، فأردف قائلاً:

- أما أنتما يا طومان وخشقدم فستبقيان هنا فى حلب... ولعل القدر يهيئ لكما فرصة سعيدة فى صحبة قنصوه الغورى نائب قلعة حلب؛ إنه فى حاجة إلى رجل صغير مثلك يا طومان، يعتمد عليه فى مهماته، وإنك فى حاجة إلى أمير قوى مثل الغورى يهيئ لك السبيل إلى الإمارة...

وستجد صديقًا لطيف المعشر فى زميلك خشقدم...

عبس خشقدم حين رأى منزلته فى حديث مولاه دون منزلة صاحبه؛ أما طومان فلم يفكر وقتئذ إلا فى أمر واحد، هو أمر صديقته الصغيرة مصرباى التى حِيل بينه وبين حمايتها من ذلك الذئب؛ فصاح محتجًا:

- سيدى . . .

قال جقمق غاضبًا:

- صه! لقد عقدتُ الصفقة ولا سبيل إلى الرجوع بعد!

وكان خاير بن ملباى لا يزال يتمشى ثقيل الخطو عند باب الغرفة التى يتحدث فيها جقمق إلى غلمانه، ولكن أمارات القلق واللهفة كانت قد زالت عن وجه مصرباى ورفَّتْ على شفتيها ابتسامة رضا واطمئنان . . .

ونهض طومان إلى باب الغرفة ففتحه، فإذا هو وجهًا لوجه أمام خاير بن ملباى؛ أما خاير فطأطأ رأسه خجلاً وأوفض فى السير، وأما طومان فتمتم فى غيظ:

- اذهب حيث شئت، فلابد أن نلتقى يومًا! . . .

ثم أغلق باب الغرفة وعاد إلى مجلسه بين يدى أستاذه جقمق!

ومضى الركب لوجهه وفيه ملباى الجركسى وأولاده

الأربعة، وفيه جانى باى وصحابته من أقارب السلطان، ومعهم مصرباى.

وتبع طومان وخشقدم مولاهم فى الطريق إلى قلعة حلب، حيث كان نائبها قنصوه الغورى ينتظر . . . ومثل طومان وصاحبه بين يدى نائب القلعة، وأحنى طومان رأسه تأدبًا وفى عينيه ذبول وانكسار!

وقال الغورى وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة:

- ادنُ يا غلام! . . .

وربت خدَّه بيد ناعمة بضَّة، ثم دعاه إلى الجلوس بين يديه وعيناه تسرحان فى محاسن وجهه الدقيق الفاتن . .

قال جقمق:

- إن فى إهاب هذا الفتى يا قنصوه فارسًا لا يغالب، وإن بين جنبيه قلب رجل كبير وفى أنفه جمية؛ فلا يشغلك منه منظر عن مخبر! أما هذا الفتى الرومى . . .

قال قنصوه ضاحكًا:

- حسبك يا جقمق، فقد فهمت كل ما تعنيه؛ ولكن أين الجارية؟ . . .

قال جقمق:

- وما حاجتك أنت إلى الجارية؟ لقد ذهب بها صديقى جانى باى إلى القاهرة، حيث يجد من يغالى بثمنها أضعاف ما يجد فى حلب أو دمشق!

قال الغورى:

- لقد أذكرتنى . . .

ثم مد إليه يده بصرةٍ فيها دنانير، فتناولها من يده وهو يصطنع الإباء، ودسها فى جيبه!

ودخل حاجبه يؤذنه بمقدم صاحب البريد من القاهرة، فنهض جقمق يتهيأ للانصراف؛ وصحب الحاجب الغلامين إلى الطبقة، وخلا المجلس للغورى . . .

وفض غلاف الرسالة التى جاء بها البريد وراح يقرؤها باهتمام، ثم رفع عنها عينيه وهو يقول وعلى شفتيه ابتسامته:

- الصبر يا قنصوه حتى يتفانى أعداؤك ويأكل بعضهم بعضًا، وحينئذٍ يخلو لك الميدان . . .

●●●

(٥)

أحلام جارية

مضى ركب جانى باى، وملباى، يغذ السير حتى بلغ دمشق، فأقام أيامًا ثم استأنف سيره إلى القاهرة؛ وكانت الفتنة ثمة قائمة بين أنصار أقبردى الدوادار، وأنصار قنصوه الخمسمئى؛ أما قنصوه الخمسمئى فيعتز بما له من الأتباع والجند، وبما يملك من محبة الشعب، وبصهره إلى الأمير أزبك صاحب المال والجاه والإمارة... وسيد الأزبكية...

وأما أقبردى فإنه قريب السلطان وعديله ودوادار الكبير؛ فإن له سببًا فى البلاط ووجاهة عند المماليك والأمراء...

وبلغ ركب ملباى، وجانى باى القاهرة، أما ملباى فمثل بين يدى الأشرف قايتباى ليدفع إليه رقاب بنيه الأربعة هدية، ليكونوا جندًا من جنده كسائر مماليكه؛ فقبل قايتباى هديته وشكر له، ثم أمر بخاير بن ملباى وإخوته الثلاثة فصعد بهم الآغا إلى الطبقة لينتظموا مع سائر المماليك فى مدرسة القلعة،

حيث يتلقون علوم السلم وفنون الحرب وأساليب الفروسية على خير المعلمين وأبرع القواد فى مصر لذلك العهد. . .

وأما جانى باى فأدى رسالته إلى السلطان ودفع إليه من جاء بهم من أقاربه الذين عاد بهم من بلاد الجركس؛ ثم انصرف معجلاً إلى حيث ترك جاريته مصرباى الجركسية، تنتظر مقدمه.

وكانت الفتاة قد بلغ منها الضجر والهم مبلغًا بعيدًا؛ فقد كانت تأمل أن يصعد بها تاجر المماليك إلى القلعة فيعرضها على السلطان فيمن معه من أقاربه، ولكنه لم يفعل. وأحست خيبة آمالها المريرة، حين فارقها خاير وإخوته وتقطعت بينها وبينهم الأسباب، لا حبًا له، بل حبًا للجاه والإمارة. لقد سمعت كثيرًا عن حياة أمثالها من الجوارى الحسان فى بيوت السلاطين فتمنت الأمانى.

لم تكن مصرباى تحب خاير حين آثرته على جارها وصديقها طومان، ولكنها رأت فى صحبته وسيلة إلى بعض ما كانت تأمل، أليس يُنتظر أن يكون خاير من حاشية السلطان؟ هكذا فهمتْ من حديثه إليها ومن حديث أستاذها؛ إذن فستجد به الوسيلة إلى أن تعيش فى قصر السلطان؛ ومن يدرى؟ فقد تجد بعد ذلك أسبابًا تدنيها إلى العرش. . . . وإن

لها من جمالها وذكائها وسيلة لعلها تبلغ بها يومًا ما أن تصير سلطانة أو أمَّ سلطان!

تلك كانت أحلامها التى تتراءى لها فى المنام وتتخايل لعينيها فى اليقظة، منذ سمعت تلك الأقاصيص التى يتحاكاها الناس عن تقلبات الأقدار بحظوظ الجوارى فى قصور القاهرة؛ وقد كبرت فى نفسها هذه الأمانى شيئًا بعد شىء، حتى أوشكت أن تكون حقيقة مرتقبة يوم عرفت خاير فعرفت أول أسبابها إلى تحقيق أمنيتها وتعبير رؤياها. . .

وكانت أحلامًا لم يكد يشرق عليها الصبح حتى محاها شعاع النهار، فإذا هى وحدها وقد ذهب خاير كما ذهب من قبله صديقها وجارها العزيز طومان! . . .

وأحست لأول مرة منذ فارقت بلاد الجركس أنها جارية. . . جارية يساوم عليها الرجال بمالهم فى سوق الرقيق، ليس لها فى أمرها خيرة. . . وانحدرت دموعها على خديها لأول مرة، وشعرت شعور الوحيد الغريب قد تقطعت الأسباب بينه وبين الناس جميعًا فليس بينه وبين أحد منهم آصرة من حب أو من رحمة. . . وهتفت من أعماقها فى صوت يختلج:

- ليتنى بقيت إلى جانبك يا طومان!

وعاد جانى باى من قصر السلطان، فصحب جاريته إلى سوق الرقيق فى خان الخليلى؛ وصعد بها الدلأل إلى الدكة فى ثوب يشفُّ ويصف، وقد حسرت عن وجهها وذراعيها، تتناهبها عيون الناس ويسومها المفلس والملىء، وقد وقف الدلأل يهتف بمحاسنها ويفتنُّ فى الوصف والإغراء . . .

على أن هذا الموقف الذليل لم يستمر طويلاً فقد تقدم إلى الدكة واحد من خاصة الأمير أقبردى الدوادار، فدفع ثمنها وصحبها إلى بيت مولاه تتعثر فى خُطاها من الانكسار والمذلة . . .

وقف جانى باى تاجر المماليك من السوق إلى داره سعيدًا بما ناله من عطف السلطانة، وبما ظفر من الربح فى صفقة الجارية .

وتوزعت الأقدارُ حظوظَ المماليك الثلاثة : طومان، ومصرباى، وخاير بن ملباى، وانشعبت بهم الطريق شعابًا ثلاثة إلى حيث لا يعلم واحد منهم أين ينتهى به القدر ! . . .

***

وعاد أقبردى الدوادار وأخوه كرت باى إلى دارهما بعد رحلة طويلة شاقة فى بلاد الصعيد، حيث كانا يقودان حملة لتأديب بعض العصاة من أعراب الجنوب، أولئك الأعراب الجفاة الذين

لا تكاد تهدأ لهم ثائرة ولا يريدون أن يدخلوا فى طاعة سلطان الجركس، كأنما خُيل إليهم أنهم يستطيعون أن يردوا الملك إلى العرب وأن يعود إليهم العرش والتاج والسلطان!.

وكانت زوجة أقبردى فى ذلك اليوم فى قصر القلعة تزور أختها زوجة السلطان قايتباى؛ فتهيأت الفرصة لمصرباى الجركسية لتبرز فى مجلس أقبردى وأخيه كرت باى. ومدَّ كرت باى عينيه فالتقتا بعينى مصرباى، ورأى ما لم ترَ عيناه قبل اليوم من جمال وفتنة، فخرَّ لساعته صريعًا وانعقد لسانه من دهشة المفاجأة فلم ينبس بحرف وترك عينيه تقولان ما لم يستطع بيانه بلسان!

وانعقدت آمال كرت باى منذ اليوم بمصرباى؛ وانعقدت به آمالها وتجددت أحلامها بالإمارة والسلطان. ومثل كرت باى حقيق بأى يبلغ بها الإمارة والسلطان. . .

وذاع ما بين كرت باى وصاحبته حتى صار أفكوهة السامرين من مماليك القصر وجواريه، وحتى عرفته سيدة الدار زوجة أقبردى. .

وجاءت السلطانة ذات يوم لزيارة أختها فرأت مصرباى، فرغبت إلى أختها أن تهبها لها فتتخذها وصيفة من وصيفات البلاط؛ فقالت مولاتها ضاحكة:

- قد كان لك ذلك يا خوند، لولا كرت باى؛ فليس يهون عليّ أن أفرق بينهما! . . .

قالت السلطانة:

- ويحبها إلى ذلك الحد؟

قالت أختها:

- نعم يا خوند، ولو قصصت عليك من خبرهما لأشفقت ولم يهن عليك أن تفرقي بينهما! . . . وقد كنتُ على أن أفك رقبتها ليتخذها زوجة، فإذا أذنت فإنني أعتقها لتصحبك إلى القصر حرة مسمّاة على كرت باى، حتى يحين موعد زفافها إليه في الربيع! . . .

قالت السلطانة:

- فقد أذنتُ لك وله . . . ! .

ودُعيت مصرباى إلى مجلس السلطانة، فوهبت لها مولاتها حريتها وأنبأتها النبأ، فتضرجت وجنتاها من حياء وتتابعت أنفاسها فلم تلفظ كلمة الشكر . . .

وصحبتْ مولاتها السلطانة إلى القلعة، لتكون منذ اليوم وصيفة بين وصيفات البلاط!

وخطت أولى خطواتها إلى المجد، وبدأت تصعد الدرج إلى العرش . . . وتدانت لها الأماني.

هل كان فى خيالها وقتئذ كرت باى ، أو خاير بن ملباى ، أو طومان صديقها الصغير ، أوَ ماضيها البعيد فى الغور المنبسط بين جبال القبج؟ . . . لا شيء من ذلك كان يطرق خيالها يقظى أو نائمة ؛ فما كان يطيب لها وقتئذ إلا خيال واحد ، حين تقف وراء مولاتها السلطانة وهى جالسةً إلى المرآة تأخذ زينتها وتنطبع على المرآة صورتان ، فتطير بها الأحلام تعبر بها حدود الزمن ، فكأنما ترى صورتها فى المرآة ، وعلى رأسها تاج ، ومن ورائها وصيفة تُرجِّل شعرها المرسل ، وخطوات السلطان تقترب من غرفة الزينة . . . من يكون ذلك السلطان يومئذ؟ ليس يعنيها من يكون السلطان يومئذ ؛ فليكن هو كرت باىَ ، أو خاير بن ملباى ، أو قايتباى العجوزَ نفسه ، فليس يعنيها من ذلك إلا أن تكون هى سلطانة!

ورآها الصبى محمد بن قايتباىْ فى حريم القصر فافتتن بها ، وقد سرها أن يفتتن بها ابن السلطان وإن كان صبيًا لم يبلغ الحلم ، فمدت له خيط الرجاء . . .

وراح جوارى القصر يتحدثن عن غرام الأمير الصغير بوصيفة السلطانة ، وبلغ النبأ أمه أصل باى جارية السلطان قايتباى وحظيته ، فلم تشك فى أنها دسيسة دبرتها زوجة السلطان التى لم تستطع أن تنجب له ولدًا يرث العرش فحاولت أن تفسد ولدها!

على أن مصرباى لم تكن فى قصر السلطان مطمح نفس محمد بن قايتباى وحده؛ فقد كان ثمة شاب آخر يرمقها بعينى الصقر الجائع! ذلك هو قنصوه أخو أصل باى حظية السلطان، وخال ولدها محمد بن قايتباى!

وكان قنصوه الأشرفى هذا فتى فى عنفوانه، ذكى القلب، واسع الذرع، بعيد الحيلة، فسيح مطارح الآمال؛ وعلى أنه كان شابًا لم يبلغ الثلاثين، فقد كان له فى القصر جاه ومنزلة، ولولا أنه أخو أصل باى حظية السلطان وأم ولده المرتجى لما بلغ هذه المنزلة، ولظل مملوكًا بين مئات المماليك الذين تزخر بهم طباق القلعة، ليس له شأن ولا يحس مكانه أحد؛ وقد كان ذلك شأنه منذ قريب، ثم وقعت عليه عين أخته ذات يوم فعرفته ولم تكد، فهتفت:

- أخى قنصوه! . . .

فالتفت إليه السلطان منذ ذلك اليوم وأغدق عليه نعماءه؛ فلم يمض إلا سنوات حتى كان ذلك المملوك المغمور بين مئات المماليك، أميرًا من أمراء البلاط يشار إليه بالبنان، وله فى القصر سياسة وتدبير!

واجتمع على الإعجاب بمصرباى الجركسية الولدُ والخال! وزاد الغيظ بأصل باى حين اكتشفت ذلك السر

الفظيع ، فودت لو تستطيع أن تحول بين تلك الوصيفة الفاتنة وبين ولدها وأخيها ؛ ولكن من أين لها القدرة على ذلك وإنها لجارية فى القصر وإن كانت أم ولد السلطان وولىّ عهده!

على أن إقامة مصرباى لم تطل فى القصر منذ اليوم الذى اكتشفت فيه أصل باى ذلك السر ، فقد عُقد لها على خطيبها المفتون كرت باى أخى أقبردى الدوادار ، وانتقلت إلى داره . . ثم لم تطل بهما الإقامة فى القاهرة بعد ؛ فقد عُقد لزوجها اللواء نائبًا على صفد ، فخرج إليها تصحبه عروسه الفاتنة ، وخلفتْ وراءها فى القاهرة قلوبًا تحترق! . . .

●●●

(٦)

عودة الماضى

عاش طومان فى قلعة حلب سيدًا صغيرًا، ليس لأحد عليه سلطان، وقد اجتمعت له كل أسباب الرفاهية والنعمة؛ ولكنه مع ذلك لم يكن سعيدًا؛ فإن ذكريات عزيزة من ماضيه كانت تُلمّ به حينًا بعد حين فتسلبه الطمأنينة والقرار؛ فلا يزال يذكر أيامه فى بلاد الغور، حيث تنبسط الأرض حواليه على مدّ البصر وقد تناثرت فيها الخيام، يذهب فيها حيث يشاء ويعود حين يشاء، ليس عليه رقيب يعد خطاه ويحصي عليه أنفاسه؛ هناك، فى أرض الحرية، حيث السماء، والماء، والهواء، كل ذلك ملك خالص له هو وحده على ما يخيل إليه، ليس بينه وبين شىء يريد أن يبلغه قيود ولا سدود، ولا حدّ للحرية التى يستمتع بها عابثًا لاهيًا بين خيام القبيلة وعلى شواطئ الغدران وبين الغنم السائمة فى المراعى النضرة. أين منه كل أولئك فى هذه القلعة المنيعة، فى هذه المدينة المحوطة بالأسوار، وبالأسرار!

بلى، إن هنا الطعام والشراب، وهنا الفراش الوثير كأنه حين يُسلم إليه جسده ينام على جناح النسيم؛ وهنا من وسائل النعيم ما لا رأت عينه ولا سمعت أذنه ولا خطر له على قلب؛ ولكن ما نُفع ذلك كله وهو وحيد فريد، ليس له أم تحنو عليه، ولا صاحب يأوى إليه، ولا رفيق يحمل بعض همه؛ وإنه مع ذلك كله عبدُ سيده، لا يخطو خطوة إلا بإرادته، ولا يفتح شفتيه بكلمة إلا أن يأذن له. أكان يهجس بخاطر أمه نور كلدى أن ينتهى ولدها العزيز طومان إلى هذا المصير؟!... وحضرته ذكرى أمه؛ يا لها من بعده؛ تلك الأرملة التى وهبت له شبابها النضر واعتبرته كل حظها من دنياها فليس لها وراءه أمل تأمله... كيف هى الساعة وأين ذهبت بها الظنون لبعده وماذا فعلت بها من بعده الأيام!

واستجابت له عيناه فأرسل دموعه على خديه.

وسمع وقع خطا تقترب من الباب، فهب واقفًا يمسح دموعه بكمّ قميصه؛ ودخل الغورى فاتخذ مجلسه فى صدر القاعة وظل الصبى واقفًا بين يديه... ورأى سيده فى عينيه أشجانه فأهمه ما رأى، فاستدناه إليه وربت ظهره بحنان وضمه إليه بعطف وهو يسأله عما به، وسمع الفتى وأحس لأول مرة منذ فارق أمه، نبضة قلب فى نبرة صوت وضمة

حنان، فعادت دموعه تنحدر على خديه واحتبس الصوت فى حلقه؛ فأرسله الغورى من بين يديه وأذن له فى الجلوس وهو يقول:

- حدثنى يا بنى ما خطبك، فلعلى أن أزيل عنك بعض ما تنوء به من الهم!

وكان فى صوته رنة صدق، فانحلت عقدة لسان طومان وراح يتحدث بخبره إلى مولاه. . .

قال الغورى:

- فأنت من بلاد الغور؟

قال طومان:

- نعم يا سيدى، ولم تزل أمى هناك!

فهش الغورى ورفّت على شفتيه ابتسامة وهو يقول:

- إنك بعض أهلى يا بنىّ! هيه! . . .

واطمأن كل منهما إلى صاحبه وصفا ما بينهما، فمضى طومان يتحدث إلى مولاه وفى نفسه هدوء ورضا، ومضى الغورى يتحدث إلى نفسه صامتًا ويستعيد ذكرياته فى بلاد الغور منذ ثلاثين عامًا أو يزيد، يوم كان فتى فى ريعانه يغتره الشباب وتتصبّاه المنى.

وتذكر الغورى أيامه الأخيرة هنالك، حين سوّل له أهل البغى أن يقتل بغير ذنب رجلاً من أهله، ليقدم برهانه إلى الناس بأنه قد بلغ الرجولة . . . فطعنه الطعنة القاضية وفر بدمه تحت الميل، وخلف أهله وراءه يبكون القتيل والقاتل! . . .

ومضى طومان فى حديثه يصف ما كان من أمره ويقص قصة ماضيه فى بلاد الغور، منذ أحس وجود نفسه فى خيمة نور كلدى، إلى يوم خطفه نخاس خوارزم، إلى ذكرياته فى خان يونس وفى معتقله من بلاد الروم، إلى أمله فى لقاء أمه ولقاء أبيه . . .

كانا جالسين وجهًا لوجه يتحدث كل منهما إلى نفسه حديثًا لا يسمعه أحد غيره، والذكريات تذهب بهما مذاهب بعيدة فلا يكادان يلتقيان، فإن مجلسهما لقريب ولكن بينهما من البعد فى الزمان ثلاثين عامًا أو يزيد، ومن البعد فى المكان بقدر المسافة بين قلعة حلب والغور المنبسط وراء جبال القبج .

واسترسل الغورى فى ذكرياته وعاوده داء الوطن .

لقد كان يزعم لنفسه أنه قد سلا وانقطع ما بينه وبين ماضيه، وبلاده، وأهله؛ ثم برز له أركماس فى بعض دروب القاهرة ذات يوم شاهرًا فى وجهه السيف ليثأر منه لأبيه، فرده إلى ذلك الماضى بعنف وبسط لعينيه صحيفته، ولكن القدر لم

يمهل أركماس حتى يبلغ غايته، فطواه الجمل الهائج تحت خفّه ونجا الغورى. وعادت الأيام تسدل الستار بينه وبين ماضيه، وبلاده، وأهله، حتى أوشك أن ينسى؛ وابتسمت له الأيام بعد عبوس، فراح يرقى سلك المماليك درجة بعد درجة حتى بلغ المنزلة التى تُنازعه فيها نفسه إلى العرش، كأنه لم يكن يومًا ذلك الشريد الأفاق المطلوب بالثأر من أقصى بلاد الأرض!

... ثم... ثم ها هو ذلك الماضى ينبعث ثانية أمام عينيه كأنه حادثة اليوم، وها هو ذا فتى من بلاد الكرج- كأن فى ذلك التاريخ البعيد ذرة سابحة فى صلب أبيه- قد جاء يرده إلى ذلك الماضى البعيد، يُريه منه ما يرى الواقف على حافة بئر من قاعها العميق المظلم: لا يرى شيئًا مما فى القاع ولكنه يرى أوهامه...

وكان الفتى لا يزال يتحدث إلى مولاه، ومولاه فى غفلة من ذكرياته. قال طومان:

- ولم أرَ أبى، لأنه ذهب قبل أن أخرج إلى الدنيا...

وانتبه الغورى فقال:

- لم ترَ أباك!

قال طومان:

- نعم، اختفى ذات مساء حيث لا يعلم أحد، وتظن أمى أنه راح يطلب ثأرًا قديمًا، فلم يعد. . .

واعتدل الغورى فى مجلسه، وقال وفى وجهه أمارات الاهتمام والقلق:

- ولم تحدثك أمك أين راح أبوك يطلب الثأر؟

قال طومان:

- نعم، فإنها هى لم تكن تعرف، فقد كان ذلك سرًّ أركماس وحده! كذلك كانت تقول لى أمى!

شحب وجه الغورى وهو يردد فى صوت خافت:

- أركماس! أركماس!

وبلغ صوته أذن الفتى، فكف عن الحديث ورفع عينيه إلى وجه مولاه ليرى الشحوب وأمارات القلق بادية فى وجهه كما لم يرَها فى وجه إنسان قط. . .

فهتف فى لهفة:

- سيدى! أنت تعرف أبى أركماس؟

وثاب الغورى إلى رشده سريعًا، واسترجع عزيمته؛ فقال فى صوت يحاول أن يكون مطمئنًا هادئًا:

- نعم يا بنى، لقد كان أركماس . . . أخى . . . إننى . . . إننى أنا عمك!

ذهل الفتى مما سمع وغلبته أشجانه، فغصّ بأنفاسه، وارتمى على صدر الغورى ودفن رأسه الصغير فى صدره وهو يجهش باكيًا!

وسقطت دمعتان على وجه الغورى، ثم انحدرتا حتى توارتا فى لحيته؛ وقبض أصابعه فى لحم الغلام وهو يضمه إلى صدره بعنف . . . وحنان!

***

قال الفتى ولم يزل بين يدى مولاه وعيناه مغرورقتان بالدمع:

- وتعرف أمى نور كلدى يا عماه؟

واختجلت شفتا الغورى قبل أن يجيب:

- نعم، أظننى أعرفها، أعنى أننى أعرفها حين كانت طفلة فى حجر أمها، قبل أن يتزوجها أخى أركماس!

وعض على شفته فى غيظ وحيرة وندم.

واسترسل الفتى يسأل وقد برقت عيناه بريق الأمل والسعادة:

- وهل يمكن أن ألقاها ثانية يا عم؟ هل يمكن أن أرى أمى نوركلدى بعد ذلك الفراق؟

قال الغورى هادئًا وعلى شفتيه ابتسامة غامضة :

- نعم، كما لقى يوسف أبويه على العرش . . . على العرش يا طومان يلتقى البعداء!

***

آه! يا للرجلين! . . . ذلك الفتى، قتل ذلك الرجلُ أباه وجدَّه، فلتكن كفارة هذا الذنب أن يتبناه لينمحى من صحيفة ذكرياته ذلك الماضى!

وأعتق الغورى طومان من رق، ليدعوه الناس جميعًا منذ ذلك اليوم: ابن أخى الغورى؛ وأخلص له الحب والمودة حتى لا يعرف طومان صلة تربط به إلا أنه عمه!

وقال خشقدم الرومى لنفسه وقد عاد وحيدًا كما بدأ :

- وهذا زميل آخر قد مضى لوجهه حرآ وخلفنى فى أسر الرق، وغدًا يدعونه سيدى وكان رقيقًا مثلى . . . ذلك الجركسى الأمرد، أما والله إن امتد بى الأجل لأكونن سيده، ولا يشفع له يومئذٍ أن خده ناعم مصقول كخد الفتاة!

●●●



أطماع المماليك

تتابعت الحوادث فى مصر بين أتباع أقبردى وأتباع قنصوه الخمسمئى ؛ ثم نشبت بينهما الحرب سافرة، وكان أولها مؤذنًا بالغلبة لأقبردى الدوادار، ولكن كفة الميزان لم تلبث أن رجحت بحظ قنصوه . . .

على أن مراحل المعركة بين الأميرين العظيمين لم تكن طبيعية ؛ فقد كانت ثمة أيد خفية تعمل فى الظلام لتؤلِّب كلا الحزبين على الآخر، لأن تلك الأيدى لم يكن يعنيها من المنافسة بين الأميرين إلا أن تستمر الحرب بينهما حتى يتفانى أتباعهما ويبرزا فى الميدان رجلاً لرجل ليس لواحد منهما ظهر يحميه!

وخيل لقنصوه الخمسمئى أنه قد بلغ غايته حين لجأ منافسه إلى الفرار، وتدانى له الأمل البعيد حين رأى السلطات كلها قد اجتمعت فى يديه، وإن كان السلطان لم يزل حيًا يجلس

على العرش ويمضى مراسيم التولية والعزل، وليس له على الحقيقة أمر ولا نهى!

ثم حلت الساعة المرتقبة، وأوفى الأشرف قايتباى على أجله؛ ولكن حزب القصر كان قد أعد عدته لهذه النازلة قبل أن تقع، فلم يكد نعى السلطان الأشرف قايتباى يبلغ آذان قنصوه الخمسمئى حتى كان السلطان الناصر محمد بن قايتباى، جالسًا على عرش أبيه!

. . . وصرَّت أسنان قنصوه من الغيظ، ولكنه لم يلبث أن ملك زمام أمره؛ فدبر خطة للقضاء على تمراز وأقبردى قبل أن يقضيا عليه ويفرضا إرادتهما على السلطان الصغير. وزحف قنصوه بمماليكه إلى القلعة، فضم جناحيه على العرش والجالس عليه، واستأثر بالسلطان حتى لم يبقَ فوق أمره أمر، وإن زعم الناس أن السلطان هو الناصر بن قايتباى. . . فلما استوثق الأمر كله لقنصوه وأيقن أن أعداءه قد ذهبت ريحهم وتفرقوا فى البلاد، وثب وثبته فخلع السلطان وزحف إلى القلعة بجيش لجب من مماليكه وأتباعه، ليلبس التاج ويقبض على الصولجان.

ولكن القلعة لم تكن يومئذ خالية من أسباب الدفاع وفيها قنصوه خال السلطان الناصرِ وأخو أصل باى، وإنه لفتى لا يؤتى من قريب وإن لم يحسبْ له قنصوه الخمسمئى حسابًا.

وانصبت القذائف من القلعة على الجيش الزاحف، فتوقف، ثم ارتد، ثم انهزم؛ وعاد الناصر إلى عرشه، ولكن السلطات كلها اجتمعت في يد قنصوه الخال!

وتألق نجمه، ذلك الشاب الذى كان منذ سنوات مملوكًا خاملاً من مماليك الطبقة تنبو عنه العيون! . . .

وخلا الجو من قنصوه الخمسمئى، وأقبردى، وتمراز. . . وكان أزبك قد شاخ وبرد دمه، فليس له انبعاث إلى شيء من مطامع الأمراء. . .

***

وعاد الغورى من الشام إلى القاهرة بعد غيبة طويلة يصحبه «ابن أخيه»، وقد خلا الميدان من فرسانه؛ ولكن فى صفوف الأمراء وجوهًا جديدة ينكرها الغورى: مَن قنصوه الخال وما شأنه بين الأمراء حتى تجتمع فى يديه كل السلطات؟ ومن جانبلاط هذا الذى يستأثر بعطف السلطان والأم والخال ويرتفع فجأة إلى منصب الدوادار الكبير؟ ومن ذلك الشاب طومان باى الدوادار الثانى؟ . . . تلك أسماء جديدة لم تكن شيئًا مذكورًا يوم كان الغورى من أقرب مماليك السلطان إلى السلطان. . . ولكن خطب هؤلاء يسير، ولابد أن يغلبهم قنصوه الغورى، بالصبر والحيلة! . . .

واستدنى إليه ابن أخيه طومان ليفضى إليه بسره؛ وبدا كأن الفتى قد فهم ما ألقى إليه، فخرج لأمره وخلف عمه فى مجلسه يقدر ويدبر.

***

وكأنما بدا لطومان أن يخفف من بعض ما يحمل من الأعباء، فاقترح عليه غلامه أبرك أن يصحبه فى جولة فى بعض دروب القاهرة، يجتليان بعض مناظر المدينة التى أخملت ذكر بغداد وقرطبة، يوم كانت بغداد وقرطبة تتنافسان فى أسباب الترف وتزعم كل منهما أنها حاضرة الدنيا؛ وركب الفارس الشاب جواده وتبعه غلامه على جواده، ومضيا فى شوارع المدينة يتعرفان الأبنية والدور والمتاجر ويتصفحان وجوه الناس، والعيون ترمقهما بالإعجاب فى المتاجر وعلى جانبى الطريق وفى الشرفات من وراء الأستار!

وكانا قد أشرفا على الرملة، حين سمع طومان صوتًا ناعمًا يهتف باسمه، فنظر حواليه فلم يجد وجهًا يعرفه؛ فعاد ينظر إلى غلامه متسائلاً:

- هل سمعت؟

قال أبرك:

- نعم يا مولاى.

ثم دار بعينيه فيما حوله وارتد إلى سيده يقول :

- أحسبه صوتَ سيدة من وراء بعض الشرفات! قال طومان ولم يزل ماضيًا فى طريقه :

- فإن عليك يا أبرك أن تعرف من هذه التى تهتف باسمى من وراء حجابها فى هذه المدينة التى لم أطرقها إلا منذ قريب؛ فإنه ليخيل إلىّ أننى أعرف ذلك الصوت!

قال أبرك :

- سأعرف يا مولاى!

واجتازا باب زويلة، إلى الشرابشيين، إلى سوق مرجوش، وتلبَّثا قليلاً عند بركة الرطلى، ثم أمعنا فى السير حتى انتهيا إلى قبة الأمير يشبك الدوادار بالمطرية. . . ثم كرا راجعين من حيث أتيا قبل أن تنحدر الشمس إلى مغربها؛ فلما جاوزا باب الوزير شد طومان لجام فرسه وأرهف أذنيه للسمع وطأطأ رأسه؛ ومشى الفرس يتهادى به وئيدًا كأنه مزهو بفارسه الجميل، وحذا أبرك خطوات مولاه وعيناه تختلسان نظرات خاطفة إلى الشرفات. . .

وخيل إلى طومان كأنه سمع مرة ثانية ذلك الصوت، فالتهبت وجنتاه كأن شعاعة عين قد لامستْ خديه. . . وهمس أبرك قائلاً :

- كأنْ قد عرفت يا مولاى! . . .

ولم يجب طومان، واستمرا فى طريقهما إلى قصر الغورى . .

وترجل طومان عن فرسه وولج الباب، وثنى أبرك عنان جواده راجعًا من حيث أتى؛ فغاب درجة ثم عاد إلى مولاه لينبئه . . . وكان فى مجلس طومان وقتئذ جانى باى تاجر المماليك . . . فآثر الغلام الصمت حتى يخلو بسيده المجلس . . .

قال طومان لضيفه:

- وإذن فأنت لم تدع مصرباى لخاير بن ملباى؟

قال جانى باى:

- نعم يا سيدى، وأحسبها تعيش فى قصر أقبردى الدوادار منذ عادت من صفد بعد موت زوجها كرت باى . . .

ثم صمت برهة وعاد يقول:

- وللناس فى شأنها أحاديث يتزيد فيها من يتزيّد ويقتصد من يقتصد؛ ولأهل مصر يا سيدى فن وبراعة فى اختراع الأراجيف!

واسترعى الحديث انتباه أبرك منذ جرى على لسان جانى باى ذكر أقبردى الدوادار، فأرهف أذنيه للسمع .

وقال طومان :

- لست أفهم ما تعنى يا جانى باى : بماذا يتحدث الناس عن مصرباى؟

فأنفض رأسه وهو يقول :

- يزعمون يا سيدى أن لها شأنًا مع سلطاننا الناصر بن قايتباى ، وأن زوجها كرت باى لم يمت حتف أنفه . . .

قال طومان :

- تعنى أنها قتلته؟

قال جانى باى :

- نعم ، لتخلص للناصر الذى شغفها حبًا وشغفته ، منذ كانت وصيفة فى قصر السلطان قايتباى . هكذا يزعم الناس ، ولكننى لا أصدق!

- لا تصدق؟

- نعم يا سيدى ، أنا على يقين بأن ذلك غير الحق ، فقد وقعتُ على السر كله من إحدى جوارى القصر . . .

- أىّ سر تعنى؟

- سر صلتها بقنصوه الخال ؛ إنه هو فتاها المرتجى ، الذى

يصحبها خيالاً فى اليقظة ورؤيا فى المنام . . . وإنما يلهج الناس باسم الناصر لأنه . . .

– ماذا . . .

– أحسب سيدى يعرف شهرة الناصر فى مباذله، حتى كأن نساء مصر جميعًا حظاياه، فليس فيهن حَصَانٌ طاهرة الذيل لا تنالها الريبة!

ومطَّ طومان شفتيه أسفًا واستنكارًا، ثم أطرق يفكر . . . واستأذن جانى باى وهَمَّ بالانصراف؛ ثم توقف برهة ليقول لطومان :

– ولا ينس سيدى أننى رهن أمره فى كل ما يأمر به، فليرسل ورائى فى أى وقت شاء من ليل أو نهار، يرنى ماثلاً بين يديه! .

قال طومان :

– شكرًا يا جانى باى؛ وإن بى حاجة إلى جارية عاقلة أريبة تحسن الخط؛ فإذا وجدتها فلك عندى ما تريد .

قال جانى باى وهو فى طريقه إلى الباب :

– فسأجدها، وليس لى ما أريده غير رضا مولاى!

وخرج تاجر المماليك، فالتفت طومان إلى غلامه يسأله :

- ماذا وراءك يا أبرك؟

قال أبرك باسمًا :

- أظنني عرفت الدار وصاحبها!

قال طومان مسرورًا :

- هكذا سريعًا؟ لله أنت!

قال وهو يضحك :

- ليس فضل ذلك إليّ يا مولاى، وإنما عرفت طرفًا من الأمر هناك، وعرفت تمامه فيما سمعت من حديث جانى باى إلى مولاى. إن تلك الجارية يا مولاى تقيم فى دار أقبردى الدوادار! . . .

قال طومان متهللاً :

- آه! إذن فهى مصرباى التى كانت تهتف باسمى!

ثم غشتْ وجهه كآبة واختلجت شفتاه من الغيظ وأطرق يفكر؛ وتسحَّب أبرك ليدع لسيده أن يستمتع بخلوته!

●●●



سلطان الشهوات

سرى الرعب فى أنحاء المدينة كأنما شب حريق جائح أو هبت ريح عاصفة لا تُبقى ولا تذر؛ فغلّق التجار دكاكينهم واستوثقوا من أقفالها، وسُدت أبواب الدروب حتى لا يكاد ينفذ منها الراجل، واختفت البضائع من الأسواق فلا بائع ولا مشترٍ، وهدأت الرِّجل فى الطرقات فلا يمشى ماشٍ ولا يركب راكبٌ إلا حذرًا يتلفت يخاف أن يأخذه الموت من كُل ناحية، وقبع النساء والأطفال وراء أستار النوافذ المغلقة يرقبون الطريق من خصاصها فى انتظار الآباء والأزواج الذين تعوقوا عن العودة إلى دورهم فى هذا اليوم الذى ينذر بالشر.

لقد انبثّ مماليك السلطان ومماليك الأمراء جميعًا فى الأسواق يكبسون الدور وينهبون المتاجر ويحطمون الأبواب ويخطفون العمائم ويهتكون الحرمات ولهم فى الطريق عطعطة وزياط وضجة...

ذلك شأن المماليك كلما آنسوا ضعفًا من السلطان، فإنهم ليثيرون الشغب والفتنة كلما أرادوا أن يحملوا السلطان على إجابتهم إلى شيء يطلبونه منه، وإنهم ليثيرون الشغب والفتنة كلما طال بهم السكون وملوا الدعة والاستقرار؛ لأنهم يرون ذلك مظهراً من مظاهر النشاط يتفرجون به مما يحسون من ملل وضيق، وإنهم ليثيرون الشغب والفتنة كلما وقع بينهم وبين السلطان أو بينهم وبين الأمراء جفوة وخصام؛ ليشعروا السلطان وأمراءه بأن فيهم عزمًا وقوة يتقيهما من شاء أن يتقى، وإنهم ليثيرون الشغب والفتنة كلما سمعوا صريف الدراهم والدنانير أو اشتاقوا إلى أن يسمعوا صريف الدراهم والدنانير.

وإنهم مع ذلك كله ليثيرون الشغب والفتنة وإن لم يكن لهم مطلب عند السلطان، ولا بهم ملل من الدعة والاستقرار ولا بينهم وبين السلطان جفوة، ولا حاجة بهم إلى الدراهم والدنانير؛ وإنما يثيرونهما عبثًا ولهواً وعادة... ولا عليهم بعد ذلك مما يصيب الناس من الذعر والفزع والخسار!

فلم يمض إلا ساعات من ذلك اليوم، حتى كانت المدينة كلها خالية إلا من أولئك المماليك يجوسون خلال الديار راكبين أو ماشين متأهبين للشر؛ وقد سكنت الأصوات وراء الجدران فكأنما يجوسون خلال القبور الصامتة ليس وراءها إلا رِمَمٌ بالية وعظام نخرة!

وفى ذلك اليوم العصيب، فى تلك المدينة التى ركبها الفزع، وعلى بعد قريب من العمران، عند كوم الجارح، كان طائفة المتصوفة، فيهم لفيف من أبناء المصريين، إلى خليط من العربان والترك والجركس، مجتمعين إلى شيخهم وصاحب طريقتهم الشيخ أبى السعود الجارحى، قد جلس الشيخ بينهم مطرقًا وأحاطوا به حلقة وراء حلقة، صامتين لا ينبسون قد تعلقت به أبصارهم؛ وبين يديه مجمرة يتصاعد منها بخور عطر، لا يزال يذكيها حينًا بعد حين خادمه أرقم، وهو رجل مشوّه الخلق، أصلم الأذن، معوجّ الأنف؛ مائل الفكّ، أحمش الساقين، مستكرش البطن، كأنه صُرة ثياب على عصوين من قصب...

وكان أرقم على منظره هذا الذى يثير السخرية والإشفاق جميعًا، أدنى المريدين منزلة من شيخه أبى السعود الجارحى، فليس لأحد غيره من المريدين أن يقتحم على الشيخ صمته حين يصمت، أو يقطع عليه حديثه حين يتحدث؛ وليس لأحد غيره من المريدين شرفُ خدمة الشيخ حين ينقطع للعبادة فى خلوته، أو حين يجلس لتلاميذه فى الحلقة!

وطال صمت الشيخ ومريديه، وخبت النار فى المجمرة رويدًا رويدًا ثم بردت؛ ونحّاها أرقم من بين يدى أستاذه ثم

عاد فجلس مجلسه بين يديه؛ ورفع الشيخ رأسه ودار بعينيه فيمن حوله ثم سأل:

- أين جلال الدين اليوم فإننى لا أراه!

فسرت همهمة بين المريدين، وكأنما همّوا جميعًا أن يجيبوا، ثم سكتوا؛ وقال أرقم:

- أظن سيدنا الشيخ يعلم ما أصاب أخانا جلال الدين. . . !

قال الشيخ:

- تعنى تلك الحادثة؟ . . .

قال:

- نعم؛ فهو منذ فقد زوجته لا يأنس إلى أحد من الناس، ولا يُرى إلا على باب دكانه مطرقًا لا يكاد يرفع رأسه، أو ماشيًا فى الطريق بين داره ومتجره صامتًا لا يتحدث إلى أحد، وفى يديه ابنتاه الصغيرتان يصحبهما غاديًا أو رائحًا أو قابعًا على باب دكانه؛ وإنه لدائم الفكر والتذكر حتى لأخشى يا سيدنا الشيخ أن يختلط عقله!

قال الشيخ:

- مسكين! ولكن الصبر أجملُ به!

وكان جلال الدين هذا رجلاً من مساتير التجار، له ضيعة ودار ووفر من المال؛ وله زوجة واحدة يحسده على جمالها كل ذى عينين، ويغبطه على محبتها كل ذى قلب... وقد أنجبت له ابنتيه هاتين، وعاشت له ولابنتيه وعاش لهم، وكانت أيامهما شهداً خالصًا ليس فيهما مرارة... وفجأة حلت به الكارثة، وجاءه الصريخ فى دكانه ليدعوه إلى داره ذات مساء، فذهب ليشهد زوجته ذبيحًا تتشحط فى دمها وابنتاها عند رأسها تبكيان... وكان الذى ذبحها هو السلطان الناصر نفسه، بسيفه، بيده!... رآها، فطمع أن ينالها، فأرسل إليها رسوله؛ فلما تأبت عليه سعى إليها على قدميه... وحاولتْ أن تفرّ بعرضها فأدركها... وعاد من حيث أتى فى كوكبة من مماليكه وجنده... بل لعله لم يعد إلى قصره فى ذلك اليوم إلا بعد أن أتم جولته فى المدينة وخرج من دار إلى دار، وتناول من كل كأس جرعة!

– مسكين جلال الدين! ولكن الصبر أجمل به!

قال رجل من أقصى المجلس:

– يا سيدنا الشيخ، هذا والله ما لا صبر عليه! وقد بلغ هذا السلطان الصبى من الطيش والنزق والجرأة على الله مبلغًا بعيدًا؛ وإن السكوت على مثل هذا الإثم فى ذات الله!

قال الشيخ :

- نعم، ولكن ماذا تملك أن تفعل؟

قال الرجل الذى إلى جانبه :

- نملك أن نجود بأرواحنا؛ وما حرصُنا على الحياة وهؤلاء المماليك يسوموننا ألوانًا من العذاب، لا ينظرون إلينا إلا كما ينظر الناس إلى السائمة؛ ليس لهم منها إلا درُّها أو لحمها! وقد جف الضرع وذاب الشحم واللحم.

فابتسم الشيخ مشجعًا، ثم قال :

- أفلح إن صدق!

ثم نظر إلى يمينه حيث يجلس شاب من المماليك له زى ووقار وسمت.

وأردف قائلاً لمحدثه :

- ولكن ما لَكَ تجمع المماليك كلهم فى قرن، كأنما تريد أن تُوزرهم جميعًا وِزر فرد منهم وتأخذهم بجريرة محمد بن قايتباى؟

قال أعرابى :

- يا سيدنا الشيخ؛ إنما هى بلادنا لا بلاد الجركس، وقد جاءوا إلينا رقيقًا فى يد النخاس، فما هى إلا أن أقاموا بيننا

حينًا حتى ملكوا رقابنا، واستصفوا أموالنا، وها هم أولاء يريدون آخر الأمر أن تكون نساؤنا وبناتنا حظايا فى قصورهم. لقد كان عرش هذه البلاد للعرب منذ رتِّل فيها قرآن؛ وإنما تركناه وديعة فى يد الكرد إلى حين، يوم غزانا التتار؛ فأسلمه الكردُ إلى هؤلاء المماليك؛ وقد حان أن تُرد الأمانات إلى أهلها!

قال الشيخ باسمًا:

- وترى من يسمع لقولك هذا من أبناء مصر فيعينك عليه يا أخا العرب؟

قال الأعرابى:

- أبناء مصر! . . . إنهم لا يصلحون إلا أن يقادوا مقهورين كما يقاد البعير المخشوش من أنفه!

وسرى همس خفى بين المريدين من أبناء مصر، ثم ارتفع الهمس فصار لغطًا، وارتفع اللغط فصار ضجيجًا غاب فيه صوت الأعرابى؛ وهمَّ المريدون أن يتماسكوا بالأيدى وتنشب بينهم معركة؛ فلم يمسكوا عن الضجيج والحركة حتى وقف بينهم أرقم يشير لهم بيديه جميعًا داعيًا فصيحًا قويًا عميق النبر، يقول:

- على رسلكم أيها الإخوان، إنما نحن جميعًا هنا أبناء

مصر، جراكسة، وأعرابًا، ومصريين؛ كلنا سواسية فى الحق والواجب؛ وإنما يغلبنا السلطان الجائر على أنفسنا بهذه العصبية التى تفرقنا وتشق عصا جماعتنا؛ وماذا يجدينا أن نفاخر بأنسابنا وهذا السيف مصلت على رءوسنا جميعًا فى يد صبى عابث قد استبدت به شهواته فليس يعنيه من أمر هذا الشعب قليل ولا كثير؟ ليس فينا من يرضى هذه الحال الأليمة؛ أما الأعراب فيعبرون عن سخطهم بهذه الغارات المتتابعة على أطراف المدينة، وفى البوادى، وعلى حدود المدائن فى الشمال والجنوب؛ فلا ينالون شيئًا من السلطان ولكن ينالون من إخوانهم، ومن أنفسهم؛ وأما المماليك فيتخذون سلطانهم قدوة فلا يزالون يعيثون فى الأرض الفساد، ينهبون، ويفتكون، ويهتكون؛ وإنما يتعجلون آخرتهم بهذه المظالم؛ وأما المصريون فينظرون إلى هؤلاء وأولئك ساخرين أو شامتين؛ ثم لا يزال فتيانهم يؤلفون العصائب للتخويف والإرهاب وانتهاز الفرص، ويتندرون فكهين بما كان وبما سيكون؛ والسلطان يلهو . . . وإنما سبيل الخلاص واحدة: هى اجتماع الكلمة على تقويم المعوج؛ وليكن السلطان بعد ذلك من يكون، مصريًا، أو عربيًا، أو من أبناء الجركس! . . . فكلنا لمصر!

قال الشيخ مؤمِّنًا:

– هو ما قلت يا طومان؛ وإنما عليكم أنتم أيها الجراكسة أن تبدءوا بصلاح أنفسكم . . . وإن شئت فابرز اليوم إلى القاهرة لترى بعينيك كيف انتشر مماليك السلطان يبثون الرعب فى القلوب وينذرون بالويل والثبور .

قال طومان :

– قد رأيت بعض ما كان ، وحسبهم سيثوبون إلى رشادهم بعد قليل؛ لقد تركت عمى قنصوه الغورى يهدئ ثائرتهم ، وأراه أهلاً لأن يملك زمام الأمر!

وأذن المؤذن لصلاة الظهر ، فانتظم المريدون صفوفًا خلف شيخهم . فلما قضيت الصلاة تأهب طومان للانصراف ، فاستأذن شيخه واتخذ طريقه نحو الباب تشيعه أنظار الجماعة بالإكبار والحب؛ على أن أرقم المسيخ خادم خلوة الشيخ أبى السعود الجارحى ، كان أشد المريدين إعجابًا بذلك المملوك الشاب ، فظلت عيناه طوال الوقت معلقتين به وأذناه تسمعان؛ فلما هَمَّ أن ينصرف تبعه إلى الباب ومد يده إليه مصافحًا وهو يقول فى تأثر :

– صحبتك السلامة يا بنى حتى تبلغ مأملك!

ثم فاضت به عاطفته حتى هَمَّ أن يضمه إليه ويقبل جبينه؛

ولكنه اكتفى من ذلك بأن يضغط بأصابعه النحيلة على يد الشاب وهو يقول :

- أرجو أن تذكر دائمًا يا بنيّ صديقك أرقم خادم خلوة الشيخ أبى السعود الجارحى ؛ إننى فى خدمتك حيث تشاء وفى أى وقت تريد !

ثم عاد إلى مجلسه يتخلع فى مشيته وقد ارتسمت على شفاه المريدين بسمات ؛ فلولا ثقتهم به ، ولولا مكانته من نفس شيخهم الجليل ، لزعموا أنه صاحب هوى عند ذلك المملوك الجميل وركبوه بالعبث والدعابة !

كانت المدينة تموج بهذه الأحداث والسلطان الشاب فى شغل بنفسه عن كل ما هنالك ، قد جمع حوله بطانة من الشباب والشيوخ يزينون له الشهوات ويهيئون له أسبابها ؛ ولم تكن حادثة زوجة التاجر جلال الدين هى الحادثة الفريدة فى بابها ؛ فكم فتاة وكم زوجة قد سال دمها على الفراش أو سال على حد سيفه ؛ وكم زوج مثل جلال الدين وكم أب ! وانهتكت حرمات البيوت ، حتى بيوت الأمراء وأصحاب الوظائف وحتى ليفتدى الأمراء أنفسهم وأغراضهم بالمال يبذلونه للسلطان ، والسلطانُ نهم لا يشبع ، شهوان لا يصبر ، نشوان لا يفيق !

وعاد من جولته فى المدينة منتشيًا، سعيدًا بما بلغ من حظ نفسه؛ فاتخذ مقعدًا فى الحوش وحلا له أن يلعب بالكرة. ولحلبة الكرة فى الحوش السلطانى نظام وتقاليد مرسومة، ولكن السلطان الشاب لا يخضع للتقاليد المرسومة؛ وكان فى الحوش وقتئذ طائفة من صغار الأمراء، وعصبة من المماليك الخاصة ولمْ يكن ثمة من الأمراء الكبراء إلا طومان باى الدوادار، ولطومان باى فنون فى حلبة الكرة.

***

وتقاذف الأمراء الكرة بصوالجهم فى الحلبة، يتقاربون حينًا ويتباعدون، ويتقابلون ويتدابرون، وتتماسُّ أكتافهم وتتلامس سواعدهم، والكرة تنتقل على الصوالجة من يد إلى يد؛ وهجم عليها طومان باى الدوادار يلقفها بصولجانه من يد الناصر؛ واغتاظ السلطان فهوى على ظهر دواداره بالصولجان على مشهد من الأمراء ومماليك الخاصة؛ وتقبَّض وجه طومان باى من غضب ثم اصطبر؛ وعادت الكرة تتقاذفها الصوالجة، ولقفها الدوادار مرة ثانية، وهوى السلطان على ظهره مرة أخرى بصولجانه! . . . واحمرت عيناه من الغيظ ثم استرد جأشه . . . وعاد يلعب . . . وعاد السلطان يضربه . . . وكان على شفاه المماليك معان خرساء وفى عيونهم نظرات؛ وجاشت نفس الدوادار بمعانيها . . .

ثم انفضت الحلبة وصعد السلطان إلى قصره . . .

وفى جناح آخر من القصر السلطانى كانت أصل باى أم السلطان جالسة فى مقعدها الوثير بين الحشايا والوسائد صامتة قد ضاق صدرها بما تحمل من الهم والضجر، وجلست عند قدميها جاريتها شاخصة العين إليها لا تكاد تطرف. وتنفست أصل باى نفسًا عميقًا، ثم خرجت عن صمتها قائلة :

- أنتِ على يقين مما تقولين يا جارية؟

قالت :

- نعم يا مولاتى ؛ وقد رأيتُ السلطان بعينىّ هاتين يدخل دارها بالرملة، ليس معه أحد من مماليكه وجنده ؛ ثم خرج تحت الليل فاتخذ طريقه راجلاً إلى القلعة!

فصرخت أصل باى غاضبة :

- تكذبين علىّ يا فاجرة! . . . احذرى غضبى وغضب السلطان!

فشحب وجه الجارية قليلاً، ثم استردت جأشها وقالت :

- عفواً يا مولاتى، فإنما حدثتك بما رأيت . . . إن مصر باى الجركسية، أرملة كرت باى، لا تزال تمد شباكها إلى مولاى، تطمع أن تكون سلطانة على العرش!

ثم صمتت برهة، واستأنفت حديثها قائلة :

- ولعل سيدى الأمير قنصوه الخال يعرف طرفًا من ذلك السر ، فقد لقيتُ جاريته اليوم خارجة من دار مصرباى تتلفت!

فاعتدلت أم السلطان فى مجلسها وهى تقول :

- ماذا؟ أخى قنصوه يعرف ما بين السلطان ومصرباى؟

قالت الجارية :

- أظن ذلك يا مولاتى!

فهبت الأميرة واقفة وقد زاغ بصرها وتتابعت أنفاسها من البهر ، وقالت :

- تلك أحاجى لا أكاد أجد سبيلاً إلى فهمها ، إلا أن تكون مؤامرة محبوكة الأطراف للنيل من السلطان. . . اذهبى يا جارية فأتينى بجارية أخى الأمير قنصوه. . . لابد أن أعرف ذلك السر. . . لابد أن أعرف!

وذهبت الجارية لشأنها ، وظلت أصل باى الأم تذرع غرفتها مبهورة متتابعة الأنفاس ؛ وهى لم تزل تردد بينها وبين نفسها :

- لابد أن أعرف. . . لابد أن أعرف. . . ولن أمكّن لمصرباى ، تلك الأفعى الخبيثة ، أن تنال من ولدى ؛ ولن

أمكن لقنصوه أن يطمع فى عرش ابن أخته الصغير، بالدس والخيانة!

***

هل كانت مصرباى الجركسية تحب السلطان الصغير محمد ابن قايتباى؟ أم كان هواها مع الشاب الطامح قنصوه الأشرفى خال السلطان وأخى أصل باى؟ أم لا يزال قلبها ينازعها إلى خاير بن ملباى، ذلك الأمير الشاب الذى كان أول من أيقظ أحلامها النائمة وفتح عينيها المغمضتين على أمانى العرش والجاه والسلطان؟...

إن مصرباى الجركسية نفسها لا تكاد تعرف كيف تجيب، لو بدا لها أن تسأل نفسها سؤالاً من هذه الأسئلة. كل الذى تعرفه وتطمح إليه ويتخايل لعينيها رؤيا فى المنام وخيالاً فى اليقظة، هو أن تصير يومًا ما سلطانة، تجلس إلى مرآتها فى غرفة الزينة فتنطبع عليها صورتها وصورة جارية وراءها ترجّل لها شعرها المرسل، وخطا السلطان تقترب من باب الغرفة... تلك كانت كل أمانيها، أما ذلك السلطان من يكون فليس يعنيها جواب ذلك السؤال...

فهل عرفت أصل باى أم السلطان هذه الحقيقة أم لم تعرفها وقد جهدتْ فى البحث والتحرى والاستقصاء منذ ألقت إليها

جاريتها ذلك النبأ؟ . . . يا لها في حيرتها! أهي مؤامرة تدبر لخلع ولدها عن العرش، يشترك في تدبيرها قنصوه الخال، وخاير بن ملباي، وطومان ابن أخي الغوري؟ لقد جاءتها الأنباء اليوم بأن صلة جديدة قد نشأت بين طومان ومصرباي، فإنه ليزورها كل يوم في دارها فيطيل الزيارة، وإن جاريته لتسعى بين داره ودارها تحمل منه رسائل وتعود إليه برسائل!

ما وجه ذلك كله وما دلالته؟ آه! من لها بأن تعرف الحقيقة؟

وخيل إلى أصل باى أنها تستطيع تدبير الأمر على أي وجه كان؛ فأشارت على ولدها السلطان أن يباعد بينه وبين خاير بن ملباي، فيرسله في سفارة بعيدة إلى ابن عثمان سلطان الروم، فهذا واحد؛ أما أخوها قنصوه الأشرفي فإن لها شأنًا آخر معه! . . .

ودعته إليها، فلما مثل بين يديها استحلفته بحق الأخوة والخؤولة ورابطة الدم وذكريات الماضي ألا يكون حربًا على ابن أخته؛ ودهش قنصوه وسألها:

– ولكن ماذا يدعوك إلى ذلك يا أختاه؟

قالت:

– ليطمئن قلبي!

قال قنصوه ساخراً:

- فليحلف لى هو كذلك ألا يكون حربًا على خاله!

وعضت أصل باى على شفتها من الغيظ، ثم قالت مستسلمة:

- لك ذلك.

ثم دعت بمصحف عثمان، وجاء ولدها فحلف وحلف له خاله، ثم خرج قنصوه -طاعة لأمر السلطان ومشورة أصل باى- على رأس حملة إلى خارج القاهرة لتأديب بعض الثائرين من العربان.

واطمأنت إلى بعض ما دبرت لحماية ولدها من دسائس الأمراء؛ ولكل ما شأن ذلك الفتى -طومان ابن أخى الغورى- مع مصرباى؟ وما تردده مصبحًا وممسيًا بين داره ودار أقبردى الدوادار حيث تقيم تلك الأفعى؟ وماذا تملك من أمر ذلك الفتى وأمر تلك الجارية اللعوب الفاتنة؟

آه! لو كان صديقها الأمير جانبلاط قريبًا منها! إذن لاستطاع أن يهديها إلى الرأى ويدبر تدبيره؛ ولكن الأمير جانبلاط يقيم اليوم فى الشام نائبًا لحلب، لكأنما أراد أخوها قنصوه أن يحول بينها وبين لقياه فبعث به إلى المنفى البعيد . . .

●●●

وطارت على أجنحة الأماني إلى حلب، إلى حيث كان صديقها جانبلاط. أتراه يفكر في شأنها ويذكرها كما تفكر في شأنه وتذكره؟ ومن أين له -وهو بعيد بعيد- أن يعرف أنه الساعة الرجل الوحيد الذي تُطيف به أماني خوند أصل باى حظية قايتباى وأم ولده السلطان الناصر! ليته يدرى! ليته يدرى! إذن لهدأ وجيب قلبها واطمأنت إلى سعادة اليوم والغد. حسبها أن يذكرها جانبلاط وأن تطيف بخياله وبينهما ذلك البعد البعيد!





شهد دار

جلس طومـان بين يدى عـمـه الغـورى ينتظر أن يأذن له ليفضى إليه بما عنده من الأخبار؛ وكان الغورى قد عاد لساعته من جولة فى المدينة زار فيها بيوت بعض الأمراء من أصدقائه؛ فعرف من أخبار القصر ما لم يكن يعرف. إنه اليوم أكثر اطمئنانًا إلى يومه وغده، وليس فى المدينة كلها أحد يعرف ما اجتمعت عليه نيته، وليس هنالك من يظن ظنًا أن تلك الفتن الثائرة فى المدينة وفيما حولها هى من وحيه وتدبيره ليبلغ من ورائها ما يأمل أن يبلغ . . . لقد تفانى الأمراء العظام وأكل بعضهم بعضًا، فليس أمامه من يخشاه اليوم . . . ومن ذا الذى يخشاه الغورى بعد؟ أقنصوه الخال، ذلك الشاب الغرير الذى يحسب الأمر كله شركة بينه وبين السلطان الصبى لا ينافسهما فى الأمر أحد؟ أم جانبلاط نائب حلب الذى زين له هوى أصل باى أم السلطان أنه صاحب الحل والعقد لأنه صديق الأم والخال؟ أم الدوادار الثانى طومان باى الذى يظن أنه بالغدر

والحيلة قد كسب عطف الخال، فما هو إلا أن يخطو خطوة أخرى فيقع ظله على العرش؟ مَن هؤلاء جميعًا؟ وأين كانوا؟ وماذا كانت مكانتهم بين الأمراء حتى يكون لهم مطمع فى الوثوب على العرش؟ ولكنه سيتركهم وما يأملون حتى يبلغ منهم... بالصبر والحيلة!

لو شاء لوثب بأتباعه وثبة تزيح من طريقه كل أولئك وتصعد به إلى العرش، ولكنه لا يشاء الآن؛ إنه لا يريد أن يصعد إلى العرش على أشلاء ودماء؛ لأنه يريد أن يلى العرش وليس عليه ثأر يُطلب به... يريد أن يلى العرش ليعمِّرً على العرش أطول مما عُمِّر أستاذه السلطان قايتباى، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يتفانى أعداؤه ويأكل بعضهم بعضًا ولم يرفع هو سيفًا ولم يسفك دمًا، وينفرد فى الميدان، بالصبر والحيلة، وحينئذ تقع عليه الخيرة... عليه هو وحده؛ لأنه هو وحده الأمير فى الميدان!

كانت هذه الخواطر تُطيف برأس الغورى، وقد عاد من جولته فى المدينة، وطومان جالس بين يديه ينتظر أن يأذن له فى الحديث ليفضى إليه بما عنده. ولم يحس طومان -وهو فى مجلس عمه- بأن انتظاره قد طال، ولم يملّ، فقد كان رأسه هو أيضًا يموج بخواطر شتى تذهب به من قريب إلى بعيد،

وكانت تملأ خياله صورة تلك الفتاة التى لقيها منذ أيام -على غير ميعاد- فى دار أقبردى الدوادار . . .

- لا ، ليست هى مصرباى!

إنه لم ينظر يومًا ما إلى مصرباى نظرة فتى إلى فتاة؛ كل ما كان بينه وبينها من العاطفة أنها أخت، صديقة، فرضتْ عليه الرجولة الباكرة أن يحميها ويدفع عنها، ولكنها اختارت لنفسها فتركها وما اختارت، وإن لم ينسَ ما عليه لها من واجب الأخوة وما عليها له. . . وعرف أنها تقيم فى دار أقبردى الدوادار، وسمعها تهتف باسمه، فأرسل إليها جاريته الكاتبة الأريبة التى باعه إياها جانى باى. . يستزيرها، فأذنت له فى الزيارة، ولقيها بعد سنين من القطيعة؛ وتحدث إليها وتحدثت إليه، وعرف أين هى اليوم مما كانت منذ سنين، إنها اليوم سيدة من طبقة أخرى، فليس بينها وبين تلك الفتاة التى فارقها فى حلب صلة قريبة؛ لقد تغيرت تغيرًا تامًا عما كانت: فى أخلاقها، وعواطفها، وفى نظرتها إلى الحياة والأحياء؛ وذهبت بها الأمانى مذهبًا بعيدًا، كأنما لم تكن يومًا جارية بين يدى نخاس خوارزم يسومها المليء والمفلس؛ إنها اليوم تطمع أن تكون سلطانة على عرش مصر، أو أمَّ سلطان. . .

وأراد طومان أن يستعينها على بعض أمره فتكون له لسانًا وعينًا وأذنًا، يسمع بها ويرى ما يريد أن يسمع ويرى مما يجرى

فى قصور أصحاب السلطان، فهى تعرفهم جميعًا، وتسعى إلى مرضاتهم جميعًا؛ إنها لتطمع أن يكون السلطان يومًا واحدًا من أولئك الأمراء، وإنها لتأمل أن تكون يومًا ما سلطانه؛ فتلك مكانتهم عندها وتلك مكانتها منهم، وإنها بهذه المكانة لتستطيع أن تكون عينًا، وأذنًا، ولسانًا، لصديقها طومان وأستاذه الغورى. . . ولكن طومان لم يمض فيما أراد، فقد أبى أن ينزل بمصرباى، أخته، إلى ذلك الدَرك؛ فأمسك عما اعتزم، وهمَّ أن يفارقها ويمضى، حين سطعتْ له فى قصر أقبردى لؤلؤة فريدة تتضوأ لعينيه كأنما يريد القدر أن يربط بينه وبينها بشعاع من النور. . . تلك هى شهد دار بنت أقبردى الدوادار؛ ذلك الأمير الذى وقف يومًا على عتبة العرش وكاد يضع التاج على رأسه، ثم رده القدر. . . هذه هى ابنته، قد جاءت الساعة لتتحدث حديثًا إلى مصرباى أرملة عمها، ولم تكن تحسب أن فى مجلسها أحدًا، والتقت عيناها بعينى طومان، فتعثرت فى خطاها وارتدت مذعورة، فصاحت بها مصرباى:

– تعالى يا شهد دار، إنه أخى طومان!

وانعقدت بينهما منذ اليوم آصرة لا تنفصم، فلا يزال طومان يسعى إلى دارها مصبحًا وممسيًا، ولا تزال جاريته الكاتبة الأريبة تسعى بينهما، تحمل إليها رسائله وتعود

بالجـواب . . . ولا يزال كلمـا ذهب إلى دار أقـبـردى ليلقى صاحبته، لقيته مصرباى فتحدثت إليه وتحدث إليها، فهى له فى بيوت الأمراء عين وأذن ولسان، وإن لم يُرد ذلك طومان وإن لم ترده مصرباى؛ أو لعلها كانت تريد؛ فليس يخفى على فطنتـها أن عـمـه الشيخ قنصوه الغورى قد يصير يومًا ما سلطانًا . . .

ووجد طومان فى زيارة دار أقبردى الدوادار إحساسًا يغمره بالسعادة ويُجدُّ له أمانى لذيذة ساحرة؛ ولكنه لم يكن يخفى عليه ما كان بين عمه وبين أقبردى الدوادار من جفاء، وقد ذهب أقبردى، ولعله لا يعود، ولكن عمه لا يمكن أن يرضى أن تكون زوجة طومان ابن أخيه هى بنت عدوه أقبردى الدوادار . . .

تلك فكرة كانت تطيف برأس طومان فتنغص عليه ما يجد من السعادة حين يلقى صاحبته شهد دار فى مجلس أخته مصرباى، ولكنه مع ذلك لم يقطع الأمل . . .

***

وطال حديث طومان إلى نفسه، وتزاحمت خواطره وهو جالس بين يدى عـمـه ينتظر أن يؤذن له فى الكلام؛ وطال حديث الغورى إلى نفسه، وابنُ أخيه ينتظر بين يديه . ثم فاء كل منهما إلى نفسه، فقال الغورى :

- هيه! ماذا وراءك يا طومان؟ لعلك قد عرفت جديداً من أمر السلطان الناصر وخاله قنصوه؟

قال طومان:

- نعم، فقد خرج قنصوه فى سرحته لتأديب الثائرين من أعراب البادية، طاعة لأمر أخته أصل باى، وخرج خاير بن ملباى سفيراً إلى ابن عثمان. . .

فقاطعه الغورى باسمًا:

- نعم ليخلو الجو للناصر وصاحبتك مصرباى الجركسية!

قال طومان مدهوشًا:

- كأنك تعرف يا عم!

قال الغورى:

- نعم يا بنى، وكأنما كانت أمه تهيئ له هذه الفرصة وهى تريد أن تدفع عنه؛ فقد قرر الناصر أن يتخذ مصرباى زوجًا، قبل أن يعود خاير بن ملباى من سفارته، وقنصوه الخال من سرحته فى البادية!

قال طومان:

- وىْ! ولكن ماذا يكون موقف أمه منه وإنها لتكره هذه الجارية؟ فقهقه الغورى ضاحكًا وهو يقول:

- لا أمه، ولا خاله، ولا خاير بن ملباى. . . لن يكون له صديق من هؤلاء الثلاثة منذ اليوم!

فمط طومان شفتيه أسفًا وهو يقول:

- يا للفتى الأحمق، ويالمصرباى!

ثم حضرته صورة أخرى، فأغمض عينيه وسبح فى أحلامه، وهمس لنفسه فى لهفة وجزع:

- آه يا شهد دار! أين ألقاك بعد اليوم؟

●●●



آخرة ملك!

خرج الدوادار الثانى طومان باى من حلبة الكرة فى الحوش السلطانى وعلى عينيه غشاوة من الغضب؛ كيف يضربه السلطان الناصر بصولجانه، مرة، وثانية، وثالثة، على مشهد من الأمراء ومماليك الخاصة، وهو الدوادار الثانى، فلولا أن قنصوه الخال هو الدوادار الكبير لكانت السلطات كلها فى يده . . . كيف يجرؤ ذلك الصبى العابث على هذه الكبيرة؟ إن قايتباى العظيم لم يكن ليجرؤ على مثلها. وثارت شياطين الشر فى رأسه فأقسم أن ينتقم . . . ومضى يدبر لأمره!

وأظله الليل ولم يزل يفكر فى أمره، فلما مد الظلام رواقه قام إلى مرآته فأصلح شأنه وأخذ زينته، ومضى إلى دار خوند فاطمة بنت العلاء، أرملة السلطان قايتباى، على قنطرة سنقر؛ وكانت فى مجلسها بالشرفة ترقب الطريق من وراء السجف فى انتظار مقدمه فى لهفة وقلق . . . هذه التى كانت يومًا ما

سلطانة على عرش مصر يخضع لها الملايين ويقبلون لها الأرض -تكاد اليوم من لهفتها إلى لقاء ذلك الأمير تُقبل الأرض لمن يأتيها ببشرى قدومه. . . ذلك الأمير. . . الذى كان منذ قريب رقيقًا من مماليك زوجها الذى مات: الأشرف قايتباى؛ فهى فى هذا المجلس تنتظره منذ ساعات، قد ذهب بها الفكر مذاهبه وتقسمتها الهواجس والأوهام؛ تخشى أن يكون قد استأثر به الغضب لتلك الكلمة العابرة التى لفظتها شفتاها فى آخر لقاء كان بينهما منذ أيام، وإنه لذو أنفة وكبرياء وكأنه من أبناء السلاطين!

ماذا قالت له؟ وماذا عليها فى تلك الكلمة التى تجرى على كل لسان؟ لقد كانت زوجة لقايتباى، وكان لها ذات يوم ولد منه يؤهلانه لوراثة العرش بعد أبيه، ولم تكن أصل باى يومئذ إلا جارية من جوارى السلطان لا يحفل بها أحد ولا تأمل أنْ تصير يومًا شيئًا أكثر من جارية من جوارى السلطان؛ ولكن القدر الذى يصنع العجائب قد هيأ هذه المنزلة التى تنعم بها اليوم؛ فإذا هى «أمُّ ولد» وإذا ولدها يكبر حتى الشباب؛ وإذا الموت يختصر ابن السلطان البكر، فلا يرث عرش أبيه قايتباى ويرثه ابن الجارية أصل باى. . . وإذا هى أم السلطان وأخت الدوادار الكبير وكانت جارية، وإذا خوند فاطمة بنت العلاء أرملة السلطان الأشرف قايتباى قد عاد مجدها ذكرى يكاد

يبليها الزمن ويلفها في مدرجة الماضى ليدفنها من بعد فى أعمق أغوار النسيان!

جالت هذه الخواطر ذات مساء فى نفس خوند فاطمة بنت العلاء، فإذا هى تتحدث بها إلى صاحبها طومان باى الدوادار، واستمع صاحبها إلى حديثها صامتًا ثم أخذ فى حديث غيره، كأن لم تقل ولم يسمع، وقال لها بعد فترة:

- تمنيتُ يا خوند أن ترضينى زوجًا!

وكانت أمنية تتمناها، ولكنها لم تجب، فقد سرها أن تكون عنده موضع التمنى، وأن تسأله الثمن قبل أن تجيبه إلى أمنيته، فقالت:

- تمنيتُ يا أمير، لو لم يكن ذلك الصبى، ابن الجارية أصل باى، هو الجالس على عرش قايتباى!

وتقبض وجه صاحبها ولم يجب، ثم لم يطل بينهما المجلس بعد، فقام، وقامت تودعه وإنها لتود -من شدة الأسف لما قالت- أن تقبِّل له الأرض مستغفرة تائبة، لتستديم حبه ورضاه... تلك التى كانت يومًا ما سلطانة على العرش يخضع لها الملايين ويقبلون لها الأرض!

وذهب طومانباى الدوادار فلم يعد منذ تلك الليلة، ولم يستمع إليها ولم تستمع إليه منذ تلك الكلمة، والليلة موعده،

فهى فى مجلسها ذلك تنتظره منذ ساعات، قد ذهب بها الفكر مذاهبه وتقسمتها الهواجس والأوهام. . . ثم رأته مقبلاً من بعيد، فتهلل وجهها وتهيأت لاستقباله!

وكان فى وجهه أمارات الجد والعزيمة كأنه مقبل على أمر ذى بال، وخفق فؤادها، ثم اطمأنت حين لمحت ابتسامة ترفُّ على شفتيه كأن خاطرًا سعيدًا قد ألمّ به. . . وقالت بعد برهة:

- خاطرٌ ما قد ألم برأسك فأشرق على ثغرك بابتسامة، فهلا أشركتنى معك فى سرّائك!

قال الدوادار وقد زادت ابتسامته إشراقًا:

- بل إن لك السراء كلها يا خوند، فهلا حدثتنى ماذا كانت أمنيتك إلىّ لترضينى زوجًا؟

فعضت على شفتها نادمة وقالت:

- أفلم تنسَ بعد يا أمير؟ إن كل أمنيتى الليلة أن أفوز برضاك وصفحك!

قال ضاحكًا:

- شكرًا؛ وأمنيتك الأخرى يا خوند؟

قالت:

- قد نسيتُ كل ما كان يا طومان باى، فبالله عليك إلا ما نسيت أنت!

قال فى رقة وعيناه تبرقان بريق العزم:

- ولكنّ فرضًا علىّ أن أحقق أمنية جاشت بخاطرك يومًا ما. لن يظل محمد بن أصل باى على عرش مصر؛ ولست حقيقًا بشرف الرجولة إن لم يسل دمه على حد سيفى... ذلك الصبى المفتون!

قالت المرأة مذعورة:

- طومان! ماذا تقول؟

واسترسل الرجل فى حديثه يقول وقد عاد صوته رقيقًا ناعمًا كأنما يوقع على وتر:

- ولن يكون طومان باى أهلاً لك يا خوند إلا يوم يضع على رأسه التاج، وتعودين -كما كنت- سلطانة على العرش يخضع لها الملايين ويقبلون الأرض، وتعود أصل باى كما بدأت: جارية لا يحتفل بها أحد، وأمّاً بلا ولد!

وساد الصمت فترة بين الحبيبين، وحلق بهما الخيال فى واد بعيد... ومد إليها يده مصافحًا كأنما يتحالفان على الدم، ثمّ نهض.

***

وعاد قنصوه الخال من سرحته فى البادية، فما أقام فى داره إلا ساعة حتى أنبأته جاريته النبأ . . .

- ماذا تقولين يا جارية؟

- كل ذلك قد كان يا مولاى؛ وستبيت مصرباى الليلة فى القلعة زوجًا للسلطان الناصر!

وتلقى الأمير النبأ كأنما انقضت على رأسه صاعقة؛ أفمن أجل ذلك أرسل به السلطان فى تلك الرحلة النائيـة؟ أو لم يكف هذا الصبى أن يعيث فى بيوت الناس ويهتك حرماتهم حتى يتجرأ على خاله، فيخالفه فى غيبته إلى المرأة التى كان يطمح أن يتخذها زوجًا فيسبقه إليها؟ له الويل ولأمه أصل باى! لقد طفح الكيل حتى لم يعد يجمل الصبر؛ ولكن أى شىء يصنع وهو ابن أخته التى رفعته من مملوك فى الطبقة إلى رتبة الإمارة؟ أيجمل به أن يغدر بأخته وبسلطانه، ويحنث فى اليمين التى حلفها على مصحف عثمان؟ ولكن الناصر هو الذى بدأ الغدر وحنث فى يمينه؛ ثم ما ذنب هذا الشعب حتى يحمل أوزار ذلك السلطان الصبى الذى لا يستجيب لغير نداء شهواته؟

واستطرد قنصوه الخال لأوهامه، ومضى يحدث نفسه مثل هذا الحديث لا يكاد يجد بابًا ينفذ منه إلى الرأى؛ فإنه لغارق فى أفكاره إذ استأذن عليه صفيُّه الدوادار طومان باى، فأذن

له، فلم يكد يستقر فى مجلسه بين يديه حتى قال فى خبث:

- هل جاءك النبأ يا سيدى الأمير بأن مصرباى الجركسية تزف الليلة إلى سلطاننا الناصر بن قايتباى؟

وكأنما أراد طومان باى أن يريشه سهمًا نافذًا، فلم يترفق ولم يجمل واسترسل يقول:

- وقد زُين القصر والقلعة، وامتدت الزينات من بيت أقبردى حيث يبدأ موكب العروس إلى حيث ينتهى عند قاعة الجلوة، وفُرشت على طول الطريق شقائق الحرير وكسيت جدران البيوت وعلقت قناديل الزيت، لتكون زفة سلطانية...

وأحس قنصوه وخز الطعنة فى فؤاد فقال ضجرًا:

- حسبك يا طومان! هل هو إلا صبىٌّ يعبث!

ثم زفر زفرة، ورفت ابتسامة غامضة على شفتى طومان باى الدوادار، وأيقن أنه قد بلغ من نفس الأمير مبلغه، فمال بالحديث إلى جانب آخر يقول:

- وما جريرة هذا الشعب حتى يتولى أمره هذا الصبى الذى لا يحسن تدبير أمر نفسه؟ هل عقم الجركس حتى ليس فيهم من يلى عرش مصر غير محمد بن قايتباى، فأين منهم مثل مولاى الأمير؟

فبرقت أسارير قنصوه وبدت فى وجهه أمارات الرضا، ثم استدرك قائلاً :

- هذا رأى لا يراه غيرك يا طومان!

قال طومان باى :

- بل هو رأى الشعب والأمراء والمماليك جميعًا يا مولاى، وإنى لأعلم أن مولاى لا يزهد فى العرش إلا تحرُّجًا من رفع السيف فى وجه ابن أخته، فإن شئت يا مولاى فإن علىّ تدبير الأمر، ولن ينالك شىء مما تكره!

قال قنصوه متزهدًا :

- ولكنى أكره أن يراق دم أبناء الجركس ويموت بعضهم بأيدى بعض، وهم عُدة الدولة فى كل ما ينوبها!

قال طومان باى :

- ليطمئن مولاى، فلن يراق دم!

وخرج طومان باى الدوادار على نيته، وأقام قنصوه الخال فى داره أيامًا مرهف السمع لكل ما يصل إليه من أنباء، فلم يصعد إلى القلعة ولم يلقَ السلطان!

***

بلغ السلطان الناصر غايته من مصرباى، فما أمضى إلى

جانبها إلا أيامًا، ثم عاد إلى ما كان من شأنه: يخرج إلى أسواق المدينة ويجوس خلال طرقاتها فى الليل والنهار، فى بطانة من الرعاع والسفلة، يفتك، ويسفك الدم، ويهتك الحرمات؛ ثم يعود إلى القلعة راكبًا أو راجلاً، منهوكًا مخمورًا لا يكاد يفيق!

وبلغت مصرباى الجركسية غايتها من السلطان، حين رأت نفسها وقد صارت سلطانة، تجلس إلى مرآتها فى غرفة للزينة ومن خلفها جارية ترجل لها شعرها، فتنطبع فى المرآة صورتان. . . ولكنها لم تسمع مرة واحدة خفق أقدام السلطان تقترب من الباب!

امرأة واحدة فى القصر كان قد بلغ منها الهم والقلق كل مبلغ حتى ضاقت بحياتها. . . تلك هى أصل باى أم السلطان؛ لقد أغفلت شأن ولدها حين يئست من صلاح أمره منذ تزوج على كره منها بمصرباى، وأغفلت شأن أخيها. قنصوه حين يئست من وفائه بالذمة منذ وقع فى همها أن له مطامع فى عرش ولدها الناصر، وأغفلت شأن نفسها حين يئست من عود جانبلاط منذ ذهب إلى الشام أميرًا فطاب له من دونها المقام! وقام بينها وبين الناس جميعًا حجاب من الوهم لا ينفذ من ورائه قلب إلى قلب، فلولا جاريتها الخاصة وما تنقل إليها من حديث الناس لنسيت أنها الأميرة أصل باى أم السلطان الناصر، ولكن أين هو الناصر؟ لقد استأثرت به بطانة السوء من أصحابه فاتقطع ما بينه

وبين الناس جميعًا؛ فلا أمه، ولا خاله، ولا مصرباى، ولا أحد من الأمراء أو المماليك أو الرعية -تربطه به صلة من الود أو آصرة من الولاء؛ لقد استهان بالرعية فاستهانت به، وضيَّع شعبه فأضاعه. . . ذلك السلطان ابن السلطان الذى كانت تهتف باسمه قلوب عامرة بالمحبة والولاء!

***

اليوم، الحادى عشر من ربيع الأول سنة ٩٠٤، وقد أخذت المدينة زينتها احتفالاً بالمولد النبوى الشريف، وما تزال أعظم ليالى القاهرة منذ كانت، هى ليلة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، ولا تزال أعظم حفلاتها شأنًا، هى حفلة السلطان فى قصر القلعة، حيث يجتمع الخليفة والأمراء والوزراء والقضاة وقادة الجند ورؤساء المماليك، فما بال حفلة السلطان فى هذا العام ليس لها بهاء ولا رواء، فلم يصعد إلى القلعة للمشاركة فى الاحتفال إلا كبير الأمناء الشيخ الأمير أزبك، وإلا تانى بك الجمالى أمير السلاح، وإلا طائفة من الشيوخ «متفضلين» لم يدعهم داعٍ ولم يستقبلهم مستقبل. . . حتى السلطان نفسه لم يعنَ به أحد فيسأل أين هو فى هذه الليلة المشهودة. . . ومن يدرى؟ لعله كان فى تلك الليلة فى سرحة من سرحاته العابثة، فى بولاق، أو عند بركة الرطلى، أو فى قبة الأمير يشبك

الدوادار، يهتك، ويفتك، ويسفك، على ما شاء له الهوى والشباب!

أولئك مماليك الطباق يسأل بعضهم بعضًا: أين ما تعوَّد السلاطين أن يوسعوا به عليهم فى مثل تلك الليلة من طيبات الرزق؟ ولكن من ذا يجيب؟ وركبهم الشيطان فسَوَّل لهم، فانطلقوا يعيثون فى الأرض الفساد، ويرجمون الأمراء من الطباق بالحجارة، ويلقون عليهم الماء المتنجس بالأقذار، ويخطفون عمائم الفقهاء...

وانقضى يوم المولد فى القاهرة على شر ما تنقضى الأيام، فلما كان الغد، أصبح السلطان نشيطًا معافى، فأعد عدته ليوم قصف وفرجة على شاطئ النيل، وسبقه متاعه وأثقاله، ونصبت الخيام وأعدت الكئوس ونُصَّت دكة المغانى...

وبرز السلطان فى طريقه تكتنفه طائفة قليلة من خاصته فى موكب تتناهبه العيون، فلما كان عند بولاق، ابتدر إليه اثنان: أما أحدهما فرجل فى زى التجار قد لاث عمامته على رأس أشمط ووجه مخدَّد وعينين فيهما ذبول وانكسار، يناديه من خلفه طفلتان قد ارتسمت على وجهيهما آيات الرعب والفزع وتقطعت أنفاسهما من البهر فلا يكاد صياحهما يبلغ أذنيه؛ وأما الآخر فشاب فى زى أمراء المماليك عليه ثياب الفرسان قد ترجل عن حصانه وخطا إلى السلطان وفى يده سيف مسلول...

ذانك هما التاجر جلال الدين، والأمير طومان باى الدوادار الثانى، واستبقا يريد كل منهما أن ينال السلطان بطعنة يشتفى بها من ذات صدره . . .

وتدحرج رأس السلطان على التراب وتعلق جسده بركاب فرسه متدليًا ينزف دمه؛ وبسط جلال الدين كفيه يتلقى قطرات الدم يلعقه بلسانه ويمسح به وجهه ووجه ابنتيه وهو يقهقه قهقهة المجانين، وقد جحظت عيناه من محجريهما كأنهما لا تصدقان ما تريان . . .

وتقاذفت الرأس أقدامُ السابلة، ودوّى الخبر فى المدينة بمقتل السلطان.

وصعد الظاهر قنصوه الخال إلى العرش، وخلع على طومان باى وجعله الدوادار الكبير . . .

وتأيّمت مصرباى ولم تنعم شهرًا بمجد السلطان، وثكلت أصل باى ولدها، وهتفت خوند فاطمة بنت العلاء -أرملة السلطان قايتباى- فرحانة:

- لله أنت يا طومان باى! لله أنت!

ولكن طومان باى لم يكن قد برّ بكل ما وعد. . .

●●●



شعب يلهو

كانت الستائر مسدلة على نوافذ القصور فى بركة الرطلى، وإن أنوار المصابيح لتنفذ من ورائها فتترامى على سطح الماء فى الخليج الحاكمى وقد هبت نسمات الليل على صفحة الماء وتكسرت عليها الأشعة، كأنها سطور مكتوبة يقرأ منها كل ذى عينين نجوى خواطره.

وعلى شاطئ الخليج سرادق منصوب قد أقيمت فى صدره دكة عالية جلس عليها جوقة من مشاهير أهل الغناء والموسيقى، بين عازف عود، وضارب دف، ونافخ شبابة؛ فيهم على بن رحاب صاحب التلاحين المشهورة والأغانى الساحرة، وفيهم هيفاء اللذيذة مغنية السلاطين، وفيهم على ابن غانم الطنبورى، وأنعام الخاصكية معلمة الغناء فى قصر السلطان قايتباى... ولم تتخلف عن المجلس عزيزة بنت

السطحى كبيرة مغنيات القاهرة لذلك العهد، وإن كانت قد هجرت الغناء منذ بعيد.

واصطف الناس جلوسًا على الحشايا والأرائك محتبين أو متكئين على النمارق، قد غص بهم السرادق على سعته حتى ليس فيه مقعد لقادم جديد أو طريق لعابر . . .

وعلى الأريكة القريبة من دكة المغنين، جلس طائفة من أمراء المماليك، يتوسطهم طومان ابن أخى الغورى، قد فرعهم طولاً، وبهرهم جمالاً وسماحة، وأشرقت على شفتيه ابتسامة راضية تُشيع فيما حواليه البشر والاطمئنان.

وعلى مقربة من مجلس هؤلاء الأمراء، جلس جماعة من وجهاء القاهريين وظرفائهم، فيهم الشاعر الماجن جمال الدين السلمونى، والخطيب الظريف بدر الدين بن جمعة شيخ قبة يشبك، وفيهم المهذار العيّاب، سبّاب الأنام، تقى الدين بن محمود، الشاهد بالمدرسة الصالحية؛ وفيهم المؤذن المغنى، المزواج المطلاق، شهاب الدين المحلاوى، الذى جاوز عددُ مطلقاته تسعًا وتسعين ولم يزل عزبًا يبحث عن زوجة يبلغ بها عددُ مطلقاته المائة . . . وقد اكتنف هذه الجماعة عن اليمين وعن الشمال رجلان قد بلغا من دمامة الخلقة وبشاعة المنظر الحد الذى يوشك أن يخرجهما عن حقيقة الآدمية: أحدهما أرقم المسيخ خادم خلوة الشيخ أبى السعود الجارحى، والآخر

معين الدين بن شمس نائب وكيل بيت المال . . . وكأنما أرادت هذه الجماعة من القاهريين الظرفاء أن يكتنف مجلسهم هذان الدميمان ليكونا وقاية لهم من شر حاسد إذا حسد!

وتهيأت الجوقة للغناء، وأرهف الناس آذانهم يسمعون، وأزيحت الأستار عن شرفات البيوت المطلة على الخليج وبرزت من خلالها وجوه قد نضّرتها النعمة، وانبسط الضوء على سطح الماء وتكاثرت عليه الظلال الراقصة؛ وغنى على بن رحاب فأطرب وأعجب، وجاوبه أصحابه وصواحبه عزفًا على العود أو نقرًا على الدف أو صفيرًا على الشبَّابة، وتردد الصدى من بعيد إلى بعيد . . . وهو ينشد:

مـــولاى خـــذ لى أمـــانا

مـــن لحـــظ طـــرفـــك

وارفـق بقـلـبـى حنـانـا

من فـــــيض لطفك

إن خـــفت عـــينًا ترانا

فـــــزُرْ بطيـــــفك

أو فـاسـتـضـفنى عـيـانا

واحـــــتل بظرفك

وقـل غـــــــــربت أتـانـا

وارفـق بضـــــيـــــفـك!

وفرغ من غنائه فالتهبت الأكف بالتصفيق، وبحت الحناجر بالهتاف، وارتفعت الأصوات من كل جانب تستعيد ذلك اللحن الذى استلب وقار الناس واستخف الشيوخ والشباب!

وهز على بن رحاب رأسه شاكراً، وتهيأ ليعيد لحنه، فلم يكد يرفع صوته:

- مولاى خذ لى أمانًا...

حتى اهتزت جوانب السرادق بصوت أجش يصيح:

- اخرس، لا أمان لك!

فالتفت الناس نحو الباب مذعورين، ليجدوا كوكبة من المماليك السلطانية يقدمهم فارس على جواده، قد اقتحموا السرادق شاهرين السيوف لا يبالون من فى طريقهم من الناس أن تطأهم الأقدام أو تحطهم سنابك الخيل؛ فقصدوا إلى المنصة حيث كان على بن رحاب فى جوقته قد ألجمهم الفزع فتسمّروا فى أمكنتهم مرعوبين لم يحاول أحد منهم أن يفلت من ذلك القضاء النازل أو يفر بنفسه. وتقدم الفارس إلى حيث كان على بن رحاب، فانتزعه من صحابته وهو يقول:

- تعـالَ أيهـا الصـعلوك لترى ويرى الناس فـيك جـزاء من يتدخل فيما لا يعنيه.

ثم اقتلعه عن المنصة فى غلظة وأسلمه إلى جنده ليمضوا به إلى مـجلس الدوادار طومان باى، ليـقتص منه على مـا يُنسب إليه من الذنب!

كان الناس من الفزع والدهشة كأنما أخذتهم الصاعقة بغتة؛ فأسـرع منهم إلى البـاب طائفة يريدون الفرار، فسـقطوا تحت أقدام الجند وترامى بعضـهم على بعض، فمـا منهم إلا كسير أو جـريح أو قـتيل قد لفظ نفسـه؛ وطائفـة كأنما أصـابهـا الرعب بالشلل فـيبست أيديهم وأرجلهم ولم يستطيـعوا من مكانهم حراكًا، ونجوا بالخوف من الهلكة؛ وطائفة تسمع وترى وتتهيأ للدفاع باليد واللسان إذا تهيأ لها سبيل الدفاع...

فلما هَمَّ الجند أن يمضوا بعلىّ بن رحاب، اعترض سبيلهم الأمير الشاب طومان وصاح بهم صيحة آمر:

- قفوا، أين تذهبون به؟

فالتفت إليه قائدهم مستنكرًا يقول:

- كيف تجرؤ يا سيدى...؟ إنه أمر الدوادار الكبير طومان باى!

قال طومان :

- وما جريرته حتى يؤخذ هذه الإخذة وتطأ خيلك إليه بطونَ الناس؟

قال القائد وعلى شفتيه ابتسامة تعبر عن معنى :

- إذا أردت يا سيدى أن تعرف جريرته فإنى أستطيع أن آخذك معه لتعرف هناك، بين يدى الدوادار الكبير!

ورمى بصره نحو مماليكه؛ ولكن طومان لم يلبث أن رده إليه وهو يقول :

- بل سيبقى علىّ بن رحاب هنا حتى يعرف هو نفسه أىُّ جريرة يؤخذ بها!

ثم خطا خطوة فوقف إلى جانب على بن رحاب؛ ووضع يده على قبضة سيفه وهو يجيل نظره بين المماليك كأنما يتحداهم فردًا فردًا وجماعة متحدة أن يبرزوا إليه ليستخلصوا أسيرهم من يده؛ وقبل أن يتدبر قائد الجند موقفه من هذا المملوك الشاب، كانت كلمات طومان قد لامست كل قلب من قلوب الناس فسرت فى عروقهم هزة عنيفة واستيقظت حميتهم؛ فإذا هم يصيحون بالمماليك صيحة رجل واحد ويندفعون إليهم اندفاع الموج على ساحله . . . وأوشكت أن تنشب معركة . . .

وأحس قائد العسكر حرج الموقف فآثر الانسحاب بعسكره، وخلف على بن رحاب فى حماية طومان. . .

وتسحَّب الناس إلى بيوتهم، قد نغَّص أولئك المماليك عليهم ليلتهم فما استمتعوا بشىء مما ألفوا أن يستمتعوا به فى ليالى على بن رحاب!

وانفض السامر فلم يبقَ من ذلك الجميع الحاشد إلا شراذم متفرقة قد أخذت كل جماعة منها فى باب من أبواب الحديث وتنتهى جميعًا على رأى واحد، هو الإعجاب بطومان والسخط على غلظة أولئك المماليك؛ وإنهم فيما يتحاورون ليخلطون الجد بالهزل، ويستنبطون من كل معنى فكاهة ونادرة وضحكًا عريضًا.

وكان أرقم المسيخ لم يزل حيث كان، قد انتقع وجهه، ودارت عيناه فى محجريهما يرمى بهما إلى هنا وها هنا فى قلق ظاهر، كأنما يبحث عن شىء، حتى استقرتا على وجه طومان وقد جلس إلى على بن رحاب يتحدث إليه ويسمع منه. وكان الغضب قد زاد أرقم تشويهًا ومسخًا حتى كأنه تمثال منصوب للقبح والدمامة! فلم تكد عينه تستقر على طومان حتى انحسرت شفتاه عن شىء يشبه الابتسام، وتمثلت فى عينيه نظرةُ إعجاب وحب ورحمة!

وبلغت أذنيه قهقهات متتابعة، فاستدار ينظر، فإذا جمال الدين السلمونى فى الشاعر وأصحابه قد وضعوا أيديهم على بطونهم ومال بعضهم على بعض مغرقين فى ضحك عريض، فزمّ شفتيه أسفًا وهو يقول فى همس:

- حتى فى هذه الساعة لا يدعون المزاح والدعابة!

وسمعه تقى الدين بن محمود فقال متحديًا:

- ما لك أنت ولهذا أيها المسيخ الدجال؟ هلا بقيت إلى جانب شيخك فى هذه الليلة تنظف له خلوته وتحرق بين يديه البخور!

وكأنما ساءه أن يُذكر شيخه أبو السعود فى هذا المقام على لسان ذلك المهذار العابث، فأجاب غاضبًا:

- وتذكر شيخنا أيضًا؟ أما والله لولا مقامه فى هذه الأمة لمحقها الله محقًا وصب عليها العذاب ألوانًا، وإنما تُرحمون به من غضب الله!

- صدق الله العظيم: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الانفال: ٣٣]!

قال المؤذن:

- صلى الله عليه وسلم!

يمط بها صوته فى غناء وترتيل كأنما يسبِّح لأذان الفجر!

وقهقه السلموني ضاحكًا حتى كاد يندلق بطنه.

واختنق أرقم بالغضب، وثار لشيخه ولنفسه فهمّ بأمر، ثم تمتم بكلمات خافتة وتهيأ للانصراف.

قال المسيخ الثاني معين الدين بن شمس نائب وكيل بيت المال.

- لقد أفحشتم والله على الرجل وتناولتموه وشيخه بما لا يحق لكم؛ وليس لي مقام معكم إلا أن تسترضوه ليعود إلى مجلسه منكم!.

قال تقى الدين:

- أما والله لو لحقت به لطاب لنا المجلس، وما تنغصت ليلتنا إلا بيمن طلعتك وبركات شيخه، ذلك الذي يريد أن يكون بين الأمراء أميرًا وبين الصوفية شيخًا، وبين المغنين عازف طنبور!

قال السلموني:

- لا يا تقى الدين! حتى هنا ولا آذنُ لك... أفلا يسلم من لسانك أحد، حتى الشيخ أبو السعود الجارحي! اتقِ الله فى أعراض الناس يا تقى الدين!

وكان أرقم قد مضى غير بعيد، فلحق به معين الدين وجمال الدين السلموني ليسترضياه ويعودا به؛ وبصر به طومان فابتسم له ابتسامة رقيقة ودعاه إلى مجلسه، فعاج عليه وجلس منه غير بعيد، ثم لم يلبث جمال الدين السلموني وأصحابه أن انضموا إلى حلقة طومان يشاركون فى الحديث. . وكأنما أعداهم -وكلهم شيوخ- وقارُ ذلك الشاب النبيل الطلعة، فنسوا ما كانوا فيه من المزاح والدعابة، وأخذوا فى حديث جدّ خطير . . . إلا رجلين اثنين: هما المؤذن شهاب الدين المحلاوى، وأرقم المسيخ؛ أما الأول فقد تعلقت عيناه بالفتى الجميل يسرحهما فى مفاتن طلعته، فلم يسمع حرفًا واحدًا من كل ما تتحدث به الجماعة؛ أما أرقم فظل طول الوقت صامتًا ينظر ويسمع، فلم تفته كلمة ولا حركة ولكنه لم ينبس بحرف.

وتهيأ المجلس للانصراف، فمال المؤذن الماجن على أذن أرقم يقول عابثًا:

- عذرتك يا أرقم وكنتُ عاذلاً؛ فلو كان بين نسائى المائة واحدةٌ فى مثل جمال صاحبك لَمَا رُعتها بضرةٍ . . .

فثار به أرقم صائحًا فى غضب:

- اخسأ . . . ! عليكَ وعليكَ . . . أيها الفاسق الملعون!

ولكن المؤذن كان قد فر من بين يديه قبل أن تناله لطمته!

وانصرف طومان وأصحابه، وتبعه أرقم، ومشى جمال الدين السلمونى وتقى الدين بن محمود يتحدثان. . .

قال تقى الدين:

- ما رأيت كاليوم شبابًا وفتوة وجمالَ خَلق، ولا سمعتُ مثل حديث ذلك الفتى:

قال السلمونى:

- وَىْ! هأنذا أراك ذات مساء تُثنى على رجل من الناس يا سبَّاب الأنام!

فتمتم تقى الدين بكلمات، ولكن كلماته لم تلبث أن غابت فى ضحكة عالية أرسلها جمال الدين فجاوبتها أختها من صاحبه. وخلا السامر من السُّمار. . .

***

لم يكن على بن رحاب المغنى أميرًا من أمراء المماليك يُخاف ويتقى؛ نعم، ولا كان من «أولاد الناس»: تلك الطبقة التى كان آباؤها منذ جيل أو أجيال مماليك من ذوى السلطان فلا يزالون يعيشون مما خلف لهم آباؤهم من المال والمتاع والضياع، مباهين بأنهم «أولاد الناس» الذين يحسب الأمراء الحاكمون حسابهم ويتقونهم؛ نعم، ولا كان على بن رحاب

من المماليك «القرانصة» الذين كان لهم يومًا دولة وسلطان ثم دالت دولتهم وذهب سلطانهم بنزول أستاذهم عن العرش، ولكن أنفسهم لا تزال تنازعهم إلى الإمارة ولا يزالون يدبرون لخلع السلطان القائم عن العرش ليتولاه أمير من «طبقتهم» ينتسبون إليه ويتآمرون فى كنفه؛ ولا كان علىّ بن رحاب مملوكًا من المماليك «الجلبان» الذين ينتسبون إلى السلطان الجالس على العرش فلا يزالون يتنافسون فى أسباب الزلفى إليه بالدس والخيانة ليرفعهم من طبقة المماليك إلى مرتبة الأمراء. . .

لم يكن على بن رحاب المغنى واحدًا من هذه الطوائف الجركسية، ولا كان شيخًا من شيوخ العربان الثائرين أبدًا على المماليك، لا يدخلون تحت طاعة سلطان منهم إلا مطاولة ورياء حتى تجتمع جموعهم فيعودوا بعد جمام إلى الثورة والعصيان؛ ولا كان تاجرًا من مياسير التجار المصريين الذين تفرض عليهم النظم الاقتصادية التى أملتها مطامع السلاطين فى ذلك العهد أن يكونوا أبدًا على حذر ورقبة من غدر السلطان وأن يكون السلطان وأمراؤه على حذر منهم؛ ولا كان واحدًا من فتيان «الزّعر» أو زعمائهم: تلكً العصائب الشعبية التى تألفت فى الظلام لمقاومة طغيان السلاطين وعسف الأمراء؛ ولا كان من تلك الطبقة المصرية الضئيلة من

الفقهاء وأهل الكتابة الذين أهّلتهم مواهبهم ليتولوا بعض الوظائف السلطانية التى تدنيهم إلى السلطان بمقدار ما تبعد بهم عن أبناء جلدتهم، فلا يزالون مترددين بين العوامل المتناقضة تتنازعهم ذات اليمين وذات الشمال، ولا يزالون بذلك موضع الريبة عند المصريين وعند المماليك على السواء . . .

لم يكن على بن رحاب واحداً من هذه الطوائف التى تنتظم المصريين وأبناء الجركس جميعًا، فلماذا يخافه الدوادار الكبير ويرسل عسكره للقبض عليه؟ لماذا؟ . . .

لأن على بن رحاب وإن لم يكن من أولئك الجركس الطامعين، ولا من هؤلاء المصريين الثائرين، كان يشعر أنه مصرى، وأن مصريته تفرض عليه أن يتتبع الأحداث الجارية فى وطنه بين الشعب وأمرائه، وأن يكون له رأى فيما يجرى من تلك الأحداث، وأن يتحدث برأيه إلى من يغشى مجلسه من أصحابه أو من غير أصحابه؛ وكان له لسان وبيان، وله إلى ذلك منزلة فى نفوس الناس، وإنه لشاعر وإن كانت شهرته بالموسيقى والغناء؛ وكان مجلسه يضم من السراة والعلية طائفة من المصريين لو اجتمعت على رأى لتزلزلت قوائم عرش السلطان؛ من أجل ذلك غضب عليه الدوادار الكبير طومان باى وأجمع نيته على الانتقام منه؛ فكيف يجرؤ مصرى على

التحدث فى شأن من شئون الحكومة القائمة؟ وكيف تأذن له هذه الحكومة بهذا التدخل فيما لا يعنيه؟ ومن هو؟ مصرىٌّ من ذلك الشعب يقحم نفسه على الوزراء والأمراء وأصحاب الشأن من الجركس! ويا لها جريمة!

***

ولم تنفعه شفاعة صديقه الأمير طومان، ولا دعوات شيخه أبى السعود الجارحى، ولا منزلته فى الفن عند المصريين والمماليك على السواء؛ لم ينفعه ذلك ولم يشفع له، فما هى إلا أيام حتى وجد الدوادار الكبير الفرصة السانحة، ولم يكن مع على بن رحاب أحد يحميه، فانقض عليه جند السلطان وذهبوا به . . . وشهدت القاهرة كلها نكبة على بن رحاب الشاعر، الملحن، المغنى، الموسيقار، الفنان الذى لم تشهد مصر مثله من قبله، وهيهات أن تشهد مصر مثله من بعده؛ كل ذلك لأنه «تدخل فيما لا يعنيه» وجرى على لسانه فى بعض مجالسه حديث عن بعض أمراء السلطان الذى يحكم!

وأسفت القاهرة كلها على ما نال على بن رحاب أسفًا بالغًا؛ ولكن ذلك الأسف البالغ الذى شمل المصريين جميعًا، لم يكن له إلا مظهر ضئيل، من غارات فتيان الزعر، للفتك والسفك وترويع الناس، فى باب اللوق، وبولاق،

والحسينية، وسوق مرجوش، ليلةً، وليلة أخرى؛ ثم عاد الهدوء والاستقرار!

وعاد المصريون ينتظمون حلقات فى مجالى السمر، وفى رحاب المساجد، وعلى أبواب الدكاكين، يقصفون ويتفكهون، ويستنبطون من كل نازلة تنزل بهم فكاهة ونادرة وضحكًا عريضًا!

طائفة قليلة من أولاد البلد هى التى أثرت فيها نكبة علىّ بن رحاب أثرًا بعيدًا، هى زمرة جمال الدين السلمونى الشاعر، وتقى الدين بن محمود، سبَّاب الأنام، وأصحابهما . . . أكان ذلك لأنه مصرى منهم قد نالته يد السلطان الجركسى بالقسوة والبطش؟ أم لأنهم فقدوا من بعده مثل مجلسه ولم يستمعوا إلى مثل غنائه؟ ليس يدرى أحد، ولكن الحقيقة المؤكدة أنهم ظلوا يذكرونه زمانًا فى حزن وانكسار ولهفة!

●●●



خضاب العروس

لم تكد مصرباى أرملة السلطان الناصر تغادر القلعة بعد مصرع زوجها، حتى صعدت إليها ثانية فى زفة سلطانية. وعادت زوجًا للسلطان الظاهر قنصوه الخال... ولكنها فى هذه المرة تحس قلقًا لا تعرف مأتاه... ها هى ذى تعود إلى قصر القلعة سلطانة كما تمنت؛ وها هو ذا زوجها السلطان الشاب لا تكاد تنقطع خطاه بين قاعة العرش وغرفة زينتها، ولا تزال تسمع خفق أقدامه ذاهبًا وآيبًا وهى جالسة إلى مرآة زينتها قد وقفت من ورائها جاريتها وانطبعت على المرآة صورتان.

ألم يكن هذا هو كل ما تحلم به؟ فمن أين لها القلق والضجر وخفق القلب واختلاج العين كأنها تتوقع أن تحل بها كارثة؟ ألأن عدوتها أصل باى حظيّة قايتباى، وأم الناصر، وأخت الظاهر قنصوه، زوجها، لم تزل تقيم فى القصر؟ وماذا عليها

من هذا؟ أم لأنها رأت اليوم -وبعد سنين- صديقها القديم خاير بن ملباى وقد عاد من سفارته فى بلاد الروم؟ وما لها ولخاير اليوم وقد بلغت مأملها؟ أم لأن جانبلاط أمير الشام قد عاد إلى القصر ليكون كبير الأمناء لزوجها الظاهر قنصوه، وهو صديق عدوتها اللدود أصل باى؟ وماذا يعنيها من جانبلاط وإن كان كبير الأمناء وصديق عدوتها اللدود أصل باى؟ . . .

أم هى فى قلق وهمٍّ منذ لحظتْ تلك الصلة الوثيقة الخفية بين الدوادار الكبير طومان باى وكبير الأمناء جانبلاط، وما يجتمع مثلهما إلا على شر وتدبير غادر؛ أليس هذا الدوادار هو الذى قتل زوجها الناصر وكان أميرًا من أمرائه ورقيقًا من مماليك أبيه قايتباى؟ ثم أليس جانبلاط هذا هو الذى كان صديقًا من أوفى أصدقاء سلفها أقبردى، فلما دارت عليه الدائرة قلب له ظهر المجنّ وتخلى عنه لينضم إلى أعدائه، ثم هو اليوم صديق أصل باى وما تزال جاريته تروح بينهما وتغدو، ولا يكاد السلطان يشعر بما بين أخته وكبير أمنائه؛ فما هذه الصلة الوثيقة الخفية بين الرجلين وإن لهما فى الغدر تاريخًا طويلاً؟ أتراهما يدبران أمرًا للإيقاع بزوجها، أم تلك كلها أوهام وهواجس وأباطيل؟ فما هذا القلق والضجر وخفق القلب واختلاج العين كأنما يريد القدر أن ينذرها بكارثة من وراء الغيب؟

وسمعت وقع أقدام وراء الباب، فأرهفت أذنيها؛ ليست هذه خطوات الظاهر قنصوه . . .

ودخلت جارية تؤذنها بمقدم قريبتها شهد دار بنت أقبردى .

- لتدخل ! . . .

ما أحراها أن تجد فى صحبتها رَوحًا ومسرة وفرجًا من ضيق !

والتقتا على شوق، وخرجت وصيفة السلطانة لتدع لهما أن ينعما بخلوتهما هادئتين، وجلستا تتحدثان . . .

قالت مصرباى باسمة :

- وكيف أنت وأخى طومان؟ ألم يحدثك حديث غده وغدك؟

فغاب وجه شهد دار وراء سحابة من الحزن، وقالت فى انكسار :

- إننى لم أرَ طومان منذ بعيد يا خوند!

قالت مصرباى مدهوشة :

- لم تريه منذ بعيد؟ فكيف صبره عنك وإنى لأعرف قلبه؟!

فابتسمت ابتسامة كاسفة وهى تقول :

- أحسبه لم يزل يذكرني على العباد؛ ولكنه يخشى أن يغضب عمه الغورى، فقد عرف ما بين طومان وبنت أقبردى!

قالت مصرباى منكرة:

- ولكن أقبردى قد مات، فما استمرار الغورى على عداوته؟

فدمعت عينا شهد دار وقالت بصوت مختنق:

- لو لم يكن أقبردى قد مات لكان الغورى أدنى إليه اليوم، ولما جرؤ الدوادار الكبير على مصادرة أمى.

قالت مصرباى منكرة:

- أمك؟ ما شأن الدوادار الكبير بأمك؟ وكيف يجرؤ على مصادرة امرأة أقبردى الدوادار؟ هل تسلط وبطش إلى هذا الحد؟ فما عمل السلطان الظاهر؟

فترددت شهد دار برهة ثم قالت:

- بإذن الظاهر قنصوه بطش دواداره وفتك واقتحم على الناس بيوتهم، وصادر امرأة أقبردى الدوادار؛ فلا تنسى يا خوند أنه لم يصادر أمى وحدها، بل صادر معها خالتى خوند فاطمة بنت العلاء، أرملة الأشرف قايتباى، وإنك لتعرفين بعض ما كان بينها وبين أخت الظاهر قنصوه حين كانت جارية

فى حـريم قـايتـباى، فلعل الظاهر قنصـوه لم يصـادر خـوند ويصــادر أمى إلا قـربانًا إلى أخـتـه أصل باى وشـفـاء لذات صدرها!

صاحت مصرباى غاضبة:

- أوَّه؛ دائمًا أصل باى! ما لهذه المرأة لا تريد أن تخرج من حياتى؟

قالت شهد دار باسمة:

- فكيف لو علمت يا خوند ما يتحدث به الناس عن أصل باى وجانبلاط؟

فبدا الاهتمام فى وجه مصرباى وقالت فى لهفة:

بماذا تحدث الناس عنهما يا شهد دار؟

قالت:

- يقولون ياخوند: إن جانبلاط قد عُقد له على أصل باى؛ فهى زوجته منذ عاد من الشام كبيراً للأمناء فى قصر الظاهر!

فشحب وجه مصرباى وقالت:

- ماذا تقولين يا شهد دار؟ هذا كثير! أفلا يعرف الظاهر قنصوه من أمر أخته وكبير أمنائه ما يعرف الناس؟

قالت شهد دار معتذرة :

- إنه حديث الناس يا مولاتى، وقد ظللتُ أنكره زمانًا، حتى حدثتنى به اليوم جارية طومان!

فزاد اهتمام مصرباى وقالت :

- جارية طومان؟ وماذا يعنى طومان وجاريته من أصل باى وجانبلاط؟ وماذا يعنيك حتى تتحدث به إليك جاريته؟

ثم سكتت برهة وأردفت تسأل صاحبتها :

- أكان طومان يعرف أنك على نية زيارتى اليوم؟

قالت شهد دار :

- أظن ذلك يا مولاتى، فقد انبأتُ جاريته بذلك أمس!

قالت :

- آه! لعلى قد فهمت شيئًا؛ ولأمر ما يرسل طومان جاريته إليك اليوم بهذا النبأ لتبلغينى إياه! إن أمورًا خطيرة تدبَّر بليل!

ثم عادت إلى الصمت وأطرقت تفكر، ورفعت رأسها بعد حين لترى شهددار وقد ازدحمت فى عينيها دموعها وتسابقت على خديها؛ فقالت تريد أن تميل بها إلى ناحية أخرى من الحديث :

- كذلك تبكى العاشقات فى خلواتهن ولا يُسمع لهم نشيج! قولى لى: ألم تزل جارية طومان تزورك لتنقل بينكما الرسائل؟ فلماذا أخفيت عنى هذا النبأ بادئ الأمر يا خبيثة؟ الآن قد اطمأن قلبى فليطمئن قلبك؛ إن طومان لا يخيس بعهده أبدًا يا شهد دار ولا يحنث فى يمين، كذلك كان أبوه وكان جده فيما سمعت من حديث أهلى فى بلاد القبج!

وصمتت فجأة! ماذا أذكرها الساعة بلادها وقد فارقتها منذ سنين بعيدة فلم تخطر لها قبل اليوم على بال؟

وعاد الزمان القهقرى ينشر على عينيها ماضيها كله، منذ كانت، وكانت، وكانت، حتى بلغتْ...

ونهضت شهد دار لشأنها، وخلت مصرباى إلى نفسها تسترجع الذكريات...

***



خطوات الزمن

كان خان يونس فى ظاهر مدينة قيسارية من بلاد الروم، كعهد الناس به منذ سنين، فلم يزل ملتقى كثير من التجار، يمرون به غادين أو رائحين، إلى حلب، ودمشق، والقاهرة؛ أو إلى أرمينية، وبلاد الكرج، وما وراء الجبال، يلتمسون الغذاء والدفء والمأوى.

ففى ليلة حالكة السواد، قارسة البرد، عاصفة الريح، وقفت امرأة على باب الخان تطرقه طرقًا خفيفًا؛ وكان يونس الرومى قد تهيأ للنوم، فما سمع الطرق حتى قام متكاسلاً، فأوقد شمعته وتقدم إلى الباب ضجراً ثقيل الخطو؛ فلم يكن به الليلة حاجة إلى طارق جديد وقد امتلأت غرفات الخان جميعًا بالنزلاء حتى ليس فيها موضع يتسع لضيف...

وهبت نسمة من طاق غير محكم الغلق، فأطفأت الشمعة

فى يده وعَمَّ الظلام، فلولا أن رجليه قد تعودتا المشى فى سواد الليل لضل طريقه.

ثم لم يكد يفتح الباب حتى دفعت إليه امرأة متشحة بالسواد، قذفتها إلى داخل الخان ريح عاصف كادت تكبها على وجهها لولا أن تلقاها بيديه؛ ثم أغلق الباب وأحكم رتاجه وأوقد الشمعة؛ فإذا بين يديه امرأة نحيلة معروقة العظم تبص فى وجهها عينان سوداوان على وجنتين شاحبتين وقد تتابعت أنفاسها من البهر، كأنها ميت قد فر من الآخرة يحاول أن يسترد روحه أو حىّ قد أشرف على الآخرة يلفظ آخر أنفاسه.

واستندت المرأة إلى جدار البهو لا تنبس بحرف، وظل يونس الرومى واقفًا بين يديها والشمعة المضيئة فى يمينه، لا يسألها سؤالاً ولا ينتظر أن تجيب...

وثابت إليها نفسها بعد فترة، فأدارت النظر فيما حولها ثم قالت بصوت خافت:

- هذا خان يونس، أليس كذلك؟

قال الرجل:

- بلى، وأنا يونس نفسه يا سيدتى؛ فهل بك من حاجة إلىّ؟ قالت:

– نعم يا بنى، فهل لى أن أطلب عندك شرابًا دافئًا . . . ومأوى؟ . . .

ماذا تقول هذه المرأة ليونس؟ «يا بنى . . . !» إنها لتبدو أصغر سنًا مما تظن بنفسها ويظن، ولعلها لم تبلغ الأربعين بعد، وإن كانت فى ثياب العجائز وشحوب الموتى!

هكذا قال يونس لنفسه وهو يستمع إليها.

تريد شرابًا دافئًا ومأوى؟ أين؟ أما الشراب الدافئ فإن عنده الماء والنار والحطب، ولكن لا مأوى عنده!

ترى ماذا جاء بهذه المرأة تحت الليل إلى خان يونس وما لها على هذه الطريق تجارة ولا سفارة؟ من أين جاءت؟ وما شأنها؟ إن فى وجهها من أمارات الجهد والنصب ما ينبئ أنها قطعت إليه طريقًا شاقة، بعيدة؛ وفى عينيها من فتور الإعياء والسهر ما يكشف عن بعض ما فى نفسها من الهم والضنى!

وأشفق يونس الرومى على المرأة ولم يعلم بعدُ من حالها غير ما حدثته به عيناها وما قرأ فى جبينها من سطور الكآبة والألم، فكيف لو عرف جملة خبرها . . . هذه الأيِّم الحزينة الثكلى لم تزل على سفر منذ إحدى عشرة سنة تتقاذفها البلاد تلتمس مطلوبًا عزيزًا لقاؤه.

وقادها يونس إلى الغرفة التى هيأها لنفسه، وأعد لها طعامًا

وشرابًا، وتخلى لها عن فراشه ليقضي ليلته على أريكة فى بهو الخان ليس له ما يستدفئ به إلا ثيابه!

ثم أشرق الصبح، فجلست المرأة إلى يونس الرومى تحدثه بقصتها وتستعينه على أمرها:

- رعاك الله يا سيدى وأضعف لك الأجر على إحسانك. إننى من أرض الغور، فى بلاد الكرج، اسمى نور كلدى؛ كان لي زوج هو كل أسرتى وأهلى، فمضى إلى حيث لا أدرى وخلفنى؛ ولطف الله بى فى وحدتى وأحزانى فوهب لى طفلاً كان هو كل عزائى من أبيه الذى مضى؛ وكبر الطفل فصار غلامًا يخطو إلى الشباب، فلما صار ملء عينيَّ ونفسى، فقدته كما فقدت أباه من قبله: خطفه نخاس من خوارزم وذهب به، ومضيت فى أثره منذ ذلك اليوم، أجوب المدائن، وأطأ بلادًا لم تطأها أقدام أحد من أهلى، حتى قادنى الرائد إلى خانك... إننى على الطريق إليك منذ إحدى عشرة سنة، لتدلنى على الطريق إلى أبى الريحان الخوارزمى فأعرف منه أين ولدى! إنك تعرف أبا الريحان يا يونس؛ لأنه من نزلاء خانك غاديًا على بلاد المشرق أو رائحًا إلى الشام ومصر؛ فبالله عليك يا سيدى إلا ما دللتنى عليه!.

قال يونس فى صوت خافت كأنما يناجى نفسه فى خلوته:

- أبو الريحان الخوارزمى! ويل لذلك الفظ الغليظ القلب! نخاس! لم تخب فيه فراستى منذ عرفته!

قالت نور كلدى ضارعة:

- بالله يا سيدى! بحق ولدك إن كان لك ولد! بحق أبيك وأمك وما قدَّما لك من إحسان! . . .

وتدحرجت دمعتان على خد يونس الرومى؛ وتذكر أعزّاءه الذين مضوا . . . وتذكر ولده الذى اهتصره الموت صبيًّا، وتذكر أباه وأمه اللذين أضجعهما بيديه فى التراب وعاد بعدهما إلى الحياة وحيدًا يكافح ليعيش بلا أمل ولا غاية! . . .

وعاد صوت نور كلدى يرن فى أذنيه:

- بالله يا سيدى . . . بالله إلا ما أجبتنى: أين ألقى نخاس خوارزم! لن يناله سوء؛ إن أنا إلا امرأة عاجزة ليس لها حول ولا حيلة. كل ما أريده منه أن أعرف أين ذهب ولدى؛ لأستأنف الرحلة إليه؛ وله أجره إن شاء!

قال يونس:

- سأنبئك بما تريدين يا سيدتى، وسأجمع بينك وبين أبى الريحان، لتعرفى منه ما تريدين أن تعرفى . . . ولكنى أخشى أن تملّى المقام فى هذا الخان؛ فإن أبا الريحان لا يقدم علينا فى

كل عام إلا مرة أو مرتين ؛ فهلا أخبرتنى : ما كان اسم ولدك هذا ، وما صفته ، ومتى فر به أبو الريحان؟ فلعلى أعلم بعض علمه فأهديك!

وراحت نور كلدى تقص عليه تمام قصتها . . وراح يونس الرومى يستثير دفائن الذكريات فى نفسه ، لعله يستطيع أن يوفر لهذه الأيم الثاكلة بعض الزمن ، ويقصِّر شيئًا من مسافة تلك الرحلة الطويلة النائية التى بدأتها منذ إحدى عشرة سنة ولا تزال منها فى أول الطريق . . . ! .





أنباء من الغيب

بسط أبو النجم الرَّمَّال منديله بين يديه، وقد جلست غير بعيد منه خوند مصرباي زوجة السلطان الظاهر قنصوه مرهفة السمع لما تنتظر أن يحدثها به من أنباء الغيب . . .

وأخذ الرَّمَّال يفرش الرمل الأصفر على منديله وهو يزمزم، وأصابعه تخط في الرمل خطوطًا متوازية ومتقاطعة، وما تزال شفتاه تتحركان متتابعة، وقد أغمض عينيه إغماضة نائم، ومال برأسه إلى الأرض كأنما يستنبئ ذرات الرمل المتناثرة على منديله نبأ الغيب المحجب ويستمع إلى نجواها صامتًا مغمض العينين . . .

ثم رفع رأسه ونظر إلى حيث كانت خوند مصرباي جالسة تنتظر، وقد زاد خفق قلبها واختلاج جفنها كأنْ قد رأتْ وسمعت وعرفت.

وبلغها صوت الرمال بعيدًا من بعيد كأنما يتحدث إليها من وراء الزمان والمكان عن القدر المخبوء بين ركام الأيام المتزاحمة في موكب الشمس قبل أن تشرق بنورها على الدنيا . . .

وأنصتت إليه مصرباى وهو يقول :

- هذا نجمك يا مولاتى قد سطع فى الأفق الأعلى ، وثمة ثلاثة كواكب ترنو إليه بعيون مشتعلة ، بعضها قريب قريب قد بلغ غايته من التألق والإشراق حتى ليوشك أن يحترق ؛ وبعضها بعيد بعيد لا يزال بينه وبين النجم الذى يرنو إليه بعينيه المشتعلتين أبعاد ، ولكنه لابد أن يبلغ يومًا منزلة القرآن مع دورة الفلك ؛ وهذا الكوكب الثالث يلوح حينًا ويختفى ، ويأتلق ثم يخبو ، وإن عينيه المشتعلتين لترسلان فى الحالين نارًا وصواعق ، أو دخانًا ورمادًا ؛ فلا يزال يُعشى أعين الكوكبين الآخرين بنوره وناره ، أو يُقذيهما بدخانه ورماده!

قالت مصرباى ضجرة :

- لست أفهم عنك منذ اليوم شيئًا يا أبا النجم وكنتَ خبيرًا بالطوالع ؛ وإنما دعوتك لتنبئنى أين موقفى فى هذه العاصفة من الآخرين والأخريات ؛ فإنه ليخيل إلىّ أن أحداثًا عظيمة ستحدث قبل أن ينقشع غبار هذه العاصفة!

قال أبو النجم :

- صبرك يا مولاتى، فهذه صفحة الكتاب مبسوطة تحت عينىّ أقرأ سطورها المكتوبة، وستعرفين منها كل ما يعنيك أن تعرفيه...

وصمت برهة، ثم استطرد فى حديثه:

- هذه سحابة حمراء تستعرض الأفق، وإن بها فتوقًا تلمع من ورائها أنجم جديدة، وقد اصطبغت السماء بلون الشفق... هذه السحابة الحمراء قد انقشعت وصفا لون السماء؛ وهذا نجمك يا مولاتى لم يزل حيث كان، وقد دنا منه ذلك الكوكب البعيد حتى صار على مد الشعاع، ولكن كليهما ثابت فى موضعه لا يتحرك، كأنما وقفت بهما دورة الفلك؛ ولكن عاصفة قد ثارت زوابعها من بعيد توشك أن تكتسح كل ما هنالك من أنجم وكواكب... وتدور الأفلاك دورات سريعة متتابعة حتى لا تكاد تقف... ثم تنقشع العاصفة، وتصفو السماء، ويستقر كل كوكب فى مداره وينتظم فى فلكه مصعدًا أو منحدرًا؛ ويعود نجمك يا مولاتى مشرقًا وهاجًا قد انفرد فى موضعه من الأفق الأعلى، وإلى جانبه كوكب مضىء قد استوى على عرشه قريبًا قريبًا من ذلك النجم المتفرد بإشراقه وضوئه، وكان يبدو لعين الناظر بعيدًا لا يكاد يبلغه على سرعة دوران الفلك. فهذا طالعك السعيد يا مولاتى وطالع الآخرين والأخريات!

وأشـرقت على ثغـر مـصرباى ابتـسـامـة اطمـئنان ورضـا، وقالت:

- وأصل باى؟ وجانبلاط؟ والدوادار طومان باى؟ وخاير بك؟ وبنت أقبردى وصاحبها طومان؟

قال أبو النجم باسمًا:

- لقـد قلتُ ما علمتُ يا مـولاتى... ستنقشع العـاصفـة ويصـفـو الجو عن نجم واحـد قد انفـرد فى مـوضـعـه من الأفق الأعلى ومـد من أشـعـتـه جـسـرًا من النور إلى ذلك الكوكب الواحد المتفرد على عرشه... وقد تهاوت أنجم وكواكب!

قالت وهى تدفع إليه صرة دنانير:

- ويكون ذلك قريبًا يا أبا النجم؟

قـال وهو يدس الصـرة فى جـيـبـه ويتـهـيـأ للانـصـراف من مجلس السلطانة:

- ارقـبى مـدار الفلك يا مـولاتى، فـسـتـجـدين ذلك كله مسطورًا فى كتابه!

ثم مضى الرَّمَّال وخلف السلطانة تعد نجوم السماء...

***

قال الشيخ أبو السعود الجارحى لصاحبه:

- أنت على يقين مما تقول يا أرقم؟

قال:

- نعم يا مولاى، وقد رأيت الدوادار الكبير بعينى هاتين يدخل دار كبير الأمناء جانبلاط فى الأزبكية، وقد احتشد الخلق فى الميدان وأخذ الجند أهبتهم كاملة، كأنهم خارجون للقاء ابن عثمان على الحدود!

قال الشيخ آسفًا:

- قد كان ما لابد أن يكون وانتهت أيام الظاهر قنصوه على العرش؛ أفكان يطمع ذلك الأحمق أن يدعه الدوادار طومان باى يُعَمَّر على العرش وقد رفعه إليه على أشلاء ابن أخته الناصر؟ تلك منزلة من الإيثار والفضيلة لم يبلغها الدوادار طومان باى؛ وإنما هى خطوة يخطوها ولابد أن تتبعها خطوات حتى يبلغ العرش. . . وأحسب أن خوند فاطمة بنت العلاء - أرملة الأشرف قايتباى- هى التى تزين له هذا الأمل البعيد، لتثأر من أصل باى فى ولدها وأخيها!

قال أرقم:

- بل هو قنصوه الغورى يا سيدنا. . . ذلك الثعلبان الشيخ الذى يتظاهر بالورع والزهد فى الإمارة والسلطان، ويتحبب

إلى الأمراء جميعًا ليثير بعضهم على بعض حتى يتفانوا ويخلص له العرش من دونهم ولم يسفك دمًا!

قال الشيخ :

- اتق الله فى ذلك الشيخ يا أرقم؛ إنك لتغلو فى عداوته كأن لك ثأرًا عنده، فلا تزال تظن به الظنون وترميه بالبهتان؛ أفلا يشفع له عندك أنه عم صديقك الصغير طومان!

سرحت خواطر أرقم وطوَّفتْ به ذكرياته من قريب إلى بعيد، وتزاحمت على خياله صور شتى، وراح يسأل نفسه فى حيرة: أى آصرة تربط بينه وبين ذلك الأمير الصغير، حتى ليخيل إليه أن من حقه أن يتبعه أين أقام وأين ذهب؛ فما ذلك كله وهو ابن أخى الغورى، ذلك الذى يسميه الثعلبان الشيخ ويبغضه بغضًا لو تقسمه الأحياء بينهم لأوشك ألا يكون بين اثنين من الناس مودة ولا رحمة! لماذا؟ ليس يدرى أحد، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أن أرقم المسيخ قد اجتمعت فى قلبه هاتان العاطفتان المتناقضتان حتى ليس معهما متسع لعاطفة. . . ولقد شاع حبه لطومان على ألسنة الناس جميعًا فلولا مكانة ذلك الأمير الصغير من نفوس القاهريين عامة ومريدى الشيخ أبى السعود الجارحى خاصة، لأرجفوا بما لا يعلمون وجعلوا حديثهما مضغة الأفواه. . .

على أن سر العداوة بين أرقم والغورى لم يكن يعلمه أحد، حتى الشيخ نفسه؛ كل ما يعلمه الشيخ من سر هذه العداوة أن صاحبه أرقم لا يحب قنصوه الغورى، فلا يزال يثلبه وينال منه ويأخذه بالظنة كلما جرى ذكره؛ ولا يزال الشيخ يقول له كلما عرض ذكر الغورى:

- خفف من غلوائك يا أرقم!

ثم لا يزيد. . .

ولكن الشيخ فى هذا النهار لم يقتصر على كلمته تلك، وسأل أرقم:

- وددت لو عرفت سر هذه البغضاء بينك وبين قنصوه يا أرقم!

وكان فى لهجته أمر، فشحب وجه أرقم واضطرب فكه المائل، ولكنه اصطنع الهدوء وأجاب:

- وماذا يكون بينى وبين قنصوه يا سيدنا؟ . . .

وسكت هنيهة ثم أردف:

- كل ما هنالك من أمر، أننى لا أثق بذلك المملوك الشيخ؛ إنه رجل غير برىء!

ونظر الشيخ إلى وجه أرقم فأطال النظر، ثم سكت؛

ونهض أرقم يتخلع فى مشيته حتى بلغ الباب فنفذ منه، ثم عاد بعد قليل يحمل مجمرة يتصاعد منها عطر طيب، فوضعها بين يدى الشيخ وجلس على مقربة منه.

وبدأ المريدون يفدون على مجلس الشيخ رجلاً رجلاً، واثنين اثنين، وجماعات جماعات، حتى استدارت الحلقة وغصت بهم القاعة...

وأخذ الشيخ ومريدوه فى حديثهم عن الدنيا وعن الآخرة.

وعلى بعد قريب من كوم الجارح، حيث اجتمع الشيخ ومريدوه، كانت المدينة تتأهب ليوم عصيب من أيام المماليك...

***

اجتمع أمراء المماليك فى بيت كبير الأمناء الأمير جانبلاط، بالأزبكية؛ وأخذوا يداولون الرأى فى شأن الظاهر قنصوه؛ وكان على رأس المؤتمرين فى ذلك المجلس رجلان: هما الدوادار الكبير طومان باى، وصديقه بدر الدين بن مزهر كاتب السر؛ أما أولهما فقد رأى فرصة سانحة ليخطو خطوة أخرى تدنيه من العرش، وأما الآخر فكان يطلب ثأرًا عند الظاهر قنصوه؛ فقد هَمَّ الظاهر ذات مرة أن يشنقه على باب زويلة لغير ذنب، فلم يخلص من الموت إلا بشفاعة صديقه

الدوادار الكبيـر . . . واجتـمع رأى الرجلين على خلع السلطان؛ فلم يلبث سائر الأمراء أن أمَّنوا على ذلك الرأى؛ حتى جانبلاط نفسه، كبير أمناء السلطان، لم يجد حرجًا فى الغدر بمولاه؛ أفليست هذه فرصة يفترصها ليجلس على عرش قايتباى العظيم فيحقق لأصل باى أمنية!

أصل باى: جارية السلطان قايتباى، وأم الناصر، وأخت الظاهر، وزوجة جانبلاط . . . أربعة سلاطين يكتنفونها عن اليمين وعن الشمال، وكانت جارية فى سوق الرقيق منذ قريب، يسومها المفلس والمليء! .

وزحف جيش الأمراء إلى القلعة فعسكر فى مدرسة السلطان حسن، وتهيأ الظاهر للدفاع عن عرشه، فنصب المجانيق على أسوار القلعة . . . ولكن القلعة لم تلبث أن سقطت فى أيدى الثوار، لأن مماليكه لم يلبثوا أن انحازوا إلى جيش الأمراء إحقاقًا للحق . . . أفليس أولئك الأمراء أقدم من الظاهر قنصوه فى المملوكية؟ فما هذه الخؤولة التى يحتج بها لحقِّه فى العرش، وإن هؤلاء الأمراء لأقدم منه فى سجلِّ المماليك؟

ليس ذلك دستور الوراثة فى عهد سلطان الجركس!

ورأى الظاهر نفسه وحيدًا فريدًا تكاد تناله سيوف أعدائه فيتدحرج رأسه عند قدميه كما تدحرج رأس ابن أخته منذ قريب؛ فآثر أن يفر بروحه!

واقتحم على مصرباى غرفة زينتها ليفتح صوانها فينتقى ثيابًا من ثيابها تخفيه . . . ثم وقف لحظة أمام المرآة ينظر لنفسه مؤتزرًا، متنقبًا، قد شد وسطه بحزام وأبرز صدرًا ناهدًا وردفًا ثقيلاً، ثم استدار لتراه مصرباى فى زى النساء وكان منذ قليل سلطانًا . . .

وصاحت به مصرباى مذعورة :

– ماذا فعلت بنفسك يا مولاى؟

ولكنه لم يستمع إليها، فقد كانت أقدام الجند تقترب من غرفة الزينة . . .

وفر من القلعة تحت الليل فى بطانة زوجته وهو ينشد لنفسه :

وقائلةٍ قد دهتك الهموم

وأمرك ممتثلٌ فى الأمم

فقلت ذرينى على غُصتى

فإن الهموم بقدر الهمم!

. . . ثم لم يلبث فى مخبئه طويلاً حتى عثر به أعداؤه، فسيق أسيرًا إلى معتقله فى برج الإسكندرية انتظارًا لما يقضى فيه السلطان الجديد من أمره!

وتولى جانبلاط العرش خلفًا للظاهر قنصوه!



دسائس القصور

قال طومان لعمه الغورى :

- أهذا مـا كنت تعـمل له منذ عـامـين يا عـم؟ أمن أجل أن يتـولى جـانبلاط العـرش كنت تجـهـد جـهـدك وتحتـال حـيلتك وتبعث الرسل والرسائل وتجمع الجماعات وتؤلّب الأحزاب؟ ومَن جانبـلاط حتى يسبـقك إلى العرش ويدعك حيث كنت وأنت أنت؟

وابتسم الغورى ابتسامة عريضة وهو يقول :

- صـبـرك يا طومـان وانتظر حـتى يوفى الأجل ؛ أفكنت تحسبنى أتولى العرش لو دُعيت إليه اليوم ومن ورائى مطامع جانبـلاط وطومانباى الدوادار ؛ ومن وراء الاثنين أصل باى، وخوند فاطمة، تغريانهما بالوثوب على العرش؟ صبرك يا بنى حتى لا يكون هناك جانبلاط ولا طومان باى، ويومئذٍ . . .

فأعجله طومان قائلاً :

- ويومئذ يكون هذا الشعب قد ثقل عليه ما يحمل من مظالم السلاطين ، فيخلع الجراكسة جميعًا فلا يكون ثمة جانبلاط ، ولا طومانباى، ولا الغورى، ولا خشقدم الرومى! ويخلص عرش مصر لبدر الدين بن مزهر ، أو لابن أبى الشوارب، من صعاليك المصريين أو صعاليك العربان؛ وتنهار دولة الجراكسة بعد عز ومنعة، وتتناهبها أطماع البنادقة والروم وملوك النصرانية!

وضاق صدر الغورى بما يسمع من حديث ابن أخيه ، فصاح مغضبًا :

- صهْ! أظننت نفسك أغْير منى على دولة الجراكسة أو أخبر بسياسة السلاطين ، أنا الذى حطمت السنين وعاصرت سياسة هذه الدولة جيلاً بعد جيل!

ثم هدأ من ثورة وترفَّق بعد عنف ، وأردف قائلاً :

- إنها يا بنى السياسة ؛ أتظن أن الدوادار طومان باى قد رفع السيف، وقاد الجند، واقتحم الباب ، ليؤثر جانبلاط على نفسه ويضع على رأسه التاج ويقنع هو بأن يظل دوادارًا؟ ما أحمقه إذن! ولكنه يعلم أن جانبلاط أدنى منه منزلة إلى العرش وإن كان بغيضًا إلى الأمراء وإلى المماليك جميعًا ؛ فقدمه على نفسه ليخلص منه

حين يشاء، ويثب حين يثب إلى العرش وقد اجتمعت له قلوب الناس وليس وراءه من ينازعه أو يزعم أنه أحق بالعرش منه؛ فذلك ما أراده الدوادار وطومان باى، ولو شاء لنحّى جانبلاط عن طريقه وجلس مجلسه على العرش خائفًا يترقب. . .

قال طومان:

- أفتراه يرفعه إلى العرش ليخلعه غدًا؟

قال الغورى:

- نعم يا بنى، وسترى بعينيك إلى أين تصير الأمور!

قال طومان منكرًا:

- لماذا لا يخافك طومان باى يا عم، وقد كنت أقدم منه ومن جانبلاط مملوكية وأرفع رتبة؟

فابتسم الغورى حتى برقت أسنانه وقال:

- لأننى صديق، ثم لأننى شيخ كبير قد زهد فيما يطمع فيه الناس؛ فهل سمعت أحدًا يزعم أن الغورى تنازعه نفسه إلى العرش؟ لكل ذلك يا بنى أمن الدوادار الكبير جانبى واطمأن. . . وسيعلم علم اليقين كيف ينتهى تدبيره!

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فرفع الغورى حاجبه ورمى ببصره نحو السماء وهو يقول:

- انظر يا بنى هل ترى هلال ذى الحجة قد بزغ؟

فنظر طومان ثم قال:

- نعم، قُلامة ظفر توشك أن تغيب!

فأسبل الغورى جفنه وهز رأسه وهو يقول:

- نعم، قُلامة ظفر توشك أن تغيب، وعلى العرش الليلة سلطان جديد؛ فإذا صح ما حدثنى به أبو النجم الرَّمَّال، فسنكون فى قصر القلعة يا طومان قبل أن يبزغ هلال ذى حجة آخر... بل قبل ذلك بزمان!

ثم استدار نحو القبلة وتهيأ لصلاة المغرب؛ وخلفه طومان يرقب هلال ذى الحجة قبل أن يغيب عن عينه؛ فلما أفَلَ ولَّى وجه شطر دار أقبردى الدوادار يناجى خيالاً عزيزًا عليه لقاؤه، ثم سرح فى أحلامه وخواطره...

***

قالت أصل باى وقد اطمأن بها المجلس إلى جانب زوجها الأشرف جانبلاط:

- إن لى أمنية إليك يا مولاى: أن تجعل شكر هذه النعمة التى أفاء الله عليك، المنّ على أخى الظاهر قنصوه بعتق رقبته من الموت!

قال السلطان باسمًا :

- لك ما تمنيت يا خوند!

قالت :

- ومصرباى- تلك الجركسية المشئومة- تأمرها أن تلزم دارها فلا يدخل عليها أحد ولا يخرج من دارها أحد!

قال :

- ولك ذلك أيضًا يا خوند!

قالت وأقبلت على السلطان تعبث بأزرار صداره المذهب :

- وفاطمة بنت العلاء. . .

صاح السلطان مقاطعًا :

- وماذا يعنيك من أمر فاطمة بنت العلاء؟

فتراجعت أصل باى وقالت :

- لا شىء!

وسكتت قليلاً ثم أردفت :

- حسبت أن أمرها يعنيك؛ فقد كانت يومًا ما أحظى نساء السلطان قايتباى إليه!

ثم غمزت بعينها وهى تقول :

- وأحسبها لم تزل تحلم بذلك المجد الذى كانت يومًا ما تتقلب فى أعطافه، لولا ما تجد من العزاء عن ذلك فى عطف الأمير طومان باى الدوادار!

وبدا الغضب فى وجه السلطان وقال عابسًا:

- حسبك يا أصل باى؛ إننى مدين بعرشى إلى صديقى طومان باى، وليس يرضينى أن يجرى ذكره على لسانك بغير ما أحب!

قالت وأطرقت:

- وإنه لأهل للمحبة يا مولاى!

ثم سكتت، وتذكرت حادثًا حدث من عامين: يوم خرج ولدها الناصر لنزهته ذات صباح ثم لم يعد؛ وتدحرج رأسه تحت أقدام طومان باى؛ ثم تذكرت حادثًا آخر منذ يومين: حين فر أخوها الظاهر من قصر القلعة فى زى امرأة، وكان طومان باى واقفًا عند باب القلعة وفى يده سيفه يقطر من دم المماليك؛ ثم تذكرت حديثًا نقلته إليها جاريتها منذ قريب: تزعم أن طومان باى قد وعد ألا يعقد على صاحبته فاطمة بنت العلاء، إلا يوم يجلس على عرش مصر، وتعود فاطمة سلطانة كما كانت!

تذكرت أصل باى كل ذلك وهى جالسة بين يدى زوجها

الأشرف جانبلاط ؛ فلولا أنها تخاف بادرته لصاحت به : «اقتل طومان باى قبل أن يقتلك !» ولكنها لم تقلها ، وغشت نفسها وغشت السلطان وقالت :

- نعم، إنه أهل للمحبة يا مولاى ! . . .

***

وهتفت مصر كلها باسم السلطان الأشرف جانبلاط ، واجتمعت السلطات كلها فى يد الدوادار الكبير طومان باى .

رجل واحد أعلن عصيانه ولم يدخل تحت طاعة السلطان ؛ ذلك هو الأمير قصروه نائب الشام !

- يا عجبًا ! كيف حدث هذا وقصروه هو أوفى أصدقاء طومان باى الدوادار وأقربهم إلى نفسه؟ أيتمرد على السلطان أم يتمرد على صديقه الدوادار؟

سؤال توجه به طومان إلى عمه الغورى ، ولكن عمه ابتسم ولم يجبه ، ولم يزد على الابتسام شيئًا ؛ وضاقت نفس الأمير الصغير وعاد يُلْحِف فى سؤاله :

- كيف حدث هذا يا عم؟

قال الغورى ولم تزل الابتسامة على شفتيه :

- حدث أو لم يحدث ، ذلك أمر لا يعنينا ؛ إنما أنا وأنت

منذ اليــوم جند الدوادار طومــان باى ؛ وعلينا أن نســمع لقوله!

قال طومان متعجبًا :

- أنت من جند الدوادار؟

- أنا وأنت، فما علينا إلا الطاعة!

وصدع الأمير الصغير بالأمر، فمشى فى ركاب عمه!

***

وقال الدوادر الكبير طومان باى للسلطان :

- إنى لأخشى أن يقـوى أمر قصـروه فى الشام حتى يغلبنا على أمرنا حزمًا وعزمًا والرأى عندى أن نبادره قبل أن يستفحل خطره!

قال جانبلاط :

- وبماذا تشير يا أمير؟

قال الدوادار :

- نعد له حملة كبيرة تقضى عليه وتبدد شمله، ليكون أول أمرنا حزمًا وعزمًا، فلا يجرؤ بعدها أمير من أمراء الأطراف على العصيان ولا تنازعه إليه نفسه!

قال السلطان راضيًا :

- قد رأيتُ ما ترى فخذ فى أسبابك !

وراح الدوادار منذ اليوم يعد عدته لأمره؛ فلم يزل دائبًا فى الاستعداد حتى اجتمع له جيش لم يجتمع مثله للأشرف قايتباى يوم خرج للقاء ابن عثمان من بضع عشرة سنة؛ فلم يترك فى القاهرة كلها من الجند ما يكفى للدفاع عن القلعة لو بدا لبعض أعداء البلاد أن يُغِيْر على القاهرة . . .

واتخذ الجيش طريقه إلى الشام وعلى رأسه الدوادار طومان باى؛ وودعته القاهرة كلها هاتفة داعية، وودعه السلطان جانبلاط إلى حدود المدينة . وبلغ الجيش الشام؛ والتقى طومان باى وقصروه، ولكنهما لم يقتتلا، لأن الدوادار طومان باى لم يخرج لقتال، وإنما خرج لأمر آخر قد أعد له عدته وجمع أسبابه؛ فما هى إلا أن لقى صديقه قصروه العاصى حتى أخذا فى تدبير الخطة لتنفيذ ما كان مبيتًا فى الأمر . . .

واجتمع أمراء العسكرين على خلع السلطان الأشرف جانبلاط، ومبايعة «العادل» طومان باى . واستعلن الدوادار بنيته المبيتة، وبايعه الجند والقادة، وبايعه قصروه نائب الشام؛ وعاد الجيش إلى القاهرة يقدمه السلطان الجديد، وشق العادل

طومان باى القاهرة فى موكب حافل إلى القلعة لينزل جانبلاط عن العرش ويجلس مكانه، ويحقق أمنية لنفسه ولصاحبته فاطمة بنت العلاء!

وكان فى حاشيته كبير أمنائه قصروه، ودواداره الكبير قنصوه الغورى!

ومضى الجند بالأشرف جانبلاط أسيرًا إلى برج الإسكندرية، حيث يؤنس وحشة سلفه الظاهر قنصوه فى معتقله من ذلك البرج الحصين!

وصعدت خوند فاطمة بنت العلاء ثانية إلى العرش وقد وفى لها صاحبها بما وعد، وكان لها زفة سلطانية لم يرَ الراءون مثلها، فبسطت على الأرض شقق الحرير، وأضيئت فى الطِّيقان قناديل الزيت على طول الطريق من قنطرة سنقر إلى قصر السلطان بالقلعة، ونثر على رأسها رقائق الذهب والفضة، وعادت سلطانة كما تمنت على صاحبها ذات مساء. ونزلت أصل باى عن العرش الذى عاشت فى ظله منذ عهد مولاها قايتباى، وولدها الناصر، وأخيها الظاهر، وزوجها الأشرف جانبلاط؛ لتعيش فى دارها الصغيرة عند بركة الفيل، ليس لها من عمل إلا أن تسترجع ذكريات ذلك الماضى الذى كان، ثم تبكى حتى تشرق بالدمع!

على أن السلطان لم يترك أصل باى لأحزانها ؛ فقد انقض عليها زبانيته ذات يوم يسألونها أن تدفع إليه ما عندها من مال السلاطين الأربعة ؛ فلم يتركوها حتى وثقوا أنه لم يبقَ عندها أبيض ولا أصفر . . . ثم لم تلبث طويلاً بعد هذه النكبة التى أصابتها فى مالها ، حتى جاءها النبأ بمقتل زوجها جانبلاط فى معتقله من ذلك البرج ، بتدبير العادل طومان باى!

●●●



نداء القلب

كان الشتاء فى أخرياته، وقد غمرت القاهرة موجة من البرد لم تشهد مثلها من سنين، وعصفت الرياح عصفًا عنيفًا يكاد يهدم الدور ويقتلعَ الشجر؛ فأغلقت المتاجر، وخلت الأسواق من المشترين والباعة، وأوى الناس إلى بيوتهم يعتصمون بها من عصف الريح وقرس البرد؛ وأسدلت الستور على الشرفات والطيقان فلا ينفذ منها إلى الطريق بصيص من النور؛ فما أتى الليل حتى خلت طرق المدينة من المارة وغطاها الظلام، فلا خفقة نعل ولا شعاعة نور . . .

وفى هذه الليلة الليلاء، فى هذا الظلام الدامس، فى ذلك البرد القارس، فى ذلك السكون الرهيب؛ كان فتى فى زى المماليك يمشى على حيد الطريق حذرًا يتلفت؛ فما كاد يبلغ دار أقبردى الدوادار حتى انعطف عليه وقصد الباب؛ وكأنما كان ثمة من ينتظره على ميعاد، فلم يكد يقترب حتى انفتح

الباب بخفة ثم أغلق، وغاب الفتى فى ضمير الظلماء. . .

وهناك كانت خوند مصرباى الجركسية فى غرفتها من ذلك القصر جالسة تنتظر؛ فلم تكد جاريتها تؤذنها بمقدم الأمير خاير بك حتى خفَّت لاستقباله وعلى شفتيها ابتسامة وفى عينيها بريق. . . هذا رجل تستطيع أن تسخره فيما تشاء من أمرها، إنه ليحبها حبًا يفرض عليه الطاعة حين تأمر؛ لقد كان بينهما يومًا ما عهد مشترك لم تلفظه شفتاه، ولكنه عهد وثيق؛ ألم تكن تطمع يومًا أن تصير إليه ليرفعها إلى مرتبة الإمارة، وتحدثت عيناها إليه بهذه الأمنية فأجابها بعينيه وتعاهدا فى صمت؟ بلى، لقد كان ذلك يومًا.

أما هى فمضت فى طريقها لم تنظر إلى وراء، ثم لم تزل ماضية حتى بلغت العرش وكان من أمرها ما كان، وإنها لتطمع أن تعود يومًا إلى ذلك العرش. . . وأما صاحبها -هذا الذى واثقها على الحب منذ التقيا فى خان مسعود- فلم يزل يأمل أمله ويسعى إليه، إنه اليوم أمير ألف من مماليك السلطان العادل طومان باى، ولعله أن يصير أكبر من ذلك يومًا ما، ولكن ماذا يجدى عليه أن يبلغ أرقى مراتب المجد والجاه وإنه لبعيد عمن يحب وإنها بعيدة؟ ماذا يجديه أن يكون أميرًا، أو وزيرًا، أو دواداراً قد اجتمعت فى يديه كل السلطات، وليس إلى جانبه الأميرة المحبوبة الغالية التى عاش ما عاش منذ التقيا

لأول مرة فى حلب وليس له فكر إلا فيها، ولا حنين إلا إلى لقائها، ولا أمل إلا أن يراها وإياه زوجين قد تمت لهما سعادة اللقاء!

إنه لم يزل يحبها منذ ذلك اليوم البعيد، لم يصرفه عن ذلك الحب أن الأقدار قد تصرفت بها وبه، وانتقلت بها من دار إلى دار، حتى عادت اليوم إلى دارها وحيدة ليس لها من كل سعادة الماضى وأمجاده إلا ذكريات وأمانى؛ وها هو ذا يلقاها على ميعاد؛ وها هى ذى تخف لاستقباله وعلى شفتيها ابتسامة وفى عينيها بريق...

«ولكنها لم تزل زوجة الظاهر قنصوه، ذلك السلطان المخلوع الراسف فى أغلاله فى ذلك المعتقل من برج الإسكندرية الحصين؛ فمن أين له أن يطمع فى منالها ولم يزل زوجها حيًا هناك؟».

ألمّ هذا الخاطر بقلبه وبقلبها فى وقت معًا، أما هو فسأل نفسه حنقًا:

– لماذا لم يجهز عليه العادل طومان باى كما أجهز على الأشرف جانبلاط؟

وأما هى فقالت لنفسها:

– وماذا فى ذلك؟... أما إن أفلح التدبير وعاد الظاهر

قنصوه سلطانًا فسأعود معه إلى العرش سلطانة، وأما إن أخفق التدبير فلن يسلم رأس قنصوه... وإن خاير بك لأهل وجار!...

والتقيا، وجلسا ساعة تتحدث عيناها إلى عينيه ولا تنبس شفة منهما بحرف؛ ثم قطعت مصرباى الصمت قائلة:

- خاير بك!...

أجابها:

- مولاتى!...

وكان صوتها يرن فى أذنيه كالصدى راجعًا إليه من الزمان البعيد فى المكان البعيد، وكأنه ذكرى تومض فى الوجدان أو خاطر يتمثل فى الوهم. أهذه مصرباى التى لقيها ذات يوم فى حلب فتحدث إليها وتحدثت إليه، بالعينين تارة وبالشفتين، وتعاهدا على الوداد؟... إنها هى هى كما كانت، بل إنها لأكثر سحرًا وفتنة مما كانت...

واستأنف خاير بك:

- إننى لم أزل يا مولاتى على ذلك العهد، ولم يزل قلبى لك خالصًا لم يغيره تقادم السنين...

وصمت فجأة وعض على شفته؛ كيف جرى على لسانه

مثل هذا الحديث؟ لكأنما يعيّرها ويمنّ عليها . . . تلك التى عاهدته ذات يوم عهدًا فلم تثبت على الوفاء به، وأسلمت نفسها للمقادير تتقاذفها من دار إلى دار إلى دار؛ ولها فى كل دار منها قلب وحبيب، وإنه على ذلك ما يزال يحبها، ويطمع أن تخلص له.

وأطرق أسفًا خزيان! وكأنما قرأت ما قام بنفسه من هذه الخواطر، فسرها أن تكون منزلتها من نفسه حيث وصف، فقالت باسمة:

- لم أشكّ فيك يومًا يا خاير بك، ولم أنسَ . . . حتى يوم خلفتنى هنا ومضيت إلى بلاد ابن عثمان فطاب لك المقام زمانًا!

ورضى خاير بك وسُرِّىَ عنه، وخيل إليه كأنها تعتذر إليه من بعض ما كان، فهدأت نفسه من قلق، وهَمَّ أن يجيب فأعجلته قائلة:

- وإننى -أيها الصديق- لم أزل أراك بتلك العين، كأنما لم تمضِ تلك السنون؛ فلم تزل أخى وجارى ومعقد أملى!

وخفق قلب الرجل وهزته قشعريرة الحب وغشت عينيه دموع، واسترسلت المرأة فى حديثها:

- وقد كنت أدخرك يا خاير لأمر عظيم، ولكن بينى وبينك

اليوم حجابًا؛ فليس يخفى عليّ أنك اليوم من أمراء ذلك السلطان . . .

وسكتت برهة، ثم علا صوتها وزاد شدة وحِدَّةً وأردفت :

- ولكن ذلك الغادر السفاك لابد أن ينال جزاءه، ولابد أن تطلبه المقادير بالثار فتأخذه بدم الناصر وجانبلاط، ومن يدرى ماذا يفعل غدًا أو بعد غد بالظاهر قنصوه! . . . ولكنك اليوم يا خاير أمير من أمراء ذلك السلطان! . . .

قال خاير :

- مولاتى . . .

فقاطعته قائلة فى رقة :

- لست مولانك يا خاير، إن مولاك هو ذلك السلطان؛ وإنما أنا مصرباى التى كنت تناديها باسمها ذات يوم فى حلب منذ سنين!

قال خاير وقد غلبه وجدانه :

- نعم يا مصرباى . . . ولكنك إلا تكونى مولاتى فلن يكون مولاى هو الغادر السفاك طومان باى، وستعرفين من خبرى وتسمعين عن بلائى!

فلمعت عينا مصرباى ببريق فاتن، وأقبلت على محدثها

حتى أحس أنفاسها تتضوع فى جوه عطرًا، مسكرًا، وقال وعيناها فى عينيه:

- وإنك أهل لذلك يا خاير بك... بل إنك لأهل لأكثر من ذلك!...

وانضم إلى أعداء العادل طومان باى -منذ تلك الليلة المقرورة- أمير من أمراء المماليك له شدة وبأس وعنفوان!

على أن العادل وقد صعد إلى العرش وتحققت له كل أمانيه، لم يكن يفكر فيما يدبر وراءه؛ وما كان له أن يخشى غدرة وقد تفانى الأمراء العظام فلم يبقَ ثمة من تنازعه نفسه إلى العرش أو يطمع فى الوثوب على السلطان؛ ومن ذا هنالك غير الظاهر قنصوه رهين محبسه فى برج الإسكندرية يرسف فى أغلاله وليس وراءه من يهتم به؛ وغير قصروه وإنه لأوفى أصدقائه له، وبجهده وتدبير ولى العرش ولو أراده قصروه لسبق إليه؛ ثم قنصوه الغورى، ذلك الشيخ الذى جاوز سن الطموح وعزف على مغريات المجد والجاه؟ ومن غير هؤلاء يخشاه العادل أو يحسب حسابه؟

واطمأن إلى حظه راضيًا آمنًا غدرة الأيام!





لفتات الذكرى

لم يكن طومان ابن أخى الغورى هادئًا ساكن النفس فى هذه الأيام؛ إن فى رأسه خواطر تصطرع، وإن القلق ليتوزعه ويذهب به مذاهبه؛ لأنه لا يكاد يعرف أين هو من دنياه هذه التى تموج بالأحداث. . .

إن العادل طومان باى اليوم يجلس على عرش قايتباى العظيم بالغدر والخيانة وسفك الدم، وما أعظمها سخرية أن يكون دواداره الكبير هو قنصوه الغورى؛ وأين العادل طومانباى من الغورى؟ أهذا الذى كان منذ سنوات مملوكًا من المماليك الخاصة -حين كان الغورى أميرًا له شأن وقدر وسابقة- يثب إلى العرش على أشلاء ثلاثة سلاطين ولا يجد الغورى حرجًا فى أن يكون دواداره؟ يا للدوادار الشيخ! هل نالت منه السنون وهدت عزيمته حتى رضى لنفسه هذا المقام؟ . . .

ولكن ما له وللسياسة وأساليبها الملتوية؟ لقد نفض يده منها منذ أغفل عمه مشورته واستقل برأيه؛ فليس به اليوم نزوع إليها ولا فكر فيها، فليستقل عمه بتدبيره ولينظر هو فى أمر نفسه، إنه منذ بعيد لم يلقَ صاحبته شهد دار بنت أقبردى ولم تختلف إليها جاريته؛ إن بينها اليوم وبين السلطان سببًا، أليست خوند فاطمة بنت العلاء -زوج السلطان- خالتها؛ وأين له اليوم أن يلقاها أو يرسل إليها رسوله؟ ثم إنها حتى اليوم لم تزل فى نظر عمه الغورى، بنتَ أقبردى الدوادار الذى كان الغورى يخاصمه يومًا ما؛ فمن أين لطومان أن يلتمس عند عمه المعونة على ما يلقاه من حبها؟ وهل يرضى الغورى لابن أخيه أن يكون زوجًا لبنت أقبردى؟ أم تراه يستعين على أمره بمصرباى؟ . . ولكن مصرباى اليوم فى منزلة أخرى؛ إنها طريدة الجالس على العرش، فما فى طوقها أن تكون عونًا له على الوصول إلى بنت أخت السلطانة! . . .

ما هذا؟ أكلما حاول أن يفر من حديث السياسة والفكر فيها رأى نفسه منساقًا إليها من حيث لا يدرى، غارقًا فى لجتها المائجة؟

وثقل عليه ما يحمل من هم، فاتخذ طريقه إلى كوم الجارح، يلتمس عند شيخه أبى السعود شيئًا من الرَّوح والاطمئنان وهدوء البال؛ ولأول مرة منذ تعود أن يلقى شيخه

فى حلقته، لم تقع عينه على أرقم خادم الشيخ، ودار بعينيه فيما حوله ومن حوله فلم يعثر به، وكان شيخه يرقبه، فقال باسمًا:

- أحسبك تريد أن تسأل عن أرقم؟

فاحمر وجه طومان وأجاب:

- نعم، إننى لا أراه هنا اليوم!

قال الشيخ ولم تزل على شفتيه ابتسامته:

- ولعلك لا تراه بعد؛ لقد فارقنا مغضبًا منذ أيام، وأحسبه لن يعود.

ثم صمت برهة وعاد يقول:

- إن أرقم صندوق مغلق على ما فيه من غيب الله، لم يطلع على سره أحد؛ لست أنكر أنه من أهل الصلاح والتحرج، ولكن به إلى ذلك نزغات شيطانية يجب أن تخلص من مثلها قلوب أهل الصلاح والخير! . . .

وبدا الاهتمام فى وجه طومان، وسأل شيخه:

- تعنى يا سيدنا أن وراء مظهره ذلك حقيقة خبيثة!

قال الشيخ مستغفرًا:

- معاذ الله! ولكنه على صلاحه وتحرجه لا يسلم من بوادر الغضب، وأحسب أن له ماضيًا يجتهد لإخفائه، أو لنسيانه؛ فإن له أحيانًا سبحات خيالية تتراءى فى عينيه بعض صورها ثم يمحوها الدمع... وإنه أحيانًا ليحب أن يأكل لحم بعض الناس!

قال طومان:

- أما هذا فنعم، وقد تحدث إلىّ مرة فلم يتحرج أمامى أن يذكر عمى قنصوه مما يسوءنى، ولكنه رجل منكوب فليس عليه حرج أن يسخط حظه، وأن يجرى على لسانه بعض ما يكره الناس!

***

وغادر طومان مجلس الشيخ كما دخله، لم يتفرج من همه أو يتخفف من أثقاله؛ فإنه لفى بعض الطريق وقد جاوز الرملة إذ وافق خاير بك خارجًا من دار أقبردى يوفض فى السير عجلان.

ولأول مرة منذ افترقا فى خان مسعود بحلب قبل اثنتى عشرة سنة -التقى خاير بك وطومان، وكان لقاؤهما عند دار مصرباى الجركسية، فى مثل موقفهما ذات صباح هناك؛ أما طومان فقد عرف صاحبه كأن لم يفارقه إلا منذ اليوم، وأما

خاير فأنكر ذلك الوجه؛ لقد كان طومان فى ذلك الماضى غلامًا أمرد نحيل البدن، وإنه اليوم لشاب قد بلغ مبلغه من النضج والقوة. وهتف طومان وقد مد يده باسمًا:

- أفلست تعرفنى يا خاير؟ إننى أنا طومان. . .

وعاد الزمان القهقرى فردّ الرجلين إلى ذلك الماضى برهة ثم عاد كل منهما إلى مكانته، وجاوبت ابتسامة أختها، وتعارفا، ثم تدابرا ومضى كل منهما يفكر فى شأن صاحبه؛ أما خاير فتذكر تلك الكلمة التى قالها طومان فى ذلك الصباح البعيد البعيد على باب الغرفة التى تجلس وراءها مصرباى:

«اذهب حيث شئت فلابد أن نلتقى يومًا!».

فانقبضت نفسه لهذه الذكرى، وركبه الهم وتوزعه القلق؛ وأما طومان فلم يتمثل فى تلك اللحظة إلا مصرباى جالسة بين يدى أستاذها جقمق فى غرفته من خان مسعود بحلب، وفى وجهها أمارات القلق واللهفة، وخاير بن ملباى يتمشى ثقيل الخطو عند باب الغرفة؛ ثم عاد يتمثلها فى قصرها هذا الأنيق جالسة بين يدى مواشطها تتهيأ لاستقبال ذلك الضيف. . .! فانقبضت نفسه لهذه الصورة أكثر ما انقبضت نفس صاحبه ذاك لتلك الكلمة التى لفظتها شفتا طومان منذ سنين! . . .

وضاق طومان بهمّه، وازدحمت عليه الخواطر المؤلمة تدفعه

من حال إلى حال شرٌّ منها؛ فاتخذ طريقه إلى شمال المدينة يلتمس فرجة فى الخلاء عند بساتين قبة يشبك؛ فلما انتهى إلى حيث أراد؛ ترجل عن فرسه ودخل القبة فصلى صلاته، ثم خرج إلى البساتين النضرة راجلاً يجتلى بهجة النفس وقرة العين فى مناظرها الفاتنة.

ثم عاد إلى فرسه فشد لجامها ووضع رجله فى الركاب، وتأهب للعودة إلى دار عمه؛ وفجأة قفزت إلى خاطره صورة أرقم، ذلك المسيخ المنكوب الذى اصطلحت عليه هموم الدنيا فليس له نصيب من سعادتها، فودّ لو لقيه فى تلك الساعة ليخفف عنه بعض ما يلقى من أنكاد الحياة ويحاول أن يصلح بينه وبين شيخه. وعجب طومان لنفسه؛ لماذا أذكر أرقم فى تلك الساعة وأحضر فى خياله صورته تلك وإنها لبغيضة المنظر إلى جميع من يراه؟ . . .

ولو أن طومان حين سأل نفسه هذا السؤال قد مدّ عينيه إلى قريب، لرأى أرقم جالسًا فى ظل سرحة فينانة وبين يديه منديل مبسوط قد فُرش عليه رمل أصفر، وراحت أصابعه تخط عليه خطوطًا متوازية ومتقاطعة، وأحاط به حلقة من الناس يستنبئونه الغيب . . .

لقد أصبح أرقم رَمَّالاً منذ فارق شيخه أبا السعود الجارحى مغضبًا، ولم يجد فى نفسه حرجًا من احتراف هذه المهنة حين

ضاقت به أسباب العيش وعزّ عليه أن يحصل على الرزق الحلال؛ وماذا عليه فى أن يكون رَمَّالاً كأبى النجم: يجفف دموع المحزونين، ويمسح على قلب البائسين، ويهب لليائسين الصبر والأمل؛ وأى عمل أكثر مثوبة عند الله من ذاك؟ . . . ليته يؤمن بمثل ما يؤمن به الناس، ليجد من يجفف دمعه، ويمسح على قلبه، ويهب له الصبر والأمل!

ورأى أرقم طومان وهو يهم أن يعتلى فرسه، فأتبعه عينيه حتى غاب، ونفذت صورته إلى خاطره ولم تره عيناه؛ ورأى أهل الحلقة أرقم وهو يرفع عينيه ويدور بهما نحو الطريق الذى سلكه طومان، فلم يظنوا إلا أنها سبحات روحية تتمثل فى نظرة عينين، فأمسكوا عن القول حتى عاد إليهم من سبحته ومضى فيما كان فيه من تخطيط وتخليط!

وبلغ طومان دار عمه وهو متعب مكدود الفكر والجسد، فأوى إلى فراشه ساعة لينام، وفى خياله صور شتى وخواطر متضاربة، ولكنه لم يلبث أن نام. . .

وانتقلت خواطره فى النوم إلى البعيد البعيد، وحضرته صورة أخرى لم تحضره منذ سنين: صورة امرأة تشبه نور كلدى شبهًا بعيدًا، لولا ذبول فى عينيها، ونحول فى جسدها، وشحوب فى وجنتيها، وشعرات بيض فى رأسها تلوح

وتخفى كما يهتز الشعاع على سطح الماء فى ليلة حالكة السواد . . .

وكانت فى ثياب الحداد، ملثمة لا يبدو فى وجهها الشاحب إلا عينان تبصان، وإنها لتقتلع أقدامها اقتلاعًا فى بادية رملية سحيقة، ليس وراءها إلا الرمال، وليس أمامها إلا الرمال، وقد أصابها الكلال والظمأ فى تلك الطريق الطويلة الشاقة، فإنها لتنظر حواليها فلا ترى أحدًا، وتنظر أمامها فلا ترى أحدًا ولكنها لم تنظر وراءها قط؛ كأنما عاهدت نفسها أن تموت أو تبلغ آخر هذه الطريق . . .

وأحست بالضعف والوهن، فهتفت وإن حلقها ليكاد ينشق :

- ولدى طومان!

فدوّى الصوت فى أرجاء هذه المتاهة العمياء، ثم ارتد إليها الصدى فكأنما سمعت فى أطوائه جواب النداء، فاستمدت من عزمها قوة واستمرت تمشى وهى تقتلع أقدامها اقتلاعًا فى رمال تلك البادية السحيقة . . .

وهبّ طومان من نومه مذعورًا يتلفت، كأنما أيقظه ذلك الصوت البعيد البعيد تهتف به امرأة غاب وحيدها فلم تزل على الطريق إليه منذ بضع عشرة سنة!

وهتف طومان وهو يدير عينيه فيما حوله بين جدران أربعة:

- أمي نور كلدى! . . .

فلم يتردد له صدى، ولكن صوته اخترق الأبعاد، واجتاز المسافات، وقطع الطريق من غرب الأرض إلى الشرق أسرع من الشعاع النافذ؛ فإذا أمه تسمعه هنالك، فتستأنف سيرها فى ذلك الطريق الطويل الموحش، معتزمة مصممة، لتبلغ حيث أرادت، وتلقاه. . .

●●●



أرقم الرَّمَّال

لم يحاول أرقم الرَّمَّال منذ اتخذ تلك الحرفة مرتزقًا، أن يتحول عن مجلسه ذاك تحت السرحة الفينانة فى بساتين القبة، فقد وجد هنالك من إقبال الناس عليه ما أغراه بالمقام ثمة، فإنه ليقضى نهاره فى ظل تلك السرحة، فإذا أظله الليل مشى يتخلع حتى يبلغ القبة فيقضى ليله فى الحجرة الصغيرة الضيقة التى أفردها له الشيخ بدر الدين بن جمعة شيخ القبة وأذن له فى أن يتخذها مأوى. . .

وكان الشيخ بدر الدين رجلاً له عند الأمراء مقام واعتبار، فهو إلى علمه وفضله مسامر له فنون فى تشقيق الأحاديث، وطالما أنس إليه الأمراء الذين يختلفون إلى القبة للصلاة أو التماس شىء من الراحة بعد أن يأخذوا حظهم من الرياضة والفرجة فى البساتين النضرة التى تمتد شمالى القاهرة إلى محلة قلج والخانقاه. . . وكثيراً ما كانت مسامرات الشيخ

بدر الدين وأحاديثه العذبة تغرى بعض هؤلاء الأمير بالمبيت في ضيافته. وقد أعدت هنالك -منذ عهد الأمير يشبك الدوادار منشئ تلك القبة- دار ضيافة عامرة، فيها الخدم والحشم، وفيها كل ما يحتاج إليه السلاطين والأمراء من أسباب الترف والنعمة؛ فلا يكاد يمضى يوم حتى يفد إلى القبة أمير من الأمراء، أو يفد إليها السلطان نفسه يحاول أن يتخفف فى ذلك الجو الممتع من بعض أثقاله؛ فيلقى شيخُ القبة ضيفه، أو أضيافه، ويهيئ لهم مقامًا طيبًا وسمرًا لطيفًا، فيجلس إليهم يقص القصص، أو يروى النوادر، أو ينشد الشعر، أو يثير مسألة من مسائل الجدل يشتجر حولها الخلاف حينًا بين السمار، ثم يجتمعون فى النهاية على رأى الشيخ؛ فإنه ليملك من قوة البيان بالعربية والتركية ما يمتلك به الحجة فى أعسر مسالك الجدال والمناظرة... فإذا سئم ضيوفه الحديث والمناظرة فإن الشيخ بدر الدين لاعب كرة ورامى نشاب، وله توقيع وغناء وألحان على الشبابة تستنزل العصم!

لا جرم كان الشيخ بدر الدين بن جمعة بكل ذلك صاحب تلك المكانة بين رواد بساتين القبة من الترك والمصريين على السواء؛ وكان أرقم الرمَّال يعيش فى ظله راضيًا بما أفاء الله عليه من حرفته الجديدة...

وتسامع الناس بأرقم الرمَّال، فسعوا إليه من القاهرة وأرباضها، وعرفه كثير من أهل القرى الذين يمرون بهذه الرياض في طريقهم من بلاد الشرقية إلى مصر، فلم يلبث أن صار له ذكر أخمل ذكر أبي النجم الذى تفرد بفنه فى القاهرة زمانًا حتى لا يأمل أحد أن ينفذ إلى شيء من أسرار الغيب إلا من بابه، وظل أوحد عصره فى هذا الفن حتى غلبه أرقم على مكانه.

وكأنما كانت دمامة أرقم، وبحة صوته، وغرابة أطواره، هى الأسباب التى حملت الناس على تصديقه والإيمان به؛ كأنما وقع فى وهم الناس بكل ذلك أنه رجل ليس من الناس وأن بينه وبين الغيب أسبابًا . . .

وبلغ صيته السلطان العادل طومان باى، فدعاه إليه . . .

يا للرجل مما به! إنه لم يفكر يومًا منذ اتخذ تلك الحرفة مرتزقًا أنها ستقوده إلى ذلك المأزق الحرج؛ ما له وللسلاطين؟ إنه ليشعوذ على العامة ما يشعوذ لأنه رجل منهم، يعرف دخيلة صدورهم وما يتخايل لهم من الأمانى ما يحذرون من هموم العيش، وإنه ليلقف غيب صدورهم من لحظات أعينهم وخلجات جوارحهم وهمسات شفاههم، فما يفعل إلا أن يردّ إليهم ما أخذ منهم فى عبارة تتسع وتضيق، وتطول وتقصر،

وفيها الفأل والطيرة؛ فيأخذها كل منهم على ما فى نفسه من معنى، فلا يلبث أن يؤمن ويصدق؛ فأين هو من السلطان وحاشيته ليعرف دخيلة صدورهم ويختلج فى نفوسهم من الأمانى أو من المخاوف والآلام؟ ولكن الشيخ بدر الدين هو الذى جر عليه هذا البلاء وعرّضه لتلك المحنة، وحبب إلى السلطان أن يدعوه لينبئه عن غيبه!

لعل الشيخ بدر الدين كان برىء النية فيما قصد إليه، بل لعله أراد لصاحبه الخير والنعمة فاحتال ليصل حبله بالسلطان؛ ولكن أرقم الرمال لم يفهم ذلك إلا على أنه بلاء ومحنة وهَمٌّ طويل . . .

فقال محتجًا:

- يا سيدنا الشيخ! ما لى ولهذا المأزق ترمينى إليه وإنك لتعرف أن بضاعتى لا تنفق فى سوق السلطان، وما لى علم بما فى نفسه فأحدثه عنه، ولا خبر عن حاشيته فأرويه له؛ وليس فى وجهى طلعة يُمن كما ترانى!

قال الشيخ ضاحكًا:

- فإنك يا أرقم تعرف من خبره أنه سلطان، وأن لكل سلطان حاشيته، وأن فى حاشيته قصروه، وقنصوه، وأن زوجته خوند فاطمة بنت العلاء؛ وماذا يختلج فى نفس

السلطان من الأمل والهم إلا أن يفكر فى عـــرشـــه، وفى حاشيته، وفى زوجه؟ وإن فى يمن حديثك يا أرقم ما يغنى عن يمن طلعتك!

بلع أرقم ريقه وهو يهمس لنفسه:

- فى حاشيته قصروه، وقنصوه؟ . . . إلى أين ترمى بى المقادير يارب وليس لى اختيار؟

وصمت برهة يفكر، وغاب فى سبحة من سبحاته الخيالية الطويلة، فلو كان فى مجلسه ثمة شيخه أبو السعود الجارحى لقرأ فى عينيه بعض سره. . .

وطال صمته فى مجلس بدر الدين بن جمعة، فلم يتنبه حتى هزه الشيخ بلطف وهو يقول:

- هيه! ماذا قلت يا أرقم؟

وعاد أرقم من سرحته فأجاب قائلاً:

- سأذهب يا سيدى، سأذهب إلى السلطان فأنبئه بغيبه؛ على أن تعيرنى من ثيابك جبة وقفطانًا وعمامة!

قال الشيخ ضاحكًا:

- هى لك ملكًا لا عارية يا أرقم! . . .

***

كان قصروه كبير الأمناء رجلاً محببًا إلى الناس، فإنه لجواد سمح، وإنه لرفيق متواضع، وإنه لوافى العهد جرىء القلب، يؤثر صاحبه على نفسه وإن كانت به خصاصة؛ ولم ينسَ له أهل القاهرة مشهدًا قريبًا يوم رأوه يحفر الخندق عند القلعة بيديه مع الفَعَلة ويحمل التراب على كتفيه؛ ليهيئ لصاحبه طومان باى أن يكون سلطانًا على عرش مصر؛ وإن قصروه لأعلى مقامًا وأقدم مملوكية من طومان باى، ولكنه صديق!

وكان حب المصريين لقصروه وإعجابهم بخلاله، هما الدعامة الثوية التى يستند إليها عرش السلطان العادل طومان باى. لم يكن ذلك رأى المصريين وحدهم، ولكنه رأى المماليك جميعًا، ورأى قنصوه الغورى الذى طالما تحدث به وتحدث به ابن أخيه طومان إلى المماليك وإلى الناس...

على أن السلطان العادل نفسه لم يكن غافلاً عن هذه الحقيقة. فإن قصروه لأدنى أمرائه إليه وأصفاهم عنده، وإنه ليأذن له أن يبيت فى القلعة حين لا يأذن لغيره، وإنه ليأكل على سماط السلطان، حيث لا يأكل أحد غيره على سماط السلطان.

واطمأنت القاهرة، ومصر كلها، ورضيت عن السلطان العادل، لأن الأمير المحبوب قصروه هو مستشاره وكبير

أمنائه، ولأن دواداره الكبير هو قنصوه الغورى، ذلك الشيخ الذى عرك الأيام وعركته، وجاوز سنّ الطموح فليس له نزوع إلى مزيد من المجد المخضّب بالدم . . .

وبات قصروه فى القلعة ذات مساء، ثم أصبح فبكر إلى مجلس السلطان؛ ووقف يومئذ بباب القلعة حمار هزيل، عليه شيخ معتمّ؛ قد غطت عمامته أذنيه وبعض وجهه، وغرق فى جبة فضفاضة كأنه طفل فى ثياب أبيه . . .

وترجل الشيخ عن حماره ومشى يتخلع فى مشيته وقد جمع فى يده فضل ثيابه، فانحسر قفطانه عن ساقين معروقتين كأنهما عودان من قصب، ودنا من البواب يؤذنه بنفسه ويتعرف إليه :

- أرقم الرمَّال، مدعوّ السلطان!

وغض البواب بصره وفتح له الطريق، فمشى حتى بلغ مجلس السلطان، فقبّل الأرض بين يديه ووقف صامتًا حى يؤذن له، ثم اتخذ مقعده بين يدى السلطان وبسط منديله . . . ونظر عن يمين وشمال، ثم قال فى صوت أبح :

- مولاى! . . .

قال السلطان :

- قد فهمت ما تعنيه؛ فهل تأذن لنا فى خلوة يا أمير قصروه!

قال قصروه وقد تهيأ للقيام وعلى شفتيه ابتسامته:

- نعم، وباليمن والبركات يا مولاى!

وخلا المجلس إلا من السلطان والرمَّال، وبسط الرجل على المنديل حفنة من الرمل وراح يخط عليها بأصابعه خطوطًا متوازية وأخرى متقاطعة، وهو يزمزم ويقلب عينيه بين الأرض والسقف والحيطان؛ ثم انحنى على منديله وراح يتحدث فى همس، ثم شرع صوته يرتفع رويدًا رويدًا حتى بلغ أذنى السلطان، فسمع صوتًا كأنه من وراء الغيب يقول:

- ومولانا السلطان مسعود الطالع بتوفيق الله، على يمينه يمن، على يساره يسر ورخاء وسعادة... الطيبات للطيبين والصالحات للصالحين، والخير لأهل الخير والإحسان؛ والخيِّرة بنت العلاء للخيِّر ابن الطيبين الطاهرين، تعيش فى ظل نعمائه دهرًا، وتنجب للخلف الكريم ما لم تنجب للسلف العظيم، ويكتنفه النيِّران حتى يتم تمامه ويبلغ عنفوانه...

ثم أخذ الصوت ينخفض رويدًا رويدًا حى عاد كما بدأ، همسًا خافتًا كأنفاس النائم؛ ثم عاد يرتفع رويدًا رويدًا حتى ظهر كأنما طوَّاف فى الآفاق ثم آب؛ واستمع السلطان إلى الرمال يقول فى صوت أبح كأنما يعالجه قسرًا فلا يكاد:

- وفى السماء نجوم طالعة، ودرارىّ ساطعة، وكواكب يخفق نورها بين الخبوّ والإشراق، ونجم مولاى السلطان بينها متفرد فى عليائه، متميز بلألائه. . . وثمة نجم يلاحقه ويوشك أن يدركه. ابعد أيها الكوكب الخابى! ابعد أيها المتقحم على ما ليس من قدرك! ابعد!. ابعد فلست هناك؛ هل أنت إلى هذا النجم الساطع إلا حصاة تتضوأ من نوره، وذرة من تراب تتلألأ من شعاعه، فلولا أنك فى مداره لكنت فحمة الليل، وسوادًا أسحم ينذر بالويل؛ ابعد! ابعد فقد عرفناك، لست هناك لست هناك، وإنه لمولاك وإن أطعمك وأدناك. . . ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [القلم: ١] عوذت بها السلطان من شيطانك المريد؛ فلا تنال منه منالاً، ولا تبلغ محالاً، ومولانا بعين الله يحفظه ويرعاه، فلا يقفوه «قاف» بالشر إلا كبَّه الله على وجهه وأرداه!

وتقاطر العرق على جبين الرمال وبدا فى وجهه الإعياء؛ فكأنما كان يغالب الغيب على أسراره حتى استخلصها وما كاد؛ ثم لم يكد ينتهى من حديثه حتى أطرق إطراقة طويلة، ثم رفع رأسه وهو يرتعد كأنما غشيته الحمى. . .

وكان السلطان فى أثناء ذلك كله يسمع صامتًا لا يكاد يجد نفسه، فما هدأ الصوت حتى تنفس تنفسًا عميقًا رده إلى الوعى واليقظة، ثم قال وفى وجهه أمارات القلق واللهفة:

- ماذا قلت يا شيخ؟ وبماذا حدثتك نجومك؟

قال أرقم ولم يزل جسده يرتعد:

- هو ما سمع مولانا السلطان مما أنبأتنى به الطوالع؛ وإن مولانا السلطان لمنصور بإذن الله، ولن ينال الكائدون منه منالاً!

قال السلطان حانقًا:

- من ذلك الذى يكيد لى يا شيخ؟ وفيم يطمع؟

قال أرقم وقد ضُيق عليه حتى لا يكاد يجد سبيلاً للفرار:

- عوذت مولانا برب الفلق. إنه أمير من بطانتك يا مولانا أول اسمه ق!

فنهض السلطان عن مجلسه ودنا من أرقم حتى مس كتفه بيده وهو يقول:

- بالله إلا ما صرحت لى، فإننى لا أكاد أفهم ما تعنيه!

وثاب إلى أرقم إيمانه بنفسه حين رأى مكانه الذى بلغ عند السلطان، فانفرجت شفتاه عن ابتسامته تلك، وقال:

- فليبحث مولانا السلطان عن ق بين أمرائه، فسيعرفه بسمات الشر فى وجهه وقسماته؛ فإذا لم يكشف لمولانا

السلطان عن صدره تائبًا نائبًا فليكشف عن مكنون صدره السيف!

قال السلطان مؤمنًا:

– صدقت وإن السيف لأصدق ما يكشف عن خبيئات الصدور؛ وكأن قد عرفتُ الذى تعنيه...

ثم مد يده إلى الرمَّال بصرة فيها دنانير، وكساه كسوة سلطانية، وشيعه إلى الباب وهو ماشٍ يتخلع فى مشيته كأنه صرة ثياب على عصوين من قصب!

قال أرقم لنفسه والحمار ينحدر به من القلعة:

– الآن قد وضعت السيف فى قفا قنصوه الغورى وتوشك الدنيا أن تطهر من ذلك الثعلبان الشيخ!

وقال السلطان لنفسه وهو يدور فى غرفته قلقًا حيران لا يكاد يستقر على حال:

– والآن ينبغى أن أتدبر أمرى وأمر قصروه، فأناله قبل أن ينالنى، ولست أدرى كيف غاب عنى قبل اليوم أن قصروه إنما يتحبب إلى الشعب ليجد منهم جنده حين يثب وثبته على العرش؛ فالحمد لله إذ انكشف لى أمره قبل أن يأخذنى على غرة وينال مناله!

وأعد السماط السلطانى، وجلس إليه السلطان عابس الوجه شارد اللب لا يكاد يمد يده إلى شىء من الطعام؛ وجلس كبير الأمناء قصروه إلى جانب مولاه يلحظه قلقًا لا يكاد يجد مذاق الطعام فى فمه؛ وكان حولهما على السماط أمراء من حاشية السلطان لم يشغلهم شىء عن طيبات الطعام والشراب والفاكهة، وعن التندر والمفاكهة؛ فإنهم ليأكلون أكل الفارغين ويمزحون مزح السكارى!

وقال قصروه وقد أوشك النُّدل أن يرفعوا المائدة:

- حرس الله مولاى السلطان وجنَّبه العوادى؛ ماذا بك اليوم يا مولاى؟

وابتسم السلطان ابتسامة غامضة، وقال وقد ثبت عينيه فى عينى كبير أمنائه:

- أنا والله خائف منك يا أمير!

وغص كبير الأمناء بريقه، وتوقف الأمراء عما كانوا فيه، واتجهوا بأنظارهم إلى حيث كان يجلس السلطان وكبير أمنائه. وأطبق الصمت على المكان. . .

ثم لم يلبث الأمراء أن غادروا المجلس، وخرج قصروه وقلبه يحدثه بالشر الذى يتربص به. . .

ثم انقضى الليل، فلم يكد الناس يصبحون فيغدون على أعمالهم حتى جاءهم نعي قصروه كبير أمناء السلطان. . .

وانهارت الدعامة العظيمة التي يستند إليها عرش السلطان العادل طومان باى، وآذن صبحه بليل!

●●●



حديث المدينة

كان دكان على بن أبى الجود، بياع الحلوى والمشبك عند حمام شيخو، كأنه منتدى من منتديات السمر، فلا يزال يلتقى عنده كل يوم طوائف من المصريين والمماليك، فيقضون وقتًا طيبًا يسمرون ويتبادلون مختلف الأحاديث ريثما يهيئ لهم ما يشتهون من الحلواء والمشبك، وقد اشتهر فى صناعتهما شهرة طبقت القاهرة، فسعى إليه الناس من مختلف الأحياء يشترون من بضاعته هذه اللذيذة ويسمرون فى دكانه . . .

وكان فيمن يقصد دكانه ذاك جماعة أمراء المماليك الشبان يستخفهم حديثه وتلذهم حلواه؛ على أن قنصوه الغورى كان أكثر رواد ذلك المنتدى الصغير وأشدهم إقبالاً على بضاعته؛ وإن الغورى لجسيم شحيم، وله فنون فى أكل الحلوى والمشبك، لاسيما تلك التى يصنعها على بن أبى الجود؛ فلما ارتقى الغورى فى درجات الإمارة حتى بلغ ما بلغ، لم يرضَ

لنفسه أن يختلط بالسوقة وصعار الأمراء من رواد ذلك الدكان، ولكن صلته لم تنقطع بعلى بن أبى الجود؛ فقد عرف فيه مصرياً ذكى الحس خفيف الروح سريع الخاطر له دهاء وحيلة، فإنه لأهل لأن يستعين به يومًا ما على أمر من أمره؛ ثم إن حلواه لم تزل حبيبة إلى نفس الأمير الشيخ. . . ومن ثمة نشأت الصلة بين طومان وعلى بن أبى الجود، فكثيراً ما كان يقصد إلى دكانه، لحاجة عمه أو لحاجة نفسه؛ وما كان أكثر حاجته إلى أن يلقى من أعيان المصريين من لا يتهيأ له أن يلقاهم فيتحدث إليهم إلا فى دكان ابن أبى الجود.

ففى أصيل يوم من تلك الأيام قصد طومان إلى ذلك الدكان لبعض حاجته، فإذا طائفة من أصدقاء ابن أبى الجود قد جلسوا ينتظرون ما يهيئ لهم من بضاعته، ويتبادلون الأحاديث؛ على أن المدينة كلها فى ذلك اليوم لم يكن لها إلا حديث واحد، فقد كان مصرع الأمير قصروه كبير الأمناء حادثًا فظيعًا يتردد صداه فى كل نفس، فما ترى فى عيون الناس ولا تسمع على ألسنتهم إلا أمارات الحزن وعبارات الأسى على مصرع ذلك الأمير الكريم؛ وكأنما لم يكن هتاف ذلك الشعب منذ قريب باسم السلطان العادل طومان باى، إلا تعبيراً عن ثقته وحبه لمستشار ذلك السلطان وكبير أمنائه؛ فما جاءه نبأ مصرعه حتى

انقلب ذلك الهتاف باسم السلطان دعاء عليه وبغضًا له؛ فلو أطاقوا لانتزعوه من عرشه ورموه فى حفرته!

ولم يكد طومان ابن أخى الغورى يظهر فى الطريق مقبلاً على دكان ابن أبى الجود حتى أمسك الناس هناك عما كانوا فيه من حديث قصروه وأخذوا فى حديث غيره؛ أليس هذا الأمير الصغير هو ابن أخى الغورى دوادار السلطان؟ فإنهم ليخشون أن يطلع على ما تكن صدورهم من البغض لذلك السلطان الغادر!

ولحظ طومان صمتهم بعد ضجيج وسكونهم بعد حركة؛ فأقبل عليهم بتحيته مبتسمًا ثم جلس بينهم، وطال الصمت فترة، ثم ندر صوت رجل من أبناء الناس كان جالسًا فى زاوية الدكان يقول:

- رحمه الله! لقد عاش كريمًا ومات كريمًا!

ووجد طومان فرجة لينفذ منها إلى ما يريد، فقال وقد بدا فى وجهه لون من الأسى:

- أحسبك تتحدث عن الأمير قصروه، وحقًا قلت، وإن موته لخسارة!

ثم عاد لحظة إلى الصمت وهو يقلب بصره فى وجوه الجالسين، وأردف:

- ولم يكن مثلُ قصروه فى وفائه أهلاً لهذا الغدر!

وبدا الارتياح فى وجوه الناس، وقال رجلٌ منهم:

- عجبت كيف يكره قصروه أو يخافه رجل له قلب أو عقل!

قال جاره:

- ومن قال لك إن لذلك الغادر الذى دبر مصرعه قلبًا أو عقلاً؛ أرأيته -لو أن له عقلاً يدرك به- كان يهدم تلك الدعامة الراسخة التى يستند إليها عرشه؟

قال آخر:

- أفليس هو الذى قتل الناصر ابن سيده، وخلع الظاهر صديقه، وغدر بصاحبه جانبلاط الذى وثق به وأسلم له الأمر كله؟ فمن أين لمثله أن يكون له قلب أو عقل؟

فى تلك اللحظة، أقبل على دكان على بن أبى الجود شيخ جليل، له وقار وسمت، فأمسكوا عن الحديث ووقفوا إجلالاً وتحية حين همس واحد منهم:

- الشيخ جلال الدين السيوطى!

وألقى الشيخ إليهم السلام وهَمَّ أن يستأنف سيره بعد أن أسرَّ كلمتين فى أذن ابن أبى الجود؛ فقال واحد من الجماعة:

- ادعُ لنا يا سيدنا الشيخ، أن يكشف الله عنا هذه الغمة!

فأسبل الشيخ جفنيه وهز رأسه فى أسف وهو يقول:

- الله لهذه الأمة من ذلك الفاسق! عجل الله به لنخلص من شره، ورحمة الله على ذلك الشهيد!

ثم استأنف سيره لتعود الجماعة إلى ما كانت فيه من الحديث.

قال جركسى قصير القامة كان جالسًا فى أقصى المجلس:

- ليس لنا والله فى هذه المحنة إلا تدبير الأمير الكبير قنصوه الغورى، لولا عزوفه عنها!

ومال طومان برأسه ينظر، فإذا غلامه أبرك... فابتسم ابتسامة ثم قال:

- ومن أين لعمى الغورى أن يؤمن بأن عليه اليوم فرضًا أن يخرج من صومعته ليقيم هذا العوج؟ إنه ليكره أن يظن الناس به الظنون حين يسمعون له صوتًا فى هذه الملمة؛ وإن أبغض شىء إليه أن يكون من أصحاب السلطان فيحمل أوزار هذه الخلائق جميعًا على رأسه يوم القيامة!

قال شيخ كبير:

- فإذا لم يحملها الغورى فمن يحملها؟ إنه ليزعم أنه يفر

من حمل أوزار الناس، وإن فراره ذاك لإثم أكبر؛ فقد فسد الأمر كله حتى يوشك الناس أن يأكل بعضهم بعضًا ويتخذوا سلطانهم قدوة فى الغدر والخيانة!

قال طومان:

- ولكن الغورى يا أبتِ شيخ كبير يضعف عن احتمال تبعاتها...

قال الشيخ:

- بل قل كما قلت من قبل: إنه يفر من تبعاتها؛ وماذا صنع الشبان الأربعة الذين تداولوا عرش قايتباى من بعده؟ ماذا فعلوا إلا الغدر والفتك وهتك الحرمات وسفك الدم؛ أفلم يكن قايتباى شيخًا قد حطم الثمانين؟ فأين منا تلك الأيام السعيدة المجيدة!

قال طومان:

- صدقت! فمن لى بأن يؤمن عمى الغورى بما تقول؟...

***

وكان على بن أبى الجود قد فرغ من حاجة أصحابه هؤلاء؛ فأخذ كل منهم حاجته ومضوا لشأنهم؛ ومضى الشيخ الكبير، والأمير طومان، وأبرك المملوك، كل منهم فى وجه، ولكنهم

لم يلبثوا أن التقوا عند دار الأمير قنصوه الغورى فى ساحة بين القصرين حيث كان الغورى ينتظر أن يعودوا إليه بما عندهم من أحاديث الناس فى المدينة!

فلما أظل الليل، كان على بن أبى الجود نفسه، بياع الحلوى والمشبك عند حمام شيخو، جالسًا بين يدى الأمير قنصوه الغورى الدوادار الكبير يقص عليه ما رأى وما سمع من حديث الأمراء والسوقة فى ذلك اليوم الذى لم يكن يجرى فيه على لسان أحد من الناس، جراكسةً ومصريين، إلا خبر مصرع قصروه، وطيش السلطان العادل طومان باى وغدره!

وخلا المجلس بعد قليل بطومان وعمه؛ فقال الفتى:

- يا عم، إن فى نفسى حديثًا أرجو أن تأذن لى فيه!

قال الغورى:

- وما ذاك يا طومان؟

قال طومان:

- إنى أخشى أن يكون على بن أبى الجود عينًا عليك؛ فقد نبئت أن له سببًا إلى السلطان؛ وليس لمثل هذا السوقى عهد!

قال الغورى باسمًا:

- نبئت؟ فمن أنبأك؟ حسبتك تعرف منذ بعيد أن له أسبابًا

إلى السلطان! إننى أعرف هذا فلا تخشَ سوءًا يا طومان؛ إن عمك يعرف أين يضع رجله قبل أن يخطو خطوة إلى أمام، أو إلى وراء!

ضاق صدر طومان بحديث عمه هذا، فقال غاضبًا:

- تعرف هذا؟ . . . فهل عرفت أن كلمة واحدة قالها الشيخ جلال الدين السيوطى اليوم على مسمع من ذلك السوقى، فلم تلبث أن بلغت السلطان؛ فإن الجند ليبحثون عن الشيخ جلال الدين منذ ساعات ليسوقوه مقيدًا إلى مجلس السلطان ينتقم منه!

فزادت ابتسامة الغورى اتساعًا وعمقًا وهو يقول:

- عرفت هذا، وأحسبهم لم يظفروا بالشيخ جلال الدين ولو كبسوا كل بيوت المدينة؛ فقد عرف ما يراد به قبل أن يعرف الجند الذين ينقبون عنه فى زاوية كل دار ومسجد!

فبدت الدهشة فى وجه طومان وأمسك عاجزًا عن الرد ولم يزل يحيك فى صدره الشك والقلق؟

***

وفى هدأة الليل وقد نامت العيون، كان شيخ فى الستين يدلف حذرًا فى الطريق إلى بركة الفيل، حتى بلغ دارًا لم يرتج

بابها فنفذ من ورائه إلى الطريق شعاع يتراقص؛ فدفع الشيخ الباب في خفة ودخل، ثم أغلقه فأحكم رتاجه، ووضع عباءته عن كتفيه وانتصبت قامته. واستقبلته جارية كانت تنتظره ثمة فسألته:

- هل أنبئ مولاتي؟

قال:

- نعم، قولي لها: قد جاء الغوري لموعدك يا خوند، وإن به حاجة إلى أن يعود إلى داره قبل أن يتقدم الليل!

وكانت خوند أصل باى تنتظر، فلم تكد تنبئها الجارية بمقدم قنصوه الغوري حتى هبت واقفة وتهيأت لاستقباله.

والتقى الشيخ بالأميرة الكسيرة الجناح التي كانت ذات يوم أحظى جواري السلطان قايتباى، ثم لم تزل من بعده آمرة ناهية في عهد ولدها الناصر، وأخيها الظاهر، وزوجها جانبلاط!

أين هي اليوم مما كانت تنعم به من الجاه والمجد والسلطان؟ لقد ذهب ذلك جميعًا، وتخضب سيف العادل طومان باى بدم ولدها وزوجها، ولعله يدبر الساعة لأخيها الظاهر في معتقله ما يدبر من كيد ليؤمّن ظهره؛ ولم يكفه هذا الذي صنع، فسلط عليها زبانيته يحاولون أن يغتصبوا ما ادخرته من مال في أيام عزها ليكون لها عونًا في تلك الأيام الشداد...

قال الغورى : إنى والله يا خوند ليعز علىّ ما نالك على يد ذلك السلطان الغاشم، وإنى إلى ذلك لأعجب كيف رضى لك مماليك السلاطين الأربعة هذا الهوان، فلم يدفعوا عنك أذاه ولم يحاولوا أن يأخذوا بثأرهم منه! . . .

قالت ورفعت منديلها إلى عينيها تجفف عبرة :

- شكرًا يا أمير، وإنها لمروءة أن تذكرنى حين لا يذكرنى أحد؛ وقد كان مماليك السلاطين أهلاً لأن يدفعوا عنى ويأخذوا بثأرهم، لولا ما بينى وبينهم من حجاب؛ ومن أين لى أن ألقى أحدًا من أمرائهم فأتحدث إليه؛ فلولا أنك تذكرنى لغاب عنى أننى كنت يومًا سلطانة وكانوا لى بطانة، وإنى لأشترى قطرة من دم ذلك الباغى بكل ما أملك من مال! فقد نذرت نذرًا أن أتخلق أنا وعيالى بدمه، بما أثكلنى ورمّلنى وأسخن عينى!

قال الغورى :

- أرجو أن تجدى وفاء نذرك يا خوند وتقرى عينًا؛ فقد آلمنى وبلغ من نفسى مبلغًا بعيدًا أن يطيش ذلك السفاك حتى يسلط عليك زبانيته يستصفون مالك فلا يتركون لك أبيض ولا أصفر!

ثم صمت برهة وعاد يقول والكلمات تتعثر على شفتيه :

- وإن عليّ دينًا لأستاذى قايتباى ولك، يقتضينى أن أمدّ إليك يدى بما أملك من مال قليل يكون لك عوضًا مما انتهب هؤلاء اللصوص!

فابتسمت أصل باى وقالت مزهوة:

- وهل حسبتهم -كما زعموا وزعم الناس- قد أخذوا من مالى إلا قلامة ظفر! فالحمد لله على نعمته وشكرًا لك.

وخرج الغورى من دارها تحت الليل كما دخل، وقد أيقن أن تحت لوائه منذ الليلة كل مماليك السلاطين الأربعة، لينالوا ثأرهم عند العادل طومان باى. . .

ومضى جمادى، ورجب، وشعبان، والبذرة تستجمع لنفسها أسباب النماء والقوة فى باطن الأرض؛ فما أهلّ هلال رمضان حتى نجم النبات واستطال فروعه إلى يمين وشمال.

وحل الربيع -بعد شتاء عاصف- يُجدُّ الآمال ويوقظ الفتن النائمة؛ فلم يكن للسامرين فى ليالى رمضان الضاحكة فى نور الربيع ونوّاره إلا حديث واحد، يبدأ وينتهى عند اسم العادل طومان باى. واستطال الناس عهده وما استقر على عرشه ثلاثة أشهر. . .

وأحس السلطان نذر الشر فراح يدبر أمره، ودعا الأمراء

إليه فلم يجبه مجيب؛ فعوّل على خطة يخلص بها من الأمراء جميعًا ولم يوقظ فتنة ولم يسفك دمًا . . .

العيد بعد غد، وسيجتمع الأمراء فى المسجد يوم الفطر للصلاة؛ وهنالك . . . هنالك يحيط بهم الجند فرادى فيسوقونهم إلى حيث يلقون آخرتهم، ويخلص له العرش . . .

وجاءهم النبأ قبل أن تغرب شمس رمضان، فحشدوا الجند ووثبوا على القلعة قبل أن يأخذ السلطان أهبته!

وكما فر من قبلُ الظاهرُ قنصوه والأشرف جانبلاط، فر العادل طومان باى قبل أن يدركه هلال شوال وهو على العرش.

واجتمع الأمراء صبيحة يوم عيد الفطر يداولون الرأى ويتساءلون بينهم: من ذا يلى العرش فى هذه الفتنة إلا رجل عرك الدهر وخبر سياسة الدولة جيلاً بعد جيل؟ من غير قنصوه الغورى؟

وتمنَّع الغورى وبكى وهو يقول:

- دعونى أقضى ما بقى من أيامى هادئًا؛ لا تقدموا عنقى إلى الجلاد فى مهرجان؛ فما هذا التاج الذى تضعونه على رأسى إلا غلٌ تسوقون فيه رجلاً منكم إلى الموت بين عزف

الموسيقى ونقر الدفوف!

قال الأمراء وقد نال منهم حديثه فأقبل منهم من كان معرضًا ومال إليه من كان مائلاً عنه:

- ليس لها غيرك يا قنصوه، وكلنا جند من جندك!

وأقسموا له على الطاعة والولاء مخلصين!

وجلس قنصوه الغوري على العرش في يوم الفطر سنة ٩٠٦، وعيدت المدينة عيدين...

***

وكان أرقم الرمّال جالسًا في ظل سرحته الفينانة من بساتين القبة حين جاءه النبأ، فقلب كفيه عجبًا ودهشة وهو يقول:

- ما شئتَ يارب لا ما شاء الناس، بيدي رفعت ذلك الثعلبان الشيخ إلى العرش حين خيل إليّ أنني قد وضعت في قفاه السيف؛ وبيدي قتلت قصروه الشهيد وخلعت العادل طومانباي!

ثم غاب في سبحة من سبحاته الخيالية مطوّفًا في الآفاق البعيدة، وتتابعت على خديه دموعه!

●●●



تحت ظل العرش

قال خاير بك حاجب الحجاب لصاحبه خشقدم الرومى :

- أرأيت يا صديقى كيف تتقلب الأقدار؟ أفكنت تحسب يومًا أن يبلغ ذلك الصبى حيث بلغ ، وأن يرتفع به الحظ حتى يقع ظله على العرش ، وأن يسلم له الزمام عمه السلطان الشيخ حتى لا رأى لأحد من الأمراء العظام فوق رأى طومان؟

فضحك خشقدم ساخرًا وهو يقول :

- وأنت يا خاير بك حيث أنت ، وأنا . . . ، لو شاء ذلك الصبى لردنا إلى الرق بعد عتاق ؛ أفرأيت كيف يصعِّر خده عابسًا حين يرانا كأن لم يكن يومًا ولم نكن . . . !

قال خاير بك :

- ليس يعنينى عبوسه أو انبساطه! ولكنى قد لحظت منذ قريب أن له عينًا علىّ حيثما أذهب ؛ وما أراه إلا يدبر لى شرًا . . .

قال خشقدم:

– أما شره فلا تخف يا أمير، فما علمته ينبعث إلى الشر، وإنما هو عين وأذن ولسان، فإن كان قد جعل عليك عينًا كما زعمت فاحرص منذ اليوم على سرك قبل أن يعرف السلطان من خبرك ما تحرص على كتمانه!

قال خاير بك قلقًا:

– ماذا قلت؟ أفتراه يختلف إلى بيت أقبردى الدوادار حينًا بعد حين لمثل ذلك، وهو يزعم أن خوند مصرباى أخته وأنه لها أخ وجار؟

قال خشقدم الرومى:

– أما فى بيت أقبردى فلا، فليهدأ بالك يا أمير؛ ولكن له هناك أمنية يتطلع إليها منذ بعيد. . .

فابتسم خاير بك وقال:

– تعنى شهد دار بنت أقبردى؟

قال خشقدم:

– نعم، ولكنه لن ينالها، فقد أجمع السلطان على أن يزوجه ابنته جان سكر، وما أظنه يغفر له لو عرف أن له هوى هنالك، فإن شئت يا أمير فقد عرفت من أين تناله!

فسرحت نظرة خاير بك إلى بعيد وهز رأسه وهو يردد فى صوت خافت:

- نعم، نعم قد عرفت!

***

ثبتت قوائم عرش السلطان فى مصر بعد اضطراب دام سنين، منذ مات السلطان قايتباى؛ واستقر الغورى على عرشه هادئًا راضى النفس قد أمن ظهره، فليس بين أمراء المماليك اليوم أمير واحد يزعم لنفسه أو لأحد ممن حوله أنه أولى بها من ذلك السلطان الشيخ وقد تفانى الأمراء العظام ومات بعضهم بأيدى بعض...

على أن طائفة من الأمراء الشبان كانت أنفسهم تنازعهم إلى لون من المجد والجاه، ولكنها لم تكن تبلغ بهم مبلغ الأمل القريب فى عرش السلطان الشيخ، إلا أن يموت حتف أنفه؛ وكان السلطان الغورى رجلاً من ذوى الرأى والحيلة، له تدبير وكيد، وقد سلخ ما مضى من عمره لا يفكر إلا فى الوسيلة التى يبلغ بها العرش، فلما بلغ لم يكن له فكر إلا فى الوسيلة التى تحفظ له هذا العرش ما عاش ليجعله من بعده ميراثًا لولده! فغفل عن كل تدبير إلا ما كان سببًا إلى هذه الغاية، فلم يكد يحكم حتى كان من أول همه التخلص من أعدائه، يغرى

بعضهم ببعض ليخلص منهم جميعًا ولم يسفك دمًا أو يؤرث بغضاء، ثم جَدَّ فى طلب السلطان المخلوع حتى ظفر به فأسلمه إلى أعدائه يأخذون منه بثأرهم. وتخلّقت أصل باى بدمه وتخلق عيالها، وهيأ لها السلطان الوفاء بذلك النذر!

ولم يكن به شرهٌ إلى المال، ولكنه أيقن أن المال هو الوسيلة إلى استبقاء العرش، فكان كل تدبيره من بعدُ ليجمع ما يقدر عليه من المال بكل ما يملك من أسباب، ولم يُبقِ فى ذلك ممكنًا إلا استعان به، حتى اتجر فى الغذاء والكساء، واتجر فى وظائف الدولة، واحتكر أنواعًا من المتاجر لا تباع ولا تشترى إلا من بابه. وسار الموظفون على نهج السلطان؛ فاتجروا، واحتكروا، وفرضوا الضرائب لأنفسهم على الناس باسم السلطان، له منها نصيب ولهم نصيب، وليس يعنيه شىء مما يصيب الشعب من وراء ذلك ما دامت خزائنه عامرة بالمال؛ واتخذ من أعوانه فى تقدير الضرائب وتحصيل المال طائفة من ذوى الرأى والحيلة أو ذوى الغلظة والعنفوان، فيهم جانى باى الأستادار، وفيهم على بن أبى الجود بياع الحلوى والمشبك عند حمام شيخو، كان! وجعل همه إلى زيادة مماليكه الخاصة ليكون له منهم جيش يحميه ويدفع عنه، حتى بلغ عدد مماليكه الخاصة فى طباق القلعة ألفًا ومائتين، غير مماليك الأمراء والوزراء وأصحاب الوظائف، ينفق عليهم جميعًا من مال

الدولة ويحتظيهم ويمكّن لهم، على حين ترك القرانصة من مماليك السلاطين السابقين لا يجدون ما ينفقون، وانتزع ما كان بأيدى أولاد الناس -ذرارى الأمراء السابقين- من إقطاعات خلفها لهم آباؤهم، ليهبها لمماليكه الخاصة أو يضمها إلى ملكه . . .

وضاق الشعب بما يحمل من عبء الضرائب وعسف المماليك الخاصة.

وثار القرانصة لإيثار الجلبان عليهم بالخير والنعماء . . .

وغضب أولاد الناس لهوانهم بعد عزة وفقرهم بعد غنى . . .

ورآها العربان وفتيان الزّعر فرصة سانحة للشغب وإثارة الفتنة ليفسدوا على هؤلاء الجراكسة أمرهم وينالوا الثأر من حكومة المماليك!

رجل واحد كان يحمل هَمَّ ذلك كله على كتفيه، فلولا أنه صديق الشعب، والقرانصة، وأولاد الناس؛ ولولا إحسانه وبره، وتواضعه ورقة قلبه؛ ولولا أنه صوفى بين المتصوّفة، وفتى بين فتيان الزعر، وأعرابى بين الأعراب؛ ولولا أنه سفير هؤلاء جميعًا إلى السلطان وسفير السلطان إليهم؛ ولولا أن له عينًا ترى، وأذنًا تسمع، وقلبًا يحس، ويدًا تُعطى، ولسانًا

يُبين -لانتقض غزل السلطان الغورى ولم يبلغ تمام أمره؛ ذلك هو الأمير طومان باى، وإنه يومئذ لشاب لم يبلغ الثلاثين . . .

على أن ذلك الشاب -على ما يحمل من أعباء هذه الهموم جميعًا- كان ينوء بهَمٍّ آخر من هموم نفسه، يجثم على صدره كالجبل الراسخ فى موضعه لا يتحلحل؛ ذلك هو همه وهمٌّ شهددار . . .

يا لهِ مما يلاقى من ذلك الهوى!

منذ بضع سنين لم يزل يحمل من حب تلك الفتاة ما يحمل صابرًا ينتظر فرجة من أمل وبصيصًا من نور؛ وقد خُيل إليه ذات يوم أنه مستطيعٌ أن يظفر برضا عمه عن زواجه ببنت أقبردى؛ وماذا يمنعه من ذلك وقد مات أقبردى فانقطع ما بينه وبين الأحياء من أسباب العداوة، وقد بلغ الغورى حيث أراد وولى العرش فليس بينه وبين ذلك الماضى سبب ولا وشيجة من حب أو من بغضاء؛ فهل يأبى أن يحقق أملاً لابن أخيه وأحب الأمراء إليه؟ . . .

وهَمَّ أن يتحدث إلى عمه بما أراد حين ابتدره عمه قائلاً:

- طومان؛ لقد أبليتَ بلاءك يا بُنى فى تثبيت قوائم هذا العرش؛ فأنت حقيق بأن تبلغ منى أدنى منزلة، وقد اخترتك لابنتى جان سكر، فهى مسماة عليك منذ اليوم . . . فإن شئت

فليكن زفافها إليك بعد أن يقدم الحاج فى المحرم، أو لا فليكن ذلك فى يوم عرفة قبل أن يشتد القيظ!

فنكس طومان باى رأسه بين الخجل والحيرة وقال وصوته لا يكاد يبلغ أذنيه:

- مولاى...

فابتسم الغورى ابتسامة ماكرة وهو يقول:

- عرفتُ يا بنى ما فى نفسك؛ فما بك من حاجة إلى أن تشكر، وإنك لولدى ومن حقك علىَّ أن أختار لك؛ وما كانت نفسى لتطيب بها لأحد غيرك!

فرفع طومان باى عينيه برهة فى وجه عمه، ثم أطرق صامتًا وصدره يكاد ينشق غيظًا مما به!

«ما به حاجة إلى أن يشكر!» عجبًا! أفتراه كان يريد أن يقول له: «إنك لا تملك معى إلا الرضا والطاعة فليس من حقك أن تأبى!» ولكنه اصطنع أسلوبه فى السياسة فأبدل عبارة بعبارة؟ وهل كان الغورى يجهل ما فى نفس طومان باى وما أجمع نيته عليه؟ ولكن ماذا يملك طومان باى إلا أن يطأطئ رأسه فى صمت وصدره يكاد ينشق غيظًا مما به...

يا له مما يلاقى! ويا لشهد دار!

وشاع في القصر ما كان من خبر طومان باى وبنت السلطان، وعرف كل مملوك في القصر وكل جارية، أن سكر بنت السلطان هي منذ اليوم خطيبة طومان باى . . . وعرف خشقدم الرومى عتيق السلطان!

وذاع الخبر حتى بلغ شهد دار، فأوت إلى مقصورتها تبكي في صمت؛ ويئست بعد أمل، فأسلمها اليأس إلى الهَمِّ، فأسلمها الهَمُّ إلى فراش الضنى . . . وما كان لشهد دار أن تسترسل في أحلامها بعد ما كان؛ فإن طومان باى منذ اليوم صهر السلطان، وما كان له أن يروع بنت السلطان بضرة، وأن تكون هذه الضرة هي بنت أقبردى الدوادار . .

***

وقالت خوند مصرباى لصديقها خاير بك:

- لقد كنت أتوقع أن يكون مثل هذا؛ ولكن من يدرى؟ فقد يجمع الله الشتيتين . . .

فزفر خاير بك زفرة عميقة وهو يقول:

- نعم . . .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كل الظن أنْ لا تلاقيا!

ذلك كل ما أهتف به من الشعر فى خلواتى يا مصرباى، فهل تهتفين به فى خلواتك؟ . . .

فاستضحكت ثم قالت وقد برقت عيناها بريقًا خاطفًا وافْتَرّ ثغرها عن ثنايا كاللؤلؤ الرطب:

- لا يا صديقى، وماذا يدعونى إلى الظن بأن لا تلاقى؟ لقد تعودت أن أتمنى فأجد؛ وإنما أتغنى فى خلواتى بشعر الشاعر:

فيارَبِّ كلُّ اثنين بينهما هوى

من الناس والأنعام يلتقيان

فيقضى حبيبٌ من حبيب لبانة

ويرعاهما ربى فلا يُريان!

ومست ألحان مصرباى قلب خاير، فمال نحوها يقول:

- وماذا يكون إن رُئيا يا مصر باى؟ . . .

ومد إليها يدًا، فكفَّته وهى تقول:

- الحفاظ والمروءة يا خاير . . . ألاَّ يراهما ذو عينين!

وأخذا فى حديث طويل، فلولا أن بين خاير بك وصديقه خشقدم الرومى موعدًا قد أزف، لظل يحدث صاحبته ويستمع إليها حتى الصباح!

لم يفارق خشقدم الرومى سيده الغورى منذ دخل فى رقه؛ فعاد معه فى حلب إلى القاهرة عزيزاً مكرمًا، ولم يطل عهده فى الرق، فقد أعتقه مولاه ووهب له خيلاً ومالاً وجعله فى بطانته، ولم يأله منذ كان إكرامًا وبرًا، فهيأ له أسباب الإمارة، وزوّجه بنت جانى باى الأستادار، وأقطعه دارًا، وأجرى له رزقًا، واعتدّه من خاصة مماليكه؛ ولكن خشقدم مع كل ذلك لم ينسَ أنه رومى بين الجراكسة، وأنه كان يومًا ما رفيقًا لطومان باى، ذلك الجركسى الشاب الذى يهتف اليوم باسمه الأمراء والسوقة، وينفذ أمره فى القصر وفى الديوان؛ ولم يزل خشقدم حيث كان عتيقًا ليس له إقطاع ولا إمارة!

«لماذا تفاوتت المقادير بينهما هذا التفاوت البعيد؟ ألأنه ابن أخى الغورى فيما يزعم؟ وما هذا فى دولة المماليك؟ أترى أولئك الذين يأمرون منهم ويحكمون قد بلغوا مرتبة الحكم والإمارة لأن آباءهم كانوا من الأمراء أو من السلاطين؟ فما لهم يجعلون الأنساب سببًا لغير مسبَّب، ودستورُ هذه الدولة إنما يقوم على حق «المملوكية» لا على الأنساب؟».

كذلك كان خشقدم يدير هذه الأسئلة بينه وبين نفسه حينًا بعد حين، فلم تلبث المنافسة بينه وبين طومان باى أن انقلبت إلى حسد، وتطور الحسد فإذا هو حقد وضغينة، وتضاعف

الحقد حتى صار هماً مقيمًا معقدًا ، كأن له عند طومان باى ثأرًا يطلبه فلا يزال يتحين له الفرصة ليبلغ منه مبلغه .

ودارت المقادير بخشقدم فى فلكها الدائر ، فإذا هو يلقى خاير ابن ملباى ذات يوم وجهًا لوجه ، وما التقيا قط منذ افترقا فى حلب منذ بضع عشرة سنة ، فما كادا يلتقيان حتى ألَّف بينهما هوى مشترك ، فلم يلتقيا بعدها إلا على ميعاد . . .





بأى أرض تموت؟!

قالت أم السعد لأختها جليلة وقد قصدت إليها تزورها فى دار زوجها بالشرابشيين :

– هنيئًا لك يا جليلة! فقد والله انشرح صدرى لمرأى دارك هذه فى رونقها الجديد؛ إنها لتبدو للعين كأنها دار جديدة غير تلك الدار التى كانت فى ذلك الزقاق الخرب كجحر الضب، فإنها اليوم لتشرف على الطريق السلطانى، قد تخللها الهواء والنور من جميع جهاتها وانبسط بين يديها الفضاء، فلولا أننى دخلت حجراتها ورأيت ما فيها من الأثاث ورأيتك أنت، لحسبتها دارًا غير دارك تلك!

قالت جليلة باسمة :

– كذلك يقول زوجى، أما أنا فلم أخرج إلى الطريق منذ خرجتْ دارنا هذه إلى الطريق وانهدم ما بين يديها من دور الناس؛ فلم أر منها إلا ما كنت أرى وهى فى ذلك الزقاق،

ولكننى أرى ما بين يديها من الفضاء حتى أطلُّ من شرفتها، وأرى هؤلاء الفَعَلَة والبنائين يبنون جامع السلطان. . .

قالت أم السعد وقد نهضت إلى الشرفة لترى ما تصف أختها:

- والله لقد اختار السلطان الغورى فأحسن الاختيار حين خط مسجده ومدرسته فى هذا الحى، واختار الله لك حين هدم ما بين يدى هذه الدار من بيوت الناس فأخرجك من ذلك الزقاق الخرب إلى الطريق السلطانى. . .

قالت جليلة وفى صوتها رقة عطف:

- اسكتى بالله يا أم السعد ولا تثيرى أشجانى؛ فهل كان ما كان من ذلك إلا على حساب البائسين من أهل ذلك الزقاق الذين انهدمت دورهم فأصبحوا ولا مأوى لهم، ليتهيأ للسلطان أن يوسع مدرسته ومسجده ويشرع هذا الطريق! وماذا ينفعه المسجد والمدرسة أو يدفعان عنه من غضب الله وقد شرد الناس وأخرب بيوتهم وفضحهم وكانوا فى ستر وتصوُّن! . . . ثم ماذا أجدى علينا ذلك إلا الحسدَ وعيون الناس، ثم هذه الضريبة فرضها علينا علىّ بن أبى الجود؛ لأن دارنا قد برزت من جحرها إلى الطريق السلطانى، وكنا والله من ذلك الجحر فى نعمة!

قالت أم السعد منكرة:

- يا أخيَّة؛ إنك لا تشكرين النعمة أبدًا، ولو قد رأيت دارك اليوم حين يترامى إليها النظر من بعيد مجصصة مبيضة كدور بعض الأمراء لعرفتِ قدر النعمة وشكرت.

قالت أختها:

- مبيضة مجصصة يترامى إليها النظر من بعيد؟ . . . ليتك تعرفين مقدار ما تكلفنا من الجهد والمال في تجصيصها وتبييض وجهها طاعة لأمر السلطان؛ لقد أنفقنا في ذلك يا أختي ما لا طاقة لنا به، ولو كان الأمر بيدنا ما جصصنا ولا بيضنا ولكان عندنا اليوم ما ننفق . . . وتلك الأنظار التي تترامى إلى دارنا من بعيد قد حرَّمتْ عليَّ أن أقف إلى هذه الشرفة برهة لأتروَّح مما بي من الهم . . . ادخلي يا أم السعد، إن عينين تنظران نحونا وأخاف أن يرانا أحد في الشرفة أو يعرف زوجي، وإنه كما تعلمين لغيور . . .

وكان البناؤون دائبين في عملهم، والفَعَلَة طالعين ونازلين على تلك المصاعد الخشبية المشدودة إلى الحيطان، يحملون الآجر والحجر وهم يغنون أغنياتهم، يستعينون بالغناء على ما يجدون من عناء العمل الشاق، وقد ارتفع البناء واستطال وبدا المسجد لعيني من يراه -وإن لم يتم تمامه بعد- آيةً من آيات الغوري يجري حديثها على كل لسان . . .

قالت أم السعد:

- فكيف صنعتْ خالتى أم أيوب وقد انهدم نصف دارها وانكشف سائر ما فيها لعيون الناس؟

قالت جليلة:

- اسكتى بالله يا أختى فإننى أريد أن أنسى... لم يبقَ لنا بعد خالتى أم أيوب جارة ولا جار... وقد ذهبت أم أيوب تحمل على رأسها أنقاض دارها وتجر وراءها سلسلة من الأحزان، فلم يبقَ منها إلا ذكرى!...

قالت أم السعد:

- فأين ذهبتْ؟...

قالت جليلة وقد برقت فى عينيها دمعة:

- ذهبت إلى الله وهى تتمتم بدعاء على السلطان لم تسمعه أذنان، فإن على بن أبى الجود لم يدعها لما نابها وقد انهدم نصف دارها وانكشف سترها للناس، فجاء عامله ليجبى منها الضريبة السلطانية؛ ومن أين لها أن تدفع الضريبة وهى لا تملك ما تتبلغ به؟... ولكن الجابى لم يرفق بها وإنها لعجوز كجدته، فشد وثاقها وساقها إلى الحبس، فلم يطلقها إلا حين استوفى الضريبة ببيع ما بقى من الدار؛ وخرجت المسكينة من محبسها لترى نصف دارها فى الطريق ونصفها فى يد مالك جديد... واختار الله لها وستر فانتقلت إلى الدار

الآخرة . . . وعلى شفتيها دعاء لم تسمعه أذنان! مصَّت أم السعد شفتيها محزونة وهى تقوم :

– مسكينة ! اللهم احفظنا يا رب!

وسُمع نقر على الباب ، فخفت إليه جليلة لتفتحه فتستقبل زوجها عز الدين ؛ وكان عز الدين هذا تاجراً يبيع طرائف الثياب وألوان القز ، وقد اتخذ متجره فى سوق مرجوش على بعد قريب من داره ، ولم يكن يدخر مالاً ، فلولا أنه لا ولد له ولا يعول إلا زوجه لضاق به العيش ، على أنه لم يُرَ قط إلا ضاحك السن وعلى وجهه مسحة الرضا والقناعة ؛ ولكنه فى هذا المساء قد عاد إلى داره عابسًا مطبق الشفتين ، فحيا وجلس بين زوجته وأختها ، فلولا حق هذا الضيفة عليه لظل مطبق الشفتين فى مجلسه لا ينبس بحرف .

قالت أم السعد وقد أنكرت هيئته تريد أن تحمله على الحديث :

– هنيئًا لك الدار والجار يا عز الدين!

فابتسم عز الدين بعد عبوس وقال :

– أما الدار فليست جديدة علىّ ، وأما الجار فلست أدرى ما تعنين يا أم السعد ؛ إلا أن يكون قصدك هذا المسجد الحرام!

وضحك، وضحكت زوجه، وابتسمت أم السعد وهى تقول:

- المسجد الحرام؟

قال ولم يزل يضحك:

- نعم، إنه المسجد الحرام من دون مساجد المسلمين جميعًا؛ فقد أسس على الظلم، والغضب، ونهب أموال الناس، وترويع الآمنين؛ وماذا يكون الحرام إلا ذلك؟

قالت أم السعد:

- إن لسانك لا يطاق يا عز الدين؛ أفلا تشكر للسلطان أن بنى مسجده ومدرسته هذين لتكون له جارًا؟

قال:

- والله لقد كان جوار أم أيوب ومختصٍّ الطواشى أحبَّ إلىَّ من جوار هذا السلطان؛ أما أم أيوب فقد أخرب دارها وتركها تلفظ آخر أنفاسها على الطريق؛ وأما مختص الطواشى فقد أعجب السلطان مسجدهُ الصغير الذى بناه بالمال الحلال ليكون فيه مدفنه حين يموت؛ فاغتصبه وأوسعه مما حوله من بيوت الناس وبناه مسجدًا باسمه، وشق لنفسه فيه ضريحًا يدفن فيه إذا حان الأجل، مكان الضريح الذى كان يريده

مختص الطواشي لرمّته، كأنما حسده السلطان على مكانه ميتًا، وكان خليقًا أن يحسده على مكانته في الآخرة لا في القبر!.

ومصّت أم السعد شفتيها ثانية وهى تقول:

- مسكين! حتى على القبر!

قال عز الدين:

- ليس مسكينًا، فقد نفاه السلطان إلى مكة، فلعله أن يجد -حين يموت- في تلك الأرض الطاهرة مدفنًا يضم رفاته خيراً من مدفنه هنا في أرض الفساد والرجس!

ثم أردف ضاحكًا:

- وقد سمعته بأذنيّ وهو في طريقه إلى منفاه، يدعو الله ألا يجعل للغوري في بطنها مدفنًا يزار، ولعل الله أن يستجيب له؛ وما تدري نفس بأي أرض تموت!

قالت امرأته وهى تهز كتفها:

- وأين يُدفن الموتى إلا في بطن الأرض، أيخطفه طير الجو أم تبتلعه سمكة في جوف البحر؟

قال عز الدين جادًا:

- اسكتي يا جليلة؛ إنها دعوة مظلوم!

وسكت برهة وهو يحدق بعينيه مفكرًا، ثم أطرق وهو يهمس وقد بدا في وجهه الهم:

- كم يدعو مظلومون ولا يستجيب الله!

وسمعته زوجته فصاحت به منكرة:

- ماذا قلتَ يا عز الدين؟

ثم استدركت وقالت بلطف:

- ماذا بك اليوم؟ فإن على وجهك سحابة هَمٍّ؛ أليس يسرك أن ترى أختى؟

وخجل عز الدين فرفع رأسه وأقبل على أم السعد باسمًا وهو يقول مازحًا فى تكلف:

- ليتك يا أم السعد ذات ولد!

وكانت أم السعد عقيمًا كأختها، فقالت متظاهرة بالرضا:

- وما حاجتى إلى الولد وإنه لمشغلة وهَمٌّ، وما رأيت أمًّا شاكرة...

قال وقد زادت ابتسامته:

- نعم، ولكن الناس جميعًا يطلبون السعد...

قالت وقد فهمت ما يعنيه وغلبها الضحك:

- ولكن السعد ما نحن فيه يا عز الدين، ولو كانت الأسماء على مسمياتها . . .

فقاطعته زوجته قائلة :

- لو كانت الأسماء على مسمياتها لكنتَ عزاً للدين، أو لكان اسمك اليوم عباسًا !

قال الرجل ضاحكًا :

- نعم، ولكن اسم على بن أبى الجود : خراب الديار !

وأمسكت المرأتان عما كانتا فيه من الحديث حين جاء ذكر على بن أبى الجود، وأوشكتا معًا أن تعرفا لماذا كان عز الدين اليوم على غير ما يعهدان فيه من البشر والطلاقة ؛ فما أذكره الساعة علىّ بن أبى الجود إلا شر عظيم. وأى الناس فى القاهرة قد سلم من عسف على بن أبى الجود، حتى لكأنه شريك كل ذى مال فى ماله، يقاسمه ما يملك باسم السلطان، ثم يعود فيقاسمه ما بقى، ثم يعود . . . ، ويسمى ذلك ضرائب لبيت المال وما هو إلا السلب والنهب والطمع فيما فى أيدى الناس ! .

قالت زوجته مشفقة :

- فما لك ولعلى بن أبى الجود اليوم؟

قال :

- بل اسألى : ما له ولى ، فلا يزال عماله يطلبوننى بما لا حق لهم فيه حتى لقد أوشك متجرى أن يخرب كما خربت متاجر ؛ وكم يدعو الله مظلومون ولا يستجاب لهم!

قالت زوجته مستنكرة :

- أف! الفقر ولا الكفر يا عز الدين ؛ إن الله يمهل ولا يهمل!

ثم نهضت لتهيىء العشاء!

وقال الرجل وهو يدير عينيه بين ألوان الطعام :

- هلا بعثت يا جليلة فاشتريت بعض ما يبيع مماليك السلطان عند باب القلعة من زبادى اللحم ورقائق الخبز التى تفضُل عن حاجتهم من أرزاق السلطان، احتفالاً بزيارة أم السعد؟

قالت زوجته :

- وهل حسبتَ يا عز الدين أن السلطان فى هذه الأيام يصرف لمماليك من الرزق زبادى لحم أو رقائق خبز تفضل عن حاجتهم فيبيعونها؟ هيهات ؛ قد كان ذلك فى عهد مضى ؛ فإن مماليك السلطان اليوم ليأكلون أرزاق الناس!





شعب وحكومة

كان بدر الدين بن مزهر الأنصارى سيدًا من سادات المصريين وذوى الجاه فيهم، وقد تولى -كما تولى آباؤه من قبله- عدة وظائف سنية لعديد من السلاطين، فكان ناظر الخاصة، ومحتسبًا، وكاتب سر؛ وهى وظائف تدانى مرتبة الوزارة فى نظام الحكومة لذلك العهد؛ وكانت تربطه ببعض أمراء المماليك صلاتٌ من المصاهرة جعلته قريب المنزلة من ذوى السلطان؛ وكان إلى كل ذلك مليحًا وسيمًا، عريق النسب، كثير المال والنشب، عربى الوجه واليد واللسان؛ فبلغ داره فى بركة الرطلى ملتقى الصفوة من الرؤساء والأعيان وأمراء المماليك وأصحاب الوظائف وقادة الجند.

وكانت الإمبراطورية المصرية لذلك العهد مبسوطة الرقعة بين بلاد الروم وصحراء ليبيا شرقًا وغربًا، ومن حدود اليمن على ساحل بحر الهند إلى سواحل بحر الروم جنوبًا وشمالاً؛

وكانت تنعم باستقلال تام وحرية كاملة ، فليس لدولة من دول الشرق أو الغرب عليها سيادة أو سلطان ، فهى سيدة نفسها وسيدة ما يليها من البلاد ، لا تصدر ولا ترد إلا عن رأى حكومتها المركزية فى القاهرة . وقد تعاور عرشها طوائفُ من الملوك والسلاطين ، فيهم الترك من بنى طولون وبنى الإخشيد ، وفيهم العرب من خلفاء الفاطميين ، وفيهم الكرد من بنى أيوب ، وفيهم هؤلاء المماليك . ولكن هذه الإمبراطورية -على اختلاف أجناس الأسر الملوكية التى تعاقبت على عرشها- لم تدخل تحت سيادة دولة أجنبية قط ، منذ استقل بها عن الدولة العباسية أحمد بن طولون ، فى القرن الثالث . . .

على أن المصريين فى هذا العهد الذى نقصُّ من تاريخه ، لم يكونوا راضين عن نظام حكومة الجراكسة رضًا يفرض عليهم لها الطاعة والولاء ؛ فقد ضاقوا بما يحملون من مظالم المماليك ضيقًا شديدًا ؛ فإنهم ليتمنون -لو استطاعوا- أن يخلعوا عن أعناقهم إصر هؤلاء السلاطين الذين يتوارثون عرش مصر سلطانًا بعد سلطان منذ ثلاثة قرون أو قريب من ذلك ، فلم يعدلوا فى الحكومة ، ولم يقسموا بالسوية ، ولم يحققوا للشعب معنى من معانى الحرية والإخاء أو يهيئوا له عيشة ناعمة رخية ، وإنما كان كل همهم أن ينعموا بحياة مترفة قد

بلغت الغاية من البذخ والرفاهية، والشعب يعانى ما يعانى من ألوان الحرمان والمذلة، ويقاسى آلام المرض والعرى والجوع. بلى، قد حفظ أولئك السلاطين لمصر هيبتها بين دول الشرق والغرب، وصانوا لها حريتها واستقلالها؛ ولكن ما جدوى الحرية والاستقلال إذا لم يكن أفراد الشعب أحراراً مستقلين فى ذات أنفسهم لهم رأى واعتبار ومشاركة فى الحكم، ولهم حق المحكومين على الحكام فى أن يهيئوا لهم حياة إنسانية كريمة؟ . . .

ما جدوى الحرية والاستقلال إذا لم يحس كل فرد فى الدولة المستقلة الحرة أنه مستقل حر؟

كانت هذه الخواطر تلمّ بقلوب المصريين، فيسرونها حيناً ويجهرون بها حيناً آخر، ولم تكن عصائب فتيان الزعر، أو غارات الأعراب المتوالية على حدود المدن، إلا تعبيراً صامتاً عن تلك العاطفة التى تغلى بها نفوس المصريين على اختلاف عناصرهم كما يغلى الماء فى القدر فيترشش على حافلة الوعاء!

وكانت الأعوام التى تلت عهد قايتباى -بما ثار فيها من الفتن، وما سُفك من الدم، وما كان بين الأمراء من الحرب- سبباً إلى انتعاش آمال المصريين فى حكومة مصرية خالصة

تنقذهم من جور هذه الأسرة المالكة التى لا يجمعها نسب ولا تربطها أبوة وليس بينها إلا آصرة المملوكية التى نزحت بهم راضين أو كارهين من بلادهم وراء جبال القبج ليتوارثوا عرش مصر!

وكان السلطان الغورى سعيداً بما بلغ من آماله حين رأى نفسه سلطاناً على العرش وقد تفانى الأمراء العظام فأمن غدرتهم؛ ولكن المصريين -على ما بهم من الضيق والضجر- كانوا أسعد منه بهذه الحال، فقد انكسرت شوكة الجركس وانحلت عروتهم فلم يبقَ منهم ذو قوة إلا ذلك السلطان الشيخ وإنه لهامة اليوم أو غد! . . .

وفى دار بدر الدين بن مزهر فى بركة الرطلى، كانت تتوالى اجتماعات المصريين ليدبروا أمرهم، وكان يشهد اجتماعهم أحياناً أمراء منت المماليك الطامحين، أو الساخين، يأملون أن يكون لهم نصيب من غنائم المعركة حين تنشب المعركة، أو يطمعون فى إدراك ثأر . . . ، لا يكاد يدركون أنهم يعينون على أنفسهم حين يعينون على إخوانهم من الجركس!

كان ذلك فى القاهرة، أما فى مضارب الأعراب بين الشرقية وقليوب فكانت تتوالى اجتماعات أخرى فى دار ابن أبى الشوارب، يشهدها زعماء القبائل العربية الضاربة فى

الشرقية والبحيرة وبوادى الصعيد، وإن لهم -كأولئك- أصدقاءهم من أمراء المماليك!

والغورى مشغول عن كل أولئك بما يجمع من المال بالمصادرة والتعذيب وكبس البيوت، وبما يحشد من المماليك الجلبان فى طباق القلعة، وبما اجتمع له من أسباب الرفاهية والنعمة التى لم ينعم بمثلها سلطان من سلاطين الجركس، حتى كانت أدوات المطبخ تصاغ من خالص الذهب والفضة. . .

والأمير طومان باى يرى ويسمع ما يجرى من الأحداث والأحاديث فى المدينة، ويشارك فيما يتمتع به السلطان من ألوان النعيم فى قصر القلعة، ولكن له مع ذلك همومه الخاصة قد أقفل عليها صدره وأمسك لسانه فلم يطلع على غيبه أحد؛ فهو موزع القلب بين أسباب الهوى وتقاليد الإمارة وفضول الشباب. . .

إنه ليود أن يجلس إلى عمه فيتحدث إليه حديثًا صريحًا ويفضى بما يحتقب من أسرار، لعله أن يطأطئ رأسه فيرى تلك الهاوية تحت قدميه، ولكن من أين له؟ إنه متهم عند عمه بحب شهد دار بنت أقبردى فلن يستمع إليه، وهل يفرغ العاشق لغير حديث الهوى والشباب؟ هل يحسن شيئًا من أسباب السياسة

وتدبير شئون الملك؟ وإن العشق لمذلة وهوان؛ كذلك يراه عمه السلطان! .

وابتسم طومان باى ساخراً على ما به من الألم والضيق؛ أفيمتنع أن يكون الفتى عاشقًا وطالب مجد؟ وماذا يمنع؟ إن العاشق ليرقى أحيانًا إلى أسباب المجد على معراج من شعاع عينى معشوقته؛ بل إنه ليمتنع أن يعشق الفتى النبيل ولا يطلب أسباب العلاء والمجد؛ ولكن من أين للغورى الشيخ أن يدرك هذه الحقيقة؟ من أين له وهو أبو جان سكر التى يريد أن تكون هى لا غيرها معشوقة طومان باى؟

وابتسم طومان باى ابتسامة أخرى ساخرة. . . ولكن من نفسه؛ إنه هو الذى رضى لنفسه أن يكون من عمه بهذا المكان؛ لو شاء لأبى وأسرع عجلانَ إلى بيت صاحبته شهد دار ليقول لها:

- إنك أنت وحدك لى ولو غضب السلطان!

ما هذا؟ . . . فيم يفكر الساعة وإن الأمر لأجَلّ وأخطر من أن يشغل عنه بمثل هذه الخواطر؛ إن لحديث الحب ساعة أخرى. . . أما الآن. . . أما الآن فإن عليه فرضًا آخر، ليدرك هذا العرش قبل أن ينهار. . .

***

- عَمى!

- ماذا يا طومان؟

- إن لى إليك حديثًا، فهلا فسحت صدرك لى؟

- حديث جد يا طومان أم حديث دعابة؟

عبس الفتى وهَمَّ أن يجيب جوابه، ثم عض على شفته واستدرك قائلاً فى وقار:

- حديث جد كله يا مولاى؛ فهل عرفتَ يا عم ما يتحدث به الناس فى القاهرة عن على بن أبى الجود، ذلك السوقى الذى أسلمتَ إليه الزمام يعيث باسمك فى بيوت الناس. . .

- لا تزال يا طومان تقسو على ذلك المصرى الذى يخلص فى خدمتنا ما لا يخلص أبناء الجركس! فهل علمتَ أننى إنما احتظيته وأدنيته لأتألف به من وراءه من المصريين؟ . . .

- علمت؛ ولكنه سوقى لا يعرف قدر ما أنعمتَ به عليه يا مولاى؛ فهو لا يرى هذه الوظيفة التى أسندتها إليه إلا سببًا إلى البغى والتسلط والبطش، ليجمع لنفسه ما يجمع من المال؛ فليس يرى نفسه بين المصريين مصرياً منهم، بل سيداً قد سُلط على عبيد لا تُساس إلا بالسوط؛ كأن لم يكن يومًا بياع الحلواء والمشبك عند حمام شيخو. . . بل لعله يزعم أن هذه الوظيفة

التى يتولاها من قبلك هى من بعض ديونه عليك، وإن له عليك ديونًا . . . فيما يزعم لنفسه، وفيما يُسر إلى أصدقائه من الحديث . . .

قال الغورى غاضبًا :

- ماذا تقول يا طومان؟ . . .

أجاب طومان هادئًا :

- ذلك بعض ما سمعتُ من حديث الناس فى المدينة؛ وقد أطلقتَ يده يا مولاى فيما يفرض على الناس من الضرائب وما يحصل، فإن له على كل تاجر ضريبة الجمعة، وضريبة الشهر، وضريبة السنة، يقتضى كل أولئك قبل موعده، كأن له على الناس ديونًا أخرى كديونه عليك؛ حتى أوشكت أن تخرب أسواق القاهرة وتخلو من الباعة والمشترين؛ فاحسب يا مولاى ما يدخل خزانتك من هذا كله وما يحتجزه لنفسه؛ إن له المغنم من ذلك كله وعليك وحدك دُعاء الناس!

قال السلطان منزعجًا :

- يدعون علىَّ؟ وماذا صنعت بهم، وإنما من أجل حمايتهم من العدو الطارق أجمع هذا المال؟ أفلم يأتهم نبأ ابن عثمان الذى يتربص بنا على الحدود؟ أم لا يعرفون ما نبذل من المال لحماية سواحل بحر الهند من غارات لصوص البحر من

البنادقة والفرنجة؛ أم لم يشهدوا ما أنشأنا فى القاهرة من المساجد والمدارس، وما بنينا على الثغور من القلاع والبروج؛ أم لم يروا هذه المنشآت التى جملنا بها القاهرة حتى صارت زينة الحواضر فى الدنيا وقصدها القصَّاد من كل فجاج الأرض ليروا بأعينهم ثم يعودوا إلى بلادهم فيتحدثوا بما رأوا ليكبتوا الأعداء ويفلوا عزائمهم فلا يستخفهم الطمع فينا؛ أم لم يشهدوا ما حشدنا من المماليك فى طباق القلعة ليكون لمصر جيش قاهر لا يثبت له عدو فى الهجوم ولا فى الدفاع. . . فمن أين لنا أن نقوم بذلك كله إلا من المال الذى يدفعه ذلك الشعب؟ .

هز طومان رأسه موافقًا، ثم قال:

- كل ذلك قد رآه المصريون بأعينهم وعرفوه وشهدوا آثاره، ولكنهم يطلبون الغذاء والكساء والمأوى والأمان يا مولاى، فلا عليهم إن أنكرتْ أعينهم كل ما ترى، لأنهم جياع عراة لا مأوى لهم ولا أمان من بطش عمال السلطان؛ ولقد كان فى طوقهم أن يشبعوا من جوع ويكتسوا من عرى ويأووا إلى دار الطمأنينة والسلام، لو أن عمال السلطان اقتصروا فيما يجبون من الضرائب على ما يدفعون إلى خزانة السلطان؛ ولكن عمال السلطان لا يقنعون، فإن الذهب والفضة ليملآن

حجرات بيوتهم مما جمعوا بالقهر والبطش والتعذيب باسم السلطان! فهل جاءك يا مولاى أن على بن أبى الجود اليوم يملك مئات الآلاف يختزنها فى القدور فلو شاء لاشترى العرش بماله وعاش سلطانًا، وكان -لولاك- حتى اليوم سوقيًا يبيع الحلواء والمشبك فى دكانه عند حمام شيخو؛ وهو مع ذلك لا يستحيى أن يتحدث مباهيًا بأن له دينًا على السلطان!

قال السلطان مغيظًا:

- ماذا قلت؟ علىُّ بن أبى الجود يملك مئات الألوف يختزنها فى القدور؟

- نعم يا مولاى، ولو شئتَ لرد إلى الناس ما اغتال من أموالهم!

دار رأس الغورى فنسى كل ما سمع من حديث طومان فلم يبقَ منه فى أذنيه إلا أن عامله على بن أبى الجود يملك مئات الألوف يختزنها فى قدور، فسالت نفسه طمعًا وأرسل يدعوه إليه.

ومثل ابن أبى الجود بين يديه، فسأله أن يدفع إلى خزانة السلطان ثلاثمائة ألف دينار من ماله!

قال على بن أبى الجود معتذرًا:

- يا مولاى . . .

قال الغورى غاضبًا :

- هو ما قلت ؛ فإما دفعتها وإما شنقتك على باب زويلة !

***

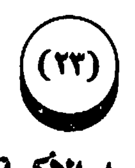
وسِيْقَ على بن أبى الجود إلى السجن حتى يفى بما فرض عليه السلطان ؛ وبيعت وظيفته بمال ، وتعهد مشتريها أن يكون أكثر وفاء من سلفه ، فيحمل إلى خزانة السلطان ضعف ما كان يجبيه على بن أبى الجود ؛ وزاد دخل الخزانة السلطانية بما قبض السلطان من ثمن الوظيفة ، وبما تضاعف على الشعب من الضرائب !

وحين كانت جثة على بن أبى الجود معلقة على باب زويلة ، كان خلفه يجوس خلال الأسواق فى طائفة من جنده يجبى من التجار ضريبة جديدة باسم السلطان ليفى له بما تعهد به !

وقال طومان باى لنفسه أسفًا :

- آذنتْ والله هذه الدولة بالانحلال ؛ كأننى لم أتحدث إلى السلطان هذا الحديث إلا لأغريه بعامله وأزيده هو نفسه ضراوة وجشعًا إلى المال ! . . .

●●●



وراء الأكمة

قال بدر الدين بن مزهر لصديقه الأمير قايت الرجبى كبير أمناء السلطان الغورى :

- والله إنك لتحمل أوزار هذا السلطان يا أمير، فما كان لولا معونتك شيئًا يؤبه له؛ وإنى لأعجب كيف رضيتَ وأنت بهذه المنزلة أن يتسلطن هذا الشيخ وقد كنت أحقّ بها!

قال قايت :

- وهل كنتُ يا صديقى أقدِّر أن يطيش الغورى هذا الطيش ويغلبه هواه على عقله وقد جاوز الشباب؛ لقد كان أزهد الأمراء فى العرش والجاه والسلطان على ما بدا لى؛ فما أدرى والله كيف استبدل بتلك الرقة غلظة، وبذلك الزهد شرهًا وضراوة واستكلابًا على جمع المال!

قال بدر الدين :

- اعتذر بما شئت فإن على رأسك وزره!

قال قايت وقد أطرق أسفًا :

- قد كان ما كان يا صديقى فلا سبيل إلى الرجوع بعد!

قال فتى من فتيان المماليك قد اتخذ مجلسه إلى جانب بدر الدين :

- بل إن بين يديك السبيل يا أمير، فلو شئت لبلغت. . .

قال كبير الأمناء باسمًا :

- كذلك تزعم أنت يا خشقدم؛ فمن أين لى المال أكسب به طاعة الجند ورضا الأمراء؟ وكيف أتوقى طعنة فى الظهر من يد سيباى نائب الشام، أو خاير بن ملباى حاجب الحجاب، أو جان بردى الغزالى؛ وإن كلاً منهم ليمد عينيه إلى العرش على حذر وتربُّص يريد أن تسنح له فرصة؛ ثم من أين لى أن آمن عيون طومان باى، تلك التى تنفذ إلى ضمائر الناس فلا يكاد يخفى عليه سر؟

قال خشقدم حانقًا :

- حتى أنت يا أمير تخشى عيون ذلك الفتى؟ لقد صار ذلك الغلام شيئًا. . .

قال بدر الدين بن مزهر :

- خلِّ عنك يا خشقدم! . . .

ثم التفت إلى قايت وأردف قائلاً وفى لهجته صرامة وحزم:

- اسمع يا أمير، إن كان ذلك كل ما تخشاه فقد كفيتك هذه المؤونة؛ أما مال البيعة فعلىَّ أن أبذل لك ما تشاء حتى يرضى الجند والأمراء، وأما سيباى وخاير بك وجان بردى الغزالى فأرجو ألا يشغلك من أمرهم شىء، بل لعلهم أن يكونوا أطوع لك وأحرص على نفاذ أمرك؛ فهم اليوم على نية العصيان والثورة، وسيلتقون فى الشام على خطة قد أحكم تدبيرها؛ فإذا رضيت عن تدبيرى فستخرج إليهم على رأس حملة تأديبية، ثم تعود سلطانًا كما عاد العادل طومان باى، وينتهى أمر ذلك السلطان الشيخ؛ فقد كفاه ما تمتع به من عز السلطنة هذه السنين، وكفى الشعب ما نال من أذاه وشحه وحرصه على جمع المال. . .

قال خشقدم:

- وأما طومان باى. . .

فالتفت إليه بدر الدين مغضبًا وهو يقول:

- دعنى وما أريد يا خشقدم!

ثم عاد إلى قايت يتم حديثه:

- أما طومان باى فإنه فى شغل بنفسه وبينت أقبردى عن كل ما هنالك، ولعله فى عماية هواه أن يكون لك عينًا على عمه ذاك الذى يريد أن يحول بينه وبين شهد دار ليزفه كارهًا إلى ابنته جان سكر؛ ولعل خشقدم الرومى أقدر على تدبير هذا الجانب من الخطة، فإن له وسائله فى قصر السلطان، وبينه وبين طومان باى أصرة!

ثم مال إلى خشقدم يتحبب إليه باسمًا وهو يقول:

- أليس كذلك أيها الرومى الفتى؟

قال خشقدم وعلى وجهه مسحة الرضا:

- بلى يا سيدى، وسيكون صهرى جانى باى الأستادار عونًا لى فى كثير من الأمر، فإنه ليبغض ذلك الفتى المتغطرس كأن بينهما ثأرًا لا يغسله إلا الدم!

***

كان يوم الخميس الثامن من رجب سنة ٩٠٩ يومًا من أيام القاهرة المشهودة، فقد ازينت المدينة كلها بأمر السلطان احتفالاً بدوران المحمل، وكانت هذه العادة قد بطلت منذ بضع وثلاثين سنة حتى نسيها الناس أو كادوا، ولم يبقَ منها إلا ذكريات على ألسنة العجائز والشيوخ يستمع إليها الشباب فى

لهفة وشوق. . . فما كاد الغورى يأمر أمره بالرجوع إلى تلك العادة حتى شمل مصر كلها فرح غامر، فلم يبقَ فى المدينة على سعتها عجوز ولا شيخ، ولا فتاة ولا فتى، إلا تهيأ لاستقبال ذلك اليوم والاشتراك فى ذلك المهرجان؛ فازدحم النساء والفتيات على سطوح الدور وراء أستار النوافذ، وزغاريدهن تتجاوب أصداء من شرق المدينة إلى غربها؛ أما الرجال شيوخًا وفتيانًا فقد احتشدوا على جانبى الطريق كتلاً متراصة، وامتلأت بهم الدكاكين وشرفات الدور، حتى استؤجرت أسطح البيوت والمصاطب والشرفات بالثمن الربيح، وانثالت وفود المصريين من الخانكاه، وبلبيس، ومن قريب ومن بعيد، لتشهد ذلك اليوم الفريد، وبلغ الزحام غايته كأن المدينة كلها فى عرس. على أن ساحة الرملة -حيث يطل السلطان من شرفته بالقلعة على الرَّماحة وهم يعرضون فنونهم ويعتركون بالرماح بين يديه فى براعة وخفة -كانت أشد ميادين القاهرة زحامًا وأكثرها اكتظاظًا بالخلق. وفى انتظار ساعة العرض احتشد العامة راقصين يغنون أغنيتهم التى صنعوها احتفالاً بهذا اليوم، والنساء من وراء الأستار يغنين معهم:

بع اللحاف والطراحة

حتى أرى ذى الرماحة

بع لى لحافى ذا المخمل

حتى أرى شكل المحمل!

وفى ذلك اليوم كانت المدينة تموج فيه بالخلائق قد اشتغل كل منهم بما يرى وما يسمع عن نفسه وحاجة أهله، كان فتى وفتاة يجلسان وراء شرفة من تلك الشرفات التى تطل على موضع قريب من ذلك الميدان، قد شغلهما أمر ذو بال عن كل ما اشتغل به الناس من أسباب اللهو والفرجة. . . كأنما قد شبعا من هذا المنظر وما شاهداه قبلها قط ولا رأيا مثله فى الأحلام! .

قالت الفتاة:

- أعرف هذا يا طومان، وما دعوتك إلى مجلسى فى هذا اليوم لأحاول أمراً يفسد ما بينك وبين عمك السلطان، ولستُ من الحمق بحيث آمل أملاً لا سبيل إليه . . . ولكن . . .

وغصت بكلماتها فأمسكت، ولمعت فى عينيها دمعة. ودنا منها طومان وقد غلبته أشجانه فمس ظهر كفها براحته وهو يقول:

- بعض هذا يا شهد دار؛ إنى لأعلم ما فى نفسك وإن حاولتِ كتمانه، وأحسبك تعلمين ما فى نفسى . . .

قالت وقد مالت بوجهها إلى ناحية لتستر الدمعة التى تدحرجت على وجنتيها :

- ليس هذا ما أريده يا طومان، وإنما دعوتك لأفضى إليك بسر انكشف لى من أمر خاير بن ملباى . . .

ثاب طومان إلى نفسه سريعًا وقال فى لهفة :

- خاير بن ملباى!

- نعم يا طومان، وإنك لتعلم ما بينه وبين مصرباى، ومنها وقفت على بعض سره؛ فقد كانت تتحدث إلىّ حديثًا عن خاير فانطلق لسانها ببعض ما كانت تريد أن تخفى، ثم استدركت فصمتت، وعلمتُ من وقتئذ أن بينها وبين خاير سرًا أعمق مما كنت أحسب، وأيقنتُ أنها شريكته فى ذلك التدبير . . . قال طومان وقد بدا القلق واللهفة فى لحن صوته ونظرة عينيه :

- أى تدبير تعنين يا شهد دار؟

قالت :

- إن خاير يا طومان يشارك فى أمر خطير من أمور السياسة لست أعرف ما يكون، ولكن صلة ما بينه وبين بدر الدين بن مزهر وسيباى نائب الشام؛ وما يجتمع الثلاثة على أمر هين؛

ومن يدرى؟ لعل خاير يأمل أملاً يتقرب به إلى قلب مصرباى ويكون أدنى إليها منزلة!

هزّ طومان رأسه وزم شفتيه قائلاً:

- لست أفهم ما تعنين يا شهد دار؛ وما شأن مصرباى، وسيباى، وبدر الدين بن مزهر؟

فابتسمت شهد دار وقالت:

- لست أدرى، وإن مصرباى لأعمق غوراً وأحرص على كتمان سرها؛ وإن لها غداً مأمولاً حدثها به أبو النجم الرمّال ذات يوم منذ سنين، فلم تزل منذ ذلك اليوم ترقب مطالع النجوم وتنتظر كل مساء مشرق الصبح... فإذا شئت يا طومان أن تقطع ما بينها وبين خاير بن ملباى وتحول بينها وبين ما تدبر من كيد، فاخطبها لعمّك الشيخ.. أو لا، فدعها وما يداعب نفسها من أمانى ولا تسألنى عن شأنها وشأن سيباى وبدر الدين بن مزهر!

قال طومان منكراً:

- أتمزحين أم تجدّين يا شهد دار؛ فإنى لأسمع منك اليوم ما لا أكاد أفهم؟!

قالت:

- بل هو الجد كل الجد يا طومان!

قال:

- أفتقترحين جادة أن أخطب مصرباى لعمى الشيخ؟

قالت ضاحكة:

- نعم، وماذا يمنع؟ وهل تحسبها تأبى أن تكون سلطانة ولو كان سلطانها شيخًا قد حطم السبعين وهى شابة لم تبلغ الثلاثين؟ وهل يأبى عمك؟

قال طومان ولم يزل فى حيرته:

- ولكنها لم تزل زوجة الظاهر قنصوه، فهو زوجها وإن كان سجينًا فى برج الإسكندرية!

قالت:

- آه يا طومان! لقد فكرتَ فيما لم تفكر فيه مصرباى وخاير، حين تواثقا على أمل مشترك يرقبان له مطالع النجوم وينتظران كل مساء مشرق الصبح، كما قال أبو النجم الرمَّال ذات يوم لمصرباى!

قال طومان:

- آه! أحسبنى قد فهمت ما تعنين يا شهد دار...

قالت شهد دار:

- نعم، إنها لتطمع أن تعود سلطانة على العرش، وإن خاير بن ملباى ليطمع مثلها. . .

قال طومان منكرًا:

- بالله إلا ما أخبرتنى يا شهد دار، أتتحدثين جادة وعن بينة؟ أتظنين أن يبلغ خاير يومًا هذه المنزلة؟

قالت وقد تجهم وجهها:

- إلا يكن خاير يطمع فإن مصرباى خليقة بأن تُطمعه؛ وإلا فما شأن خاير بسيباى، وبدر الدين بن مزهر؟ وما ذلك السر العميق الذى تحرص مصرباى على كتمانه فلم تكد تلفظه شفتاها حتى أمسكتْ؟

قال طومان وقد بدا فى وجهه الغضب:

- ويل لذلك الخائن! لابد أن يدرك عاقبة تدبيره ويلقى جزاء كفره بنعمة السلطان!

قالت شهد دار منزعجة:

- ماذا نويت يا طومان؟ هل هو إلا ظنٌّ يوجب الحرص والحذر؟ فكيف تتعجل الأمر قبل أن تعرف مصدره ومورده؟

قال طومان هادئًا:

- اطمئنى يا شهد دار؛ إن طومان لا يعجل قبل أن يتثبت!

ثم سكت وسكتت، وسرحت خواطرهما إلى بعيد، وافترقا على التوهم ثم التقيا. ولما مد إليها يده للوداع بعد فترة كان فى عينيها عبرة وفى عينيه مثلها، فشد على يدها بعنف وهو يقول فى حسرة:

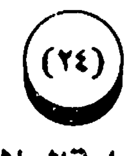
- لماذا أجبتُ دعوتك يا شهد دار وكنتُ خليقًا أن أتوارى عن عينيك حتى لا ينتكئ الجرح؟

قالت وقد أفلتت يدها من يده:

- بل اسألنى يا طومان لماذا دعوتُك وكان حقًا علىَّ أن أتصبر ليحملك تصبرى على الصبر والسلوان ويفرغ قلبك لما تحمل من هَمِّ الدولة؟

ثم فرت عجلى من بين يديه وخلفته فى أشجانه؛ فلما توارت عن عينيه استدار على عقبه واتخذ طريقه إلى الباب فى صمت، ويكاد قلبه يثب من بين ضلوعه وَجْدًا ولهفة!

●●●



حمامة السلام

قال أبو النجم الرمَّال فى خاتمة حديثه وقد جمع أطراف منديله فطواه ودسه فى جيبه :

- هو ما قلتُ يا مولاى وما أنبأتنى به الطوالع ، وما كذبتنى قط فى نبأ . . . وسيطول عهدك يا مولاى ويمتد حتى تبلغ أقصى العمر ، ثم يكون هذا العرش لصاحب ذلك الاسم الذى ترمز إليه النجوم ، وأوله من حروف الهجاء س . . .

قال الغورى :

- ولكنك لم تنبئنى بكل ما تعرف إن لم تخبرنى صريحًا باسم ذلك السلطان الذى يكون له عرش مصر من بعدى!

قال أبو النجم وقد ضُيق عليه :

- ومن أين لى أن أعرف يا مولاى غير ما حدثتنى به النجوم ، وإن للغيب أسرارًا لا تنكشف إلا حين يوفى الأجل ؛

وإنما لى من النجم شعاعه دون جرمه وكثافته، فلست أعرف من اسم ذلك السلطان إلا أول حرف منه! . . .

قال الغورى غاضبًا:

- أشعوذة وكذبًا أيها الرمَّال! فبالله لآمرن بك فتساق إلى السجن إن لم تخبرنى ما تمام ذلك الاسم الذى تخوفنى به؛ فما أنت وهذا الصمت إلا أحد رجلين: دجال يفترى على الله الكذب، أو مارق من طاعة السلطان يعصيه فيما يأمره ويخفى عنه ما يعلمه! وليس لك عندى على الحالين شىء مما كنت تأمل من المثوبة والأجر، وإنما السجن والعذاب حتى تفىء إلى الطاعة وتتوب من المعصية!

ثم دعا غلامًا من غلمانه فأمره أن يسوق الرمَّال مقيدًا إلى سجن القلعة حتى يرى فيه رأيه!

يا للرجل! كم أمير من أمراء هذه الدولة وكم سلطان نال أبو النجم الرمَّال من جوائزهم ما لم يكن يحلم به، وما احتفل لمرضاة أحد منهم كما احتفل لمرضاة هذا السلطان الشحيح الكز، الذى لم يكفه أن يحرمه جائزته بل حرمه حريته كذلك؛ ومن يدرى؟ لعله يدعه فى ذلك السجن حينًا حتى يشترى حريته بمال! .

وقال الغورى لنفسه وقد خلا به المجلس:

- إنه ليخيل إلىّ أن ذلك الرمَّال صادق فيما يحدّث به عن نجومه، ولكن من ذلك الأمير الذى سيكون له من بعدى هذا العرش وأول اسمه س؟ لو كان ولدى لهدأ بالى، أو لو كان طومان! أما والله لو أنعم علىّ بولد لسميته سعيداً وجعلت له ولاية العرش قبل أخيه البكر، فأفسد بها على ذلك الدجال نبوءته!

وسرح السلطان الشيخ فى أوهامه فلم يعد من سرحته إلا حين قدم حاجبه ينبئه بمقدم بريد الشام...

- «سيباى نائب الشام يشق عصا الطاعة ويتمرد!».

ماذا؟... وعاد إلى الرسالة التى جاء بها البريد من الشام يقرؤها ثانية وثالثة، فلم يزده ما قرأ إلا يقيناً بهذه الحقيقة المروّعة: سيباى نائب الشام يعصى!

إذن فهو ذاك، وأول اسمه س، وإنه لأهل لأن يتطلع إلى العرش!

- لا لا، لن يكون ذلك يا سيباى ولو اجتمعت إليك عسكر مصر والشام!

ودعا الغورى حاجبه فأمره أن يطلق سراح أبى النجم الرمَّال، ثم أرسل يدعو وزراءه وأصحاب مشورته إلى اجتماع

بالقلعة للمشاورة فى أمر سيباى العاصى الذى يطمع فى ولاية عرش مصر بعد السلطان، كما أنبأه بذلك أبو النجم الرمَّال!

***

دار الغورى بعينيه فى القاعة يبحث عن طومان باى فلم يره بين المجتمعين من أمراء البلاط، فعبس وهو يقول لنفسه همسًا:

- لا يزال ذلك الفتى يشغله هواه عن نفسه!

ثم التفت إلى كبير أمنائه يقول:

- هيه! ماذا وراءك من أخبار ذلك العاصى يا أمير قايت؟

قال قايت الرجبى:

- إن سيباى يا مولاى يطمع فيما ليس من أهله، وقد اجتمع إليه دولات باى، أخو العادل طومانباى، يطمع أن ينال ثأر أخيه، وأحسب أن علاء الدولة أمير مرعش يمد له يد المعونة، وأن لابن عثمان ملك الروم أصبعًا فى هذه الفتنة؛ فالأمر جد خطير كما ترى يا مولاى؛ ولابد أن نقضى على الفتنة فى مهدها قبل أن يستميل سيباى أمراء الأطراف فيجتمعوا إليه ويستقل بالشام!

قال الغورى:

- هو ما قلت يا أمير، وسأرميه بك لترده إلى الطاعة بالإحسان أو بالسيف؛ فخذ الأهبة لتكون على رأس تلك الحملة، وستجد من معونة خاير ما يسهل لك الأمر؛ فقد رسمت اليوم بأن يلى إمارة حلب ليكون عونًا لك على سيباى، وسيخرج إليها قبل الحملة بأيام.

خفق قلب قايت فرحًا وتدانى له الأمل البعيد؛ هذه هى الخطة كما أحكم تدبيرها بدر الدين بن مزهر، لا يكاد السلطان يخامره ريبٌ فى أمر القائمين بها فلم يتكلف قايت شيئًا من المؤونة فى تنفيذ ما اعتزم واعتزمه المتآمرون معه؛ وتمثل له فى الخيال موكبه حين يعود من الشام سلطانًا، يشق القاهرة من باب النصر، إلى الشرابشيين، إلى باب زويلة، إلى باب الوزير، حتى يبلغ الرملة فيثب إلى العرش، ويجلس إلى يمينه بدر الدين بن مزهر، ليكون كبير الأمناء مصريًا من هذا الشعب لأول مرة فى تاريخ حكومة المماليك... ويساق السلطان الشيخ مقيدًا إلى برج الإسكندرية أو قلعة دمياط، ليقضى ما بقى من أيامه يرسف فى الأغلال، أو تسبق إليه طعنة من يد جركسى يطلبه بثأر.

وطال صمت قايت وتتابعت على عينيه صور شتى، فلم ينتبه إلى مكانه من مجلس السلطان إلا حين عاد الغورى يقول فى صوت رفيق:

- مــاذا قلتَ يا أميــر؟ إنك لتـفكـر فى الأمـر طويلاً، ومـا أحسبه بحاجة إلى كدّ الخاطر؛ فإن حملة يقودها الأمير قايت لابد أن تعود منصورة مظفرة ولم تلقَ كبير عناء!

قالت قايت باسمًا:

- بتأييدك وكريم معونتك يا مولاى، فإن شئت فسأكون على الأهبة بعد أيام. . .

قال الغورى:

- لا تعــجل، فــإن الأمــر أهون من ذلك؛ ثم إنى أريد أن يسبقك إلى حلب نائبها الجديد خاير بن ملباى، وأن يتبعه ابن أخى طومان باى فإن له تدبيرًا أرجو أن يتم به النصر سريعًا إن شاء الله!

قلق قايت حين سمع اسم طومان باى وانطفأ بريق عينيه؛ ما شأنه وشأن هذا الفتى؟ وأى تدبير يدبره؟ ما له ولذلك وإن له من أمر نفسه ما كان حقيقيًا بأن يشغله؟

ثم خطرت له صورة خشقدم الرومى، فسرى عنه وزال ما به من القلق! إن هذا الفـتى الرومى ليســتطيع بما يملك من أسباب الحيلة أن يشغل طومان باى عن أمره بأمر آخر أحب إليه، فيقوده بزمام الهوى ليعدل عن ذلك الطريق!

- ولكن أين هو طومان باى الساعة؟

سؤال واحد خطر على قلب السلطان وقلب كبير أمنائه فى وقت معًا؛ أما السلطان فقد قلق أشد القلق لغيابه وانتابه الهم، لأنه لم يخطر على قلبه إلا سبب واحد لغياب طومان باى، هو أن يكون الساعة فى دار أقبردى الدواداز!

وأما قايت فاستراح واطمأنت نفسه، لأنه لم يخطر على قلبه سبب آخر لغياب طومان غير ذلك السبب الذين خطر على قلب السلطان.

وفى اللحظة نفسها كانت فتاة مستلقية على أريكتها تسأل نفسها فى شك وحيرة:

- ترى أين طومان باى الساعة؟

إنه غائب عن القاهرة منذ بعيد فلم يره ذو عينين منذ يوم المحمل، ولم يشهد اجتماع الأمراء فى القلعة -كما أنبأتها جاريتها- وما تخلف قبلها قط عن شهود مجلس الأمراء!

ونالها من القلق على غياب طومان باى أكثر مما نال السلطان وكبير أمنائه، فإن مكانته فى نفسها لأدنى من مكانته فى نفس السلطان وكبير الأمناء، وإنها لأحب إليه؛ لأنها شهد دار بنت أقبردى!

***

قال أبرك لمولاه:

- كأن قد عرفتُ يا مولاى ما يعنيك من أمر بدر الدين بن مزهر وعصابته، وإنى لأكاد أنكر ما سمعته أذناى! . . .

قال طومان:

- فماذا تنكر مما سمعتَ؟ وماذا تصدق يا أبرك؟

قال الغلام ساخرًا:

- إن بدر الدين بن مزهر يا مولاى، يطمع أن يقتعد عرش الغورى يومًا ما، لا تكاد تخفى سريرته تلك على أحد من خاصته، وإنه لذو جاه ومال؛ فهل يصدق مولاى أنه يطمع أن يصطنع بماله وحيلته قايت الرجبى، وخاير بن ملباى، وجان بردى الغزالى، وخشقدم؟

قال طومان:

- نعم، وسيباى، ودولات باى. . .

قال أبرك:

- أما سيباى فلا، وما أظن بدر الدين بن مزهر يعنيه من أمر سيباى إلا أن يستغل عصيانه لتدبير أمره، فإن سيباى أكرم نفسًا من أن ينقاد لمشيئة مصرى كبدر الدين، ولكن خاير بن ملباى

قد تعهد أن يضطلع بهذا الجانب من المكيدة المبيتة، فهو على نية السفر إلى حلب عما قريب لتنفيذ ما اعتزم.

قال طومان:

- لعلك لم تبعد عن الحق يا أبرك، ولكنى أريد أن أستجمع للأمر فأحوزه من أطرافه؛ وسأغيب عن عينيك يومين أو ثلاثة، فاحذر أن تتحدث إلى أحد بشىء مما تعرف!

***

ظهر طومان باى بعد غيبة طالت أيامًا، وكان عمه من الغيظ والقلق لغيبته قد ذهبت به الهواجس كل مذهب، فما كاد يراه مقبلاً عليه حتى تجهم وجهه وبادره بالقول مغضبًا:

- وأخيرًا ها أنت ذا تعود، ولكن حين لا حاجة إليك؛ أما حين يجد الجد وتعوزنى إليك الحاجة فليس يدرى أحد أين يلقاك؛ حتى ولا عمك، ولا ابنة عمك؛ أو لعل عمك وابنة عمك هما كل من تحرص على كتمان أمرك عنهما من دون الناس جميعًا حين تستخفى عن أعين الناس!

غامت سحابة من الهم على وجه طومان وحضرته أشجانه؛ فلم يخف عليه ما يقصد إليه عمه من وراء ذلك التعريض. إن عمه ليظن كل غيبة يغيبها لابد أن تكون فى شأن بنت أقبردى... وماذا عليه فى ذلك لو كان صحيحًا؟ أليس

من حقه أن يختار لنفسه؟ ولكنه من ذلك لم يفعل وترك زمامه في يد عمه يقوده حيث يشاء، لم يعصه، ولم يأبَ عليه ولم تأبَ صاحبته شهد دار، وإن قادهما إلى الهلاك! وإن شهد دار لتعلم ماذا يدبر لها السلطان من ألوان الكيد، وإنها مع ذلك لتخلص له وتمحضه النصح؛ ولاء له، أو حباً لابن أخيه الذى يريد السلطان أن يحول بينها وبينه! فهل عرف السلطان فيم كانت غيبة طومان أيامًا وقد جد الجد وأعوزت إليه الحاجة؟ وهل عرف أن غيبته هذه كانت فى شأن من أخطر شئون السلطان، وأنها كذلك بسبيل من حب شهد دار بنت أقبردى؟ . . .

هل علم أنه لولا ذلك الحب الذى تأجج فى صدره وفى صدر شهد دار لما بقى الغورى على عرشه، ولا سلم رأسه، ولانتهت هذه المؤامرة إلى الخاتمة الدامية التى دبر أمرها قايت، وبدر الدين بن مزهر، وخاير بن ملباى! . . .

قال الغورى وقد طال حديث طومان باى إلى نفسه حتى غفل عن عمه وعما يتوجه به إليه من الحديث:

- لم تحدثنى يا طومان فيم كانت هذه الغيبة البعيدة وقد أوشك أمر سيباى أن يكون خطيرًا . . .

قال طومان جادًا:

- من أجل سيباى يا مولاى كانت غيبتى هذه البعيدة، وإن سيباى لأهل لأن تصطنعه بالمعروف فتكسب حليفًا يعين وقت الشدة... وإنما زين له الأعداء أن ينتقض ويعصى لينفذوا من وراء ذلك إلى غاية قد أعدوا عدتها وهيئوا لها الأسباب!

قال الغورى منكرًا:

- أصطنعه بالمعروف وهو يطمع أن يخلفنى على العرش؟ ماذا تقول يا طومان؟...

- هو ما سمعت يا مولاى؛ وما كان لسيباى أن يعصى لك أمرًا لولا دسيسة بدر الدين بن مزهر وقايت الرجبى...

هب الغورى مذعورًا كأنما لدغته أفعى، ودنا من ابن أخيه فأسند يده على كتفه وهو يقول:

- قايت الرجبى كبير أمنائى؟

قال طومان هادئًا:

- نعم يا مولاى، يزيد أن يخرج له فى حملة تأديبية، ليعود إلى القاهرة سلطانًا فى مثل موكب العادل طومان باى حين هَمَّ أن يثب على جانبلاط!

دارت عينا الغورى فى محجريهما، وانتفخ منخراه وفَحَّ فحيح الثعبان وهو يرد القول:

- قايت الرجبى! . . .

ثم استدار فانحط على كرسيه تائه الوعى لا يكاد يصدق كلمة واحدة مما ألقى إليه. وخطا إليه طومان باى خطوة، ثم مد يده إلى جيبه فأخرج حزمة من الرسائل دفع بها إلى عمه وهو يقول:

- وهذا دليل الخيانة فيما كتب كبير أمنائك من الرسائل بخطه إلى الأمراء يستعينهم على أمره . . .

قال الغورى وهو يمر بعينيه سريعًا على سطور الرسائل:

- نعم إنها رسائله وهذا خطه؛ ولكن كيف تأتى لك يا طومان أن تلقف هذه الرسائل فى طريقها إلى الأمراء . . .

قال طومان باسمًا:

- ذلك سر حمامتى البيضاء!

- حمامتك البيضاء! ماذا تعنى؟

- أمهلنى يا مولاى ساعة حتى أستأذن شهد دار بنت أقبردى، ثم أقص عليك النبأ!

تعاقب على وجه الغورى ألوان من العاطفة، ثم فاء إلى الهدوء وقال وفى صوته نبرة عتاب:

- ما تزال تمزح يا طومان حيث لا يطيب المزاح؛ فما شأن بنت أقبردى الساعة فتقحمها فى ذلك الحديث؟

قال طومان وفى وجهه أمارات العزم وفى عينيه بريق السلام:

- ذلك هو السر يا مولاى؛ فلولا شهد دار ما عرفت سر تلك المؤامرة فمضيت أقص آثارها من قريب ومن بعيد، حتى عرفت ما يحاول قايت وما يريد أن يكاتب به الأمراء، فنفذت إلى برج الحمام الزاجل فى داره فأبدلت بحماماته حمائم أخرى، فلما حمَّلها رسائله إلى الأمراء طارت بها فألقتها إلىّ، ولولا حمامتى البيضاء فى دار أقبردى الدوادار لأوشك أن يكون ذلك الأمر . . . فهل يأذن لى مولاى أن أذهب إلى دارها فأشكر لها؟

ثم مضى لشأنه غير مكترث بما خلف وراءه، قد رضيتْ نفسه واستراح ضميره، لأنه استطاع أخيراً أن يقول الكلمة التى لم تلفظها شفتاه منذ سنين . . . وانتصف لنفسه!

❊❊❊

ومات بدر الدين بن مزهر تحت العذاب!

وسيق قايت إلى برج الإسكندرية معتقلاً يرسف فى أغلاله!

وعاد ما بين سيباى والسلطان الغورى إلى الصفاء واستقر أميراً على الشام، وإن لم يزل يحيك فى نفس الغورى شىء من الريبة فى إخلاصه، لأن كلمات أبى النجم الرمّال لم يزل يرن صداها فى أذنيه فلا يزال يحسب حسابه . . .

أمير واحد أفلت من يد طومان فلم يستطع أن يحمل السلطان على مجازاته؛ ذلك هو خاير بن ملباى نائب حلب؛ فلم يزل موضع الثقة عند السلطان، ونفسه تنطوى على شر ما تنطوى عليه نفس من البغضاء؛ لأن وراءه مصرباى الجميلة الفاتنة لا تزال تمنيه الأمانى وتقدح فى قلبه شرارة الطموح وتسعر نار البغضاء!

قالت شهد دار :

- بلى، قد أنصفتنى يا طومان وانتصفت لنفسك حين قلت ما قلت بين يدى السلطان، ولكن هل قدّرت ما وراء ذلك مما تنفعل به نفس عمك الشيخ؛ فإنى لأخشى أن يكون لذلك عاقبة لا ترضاها!

قال طومان :

- هونى عليك يا شهد دار؛ لقد قلتُ ما قلت وأنا أعنيه، وأى عاقبة تخشينها شر من هذا الذى يراد بى وبك، وكيف تهنؤنى النعمة وأنت بعيدة عنى!

فأطرت شهد دار وقد اصطبغت وجنتاها، وقالت في صوت خافت:

- ولكن الغد لك يا طومان، فاحرص على غدك، وحسبك من شهد دار يقينك بأنها لن تنسى...

قال طومان وقد اهتزت نفسه:

- لا يا شهد دار، قد يكون ذلك حسبك أنت من هذا الحب؛ أما طومان فقد أجمع أمره منذ اليوم على ألا يدع شهد دار تغيب عن عينيه!

ثم هبَّ واقفًا ومد إليها يمينه يودعها إلى لقاء قريب...

●●●



أدراج الرياح

قالت الجركسية الملثمة لمسعود صاحب خان حلب:

- ولكنك تعرف يا سيدى أين يمكن أن يكون جقمق قد ذهب بغلمانه!

قال الرجل ضجراً:

- يا سيدتى، ومن أين لى أن أعرف وقد مضى عمر طويل؛ فلو كان جقمق اليوم حيّاً لاستطاع أن يهديك إلى طريق ذلك الغلام وأخته؛ ولكن جقمق قد مات منذ سنين، وأنا شيخ كبير كما ترين، قد ضعف بصرى وانمحى ذلك الماضى من ذكرياتى؛ وقد كان جقمق -رحمه الله- يرتاد هذا الخان منذ عهد الأشرف قايتباى؛ يصحبه فى كل مرة غلمانٌ وفتيان قد جلبهم من بلاد الروم وأرمينيا وما وراء الجبال؛ فكيف ترينني أذكر وجه غلام واحد بين مئات من الغلمان وقد انقضى ذلك العمر المديد؟

قالت :

- ولكن طومان لا يُنسى ؛ لقد كان فتى ولا كالفتيان!

ثم انهملت عيناها واستبقت على وجنتيها الدموع!

قال مسعود محزونًا :

- ليتنى أعرف يا سيدتى أين ذهب جقمق بولدك طومان ؛ إذن لهديتك الطريق ليجتمع به شملك ، ولكن . . .

وأمسك برهة يفكر ثم انهلّ قائلاً :

- تقولين : إن ولدك كان يصحبه فتاة جركسية وغلام من الروم؟

قالت مستبشرة :

- نعم ، بذلك حدثنى أبو الريحان الخوارزمى يوم لقيته فى خان يونس بقيسارية .

قال الرجل فرحًا :

- كأنْ قد عرفتُ يا سيدتى ، وقد كان ذلك منذ بضع عشرة سنة ، وإنى لأعجب كيف نسيت أمر ذلك الفتى وأخته كل تلك السنين . . . ذلك الغلام الذى أوشك ذات يوم أن يذبح شابًا من أصحابه بسكين ، دفاعًا عن صاحبته الصغيرة . . . فلولا أن غريمه

قد فر من بين يديه لسال بينهما دم؛ وظل خبره وخبر صاحبته تلك حديث نزلاء الخان أسابيع. لقد كان فتى ولا كالفتيان.

انزعجت نور كلدى وسألت فى لهفة:

- ماذا قلت؟ هل جُرح ولدى طومان أو أصابه شر؟

قال مسعود هادئًا:

- لا يا سيدتى؛ وأظنك ستلقينه فى نعمة وعافية!

فاض البشر على وجه المرأة وازدهر، كأنما عادت إلى الشباب، وهتفت فرحانة:

- بالله! أتقول الحق يا سيدى؟ أتلتقى نو كلدى وطومان بن أركماس بعد بضعة وعشرين عامًا من الفراق؟

ثم مالت على يد مسعود الشيخ تقبلها وتبللها بالدمع وقد شدت عليها بأصابعها المرتعشة لا تريد أن تفلتها؛ ثم رفعت إليه عينيها ضارعة وهى تقول فى صوت مختنق:

- ولكن أين . . . أين ألقاه يا مسعود؟

قال الشيخ وقد أعداه ما بها حتى كاد يحتبس صوته:

- سيهديك إليه يا سيدتى تاجر المماليك جانى باى، فقد دفع جقمق إليه ولدك وصاحبته الجميلة الحسناء، ليبيعهما فى أسواق دمشق أو القاهرة!

عبست المرأة بعد طلاقة وقالت:

- أفذلك كل ما تعرفه من أمر ولدى يا سيدى؟ وهل يستطيع أن يدلنا على مكانه فى دمشق أو فى القاهرة صديقك جانى باى؟

- نعم يا سيدتى، وسيكون جانى باى هنا بعد أسابيع، فهو لم يزل دائم التردد بين حلب والقاهرة فى هذه الأيام، لأمر من أمر نائب حلب الأمير خاير بك...

ثم عض على شفتيه وأردف قائلاً مستدركًا:

- سيدتى، أظن أميرنا خاير بك يعرف كذلك من أمر ولدك ما لا أعرف؛ فقد كان فى تلك القافلة التى ذهب فيها مع جانى باى!

قالت نور كلدى ملهوفة:

- أمير حلب يعرف أين ولدى؟ فسأذهب إليه لأستنبئه إذا دللتنى على الطريق إلى دار الإمارة أيها الرجل الكريم!

ولكن مسعودًا لم يستمع إلى نور كلدى حين توجهت إليه بذلك الرجاء؛ فقد عاد ثانية إلى ذلك الماضى يسترجع ذكرياته وهو يفكر...

لا لا، إن ذلك الفتى الصغير الذى فارق أمه منذ بضع وعشرين سنة لم يذهب فيمن ذهب مع جانى باى تاجر المماليك، لقد صحبته تلك الفتاة وحدها، فذهب بها جانى

باى فيمن ذهب فى طريقه إلى دمشق والقاهرة، وبقى ذلك الفتى وصاحبه الرومى فى حلب، لا يدرى مسعود أين ذهب بهما جقمق ذات صباح ثم عاد بعد قليل فارغ اليد؛ كيف غاب عنه قبل اليوم أن ذلك الشاب الذى أوشك طومان أن يذبحه بسكينه دفاعًا عن صاحبته، هو خاير بك نفسه، نائب حلب اليوم، وأنهما قد افترقا منذ ذلك اليوم البعيد، فسافر خاير، وإخوته، وأبوه، فى ركب جانى باى، وظل ذلك الفتى وصاحبه الرومى فى حلب؟

- سيدتى! . . .

- سيدى! . . .

- لقد كنت أريد أن أهديك الطريق . . .

- نعم، وستصحبنى إلى دار الأمير، وبمعونتك أيها الرجل الكريم سألقى ولدى، وسندفع إليك جزاء معروفك!

قال مسعود آسفًا:

- يا ليت يا سيدتى! ولكنى غير مستطيع . . . لقد خدعتنى الذاكرة فنسيت أن ولدك لم يذهب فيمن ذهب مع جانى باى فى طريقه إلى دمشق والقاهرة، ولكنه بقى هنا فى حلب؛ فلا الأمير خاير بك، ولا جانى باى، يستطيعان أن يدلاك على مكانه اليوم؛ لقد افترقا منذ ذلك التاريخ البعيد وما أحسبهما قد

التقيا بعدها قط . . . وقد عاش ولدك بعدهما هنا ، في حلب ، ولعله لم يغادرها ، ولعلك أن تلتقي به يومًا في سوق من أسواق هذه المدينة على غير ميعاد ، إن كان مقدرًا لكما أن تلتقيا . . . فهل تعرفينه يا سيدتي حين ترينه؟ إنه اليوم شاب قد جاوز الثلاثين ، وأحسبه قد استدارت لحيته وكان صبيًا أمرد مصقول الخد . . . فأين منه صبيك الذي تنشدينه وتعرفينه بصفته؟

كان الرجل يتحدث والمرأة تسمع إليه ساهمة مذهولة قد انفرجت شفتاها وبرقت عيناها في محجريهما لا تطرفان . . . وكأنما أصابها المسخ فلم تتحرك حركة ولم تنبس بحرف . . . إنها الساعة امرأة أخرى غير التي كانت منذ لحظات ، حين خيلت لها الأماني أنها لقيت ولدها بعد ذلك الفراق أو أوشكت أن تلقاه ، فكأنما رأته بعينين وسمعته بأذنين واستمعت إلى نجواه ، ثم ها هي ذي تفقده ثانية . . . ويفر من خيالها كما فر به النخاس ذات مساء في ليلة حالكة السواد منذ بضع وعشرين سنة . . .

وأفاقت من ذهولها بعد قليل لتهتف جازعة :

– لا لا ، إنك تعرف أين ولدي ولكنك تأبى!

هز الرجل رأسه مشفقًا وهو يقول :

– الصبر يا سيدتي! لقد أنبأتك بما عرفت ، وإن همك

ليحزننى ويعصر قلبى؛ إننى أنا مثلك أبٌ وذو ولد؛ وليس الأمر من الحرج بحيث يدعو إلى اليأس؛ إنك يا سيدتى على الطريق منذ بضع وعشرين سنة؛ قد لقيت فى هذه السنين من البأساء والضر ما لقيت صابرة؛ فهلا صبرت إلى هذه السنين بضعة أسابيع أو بضعة أشهر حتى تلقيه أو يلقاك؟ لقد أوشكت أن تبلغى آخر الطريق إليه، ولابد أن تلتقيا؛ فإذا كان تعاقب السنين قد غير صورته فإن نور الأمومة فى قلبك يهديك، وما أرى صورتك قد تغيرت فى مرأى عينيه. إنك اليوم يا سيدتى فى المدينة التى تخلف فيها ولدك دون أصحابه؛ ومن يدرى؟ فقد يكون الساعة على مد الشعاع من عينيك لولا هذه الجدران التى تفصل بين بيوت الناس!

قالت المرأة وقد ثاب إليها الهدوء وفاءت إلى الرضا:

- شكرًا يا سيدى، ومعذرة إليك، فهلا أتممت معروفك فدللتنى على بيت فى هذه المدينة يشرف على الطريق العام، لأعيش فيه حتى يأذن الله لى فى لقاء ولدى؟

قال الرجل:

- لك علىّ ما تطلبين يا سيدتى، وسأكون لك منذ اليوم أخًا وجارًا إن أذنت لى، حتى تلقى ولدك إن شاء الله!

●●●



لغز الحياة

لم يكد ركب المحمل يفصل عن القاهرة وينتهى رمضان، حتى دهم القاهرة شر عظيم؛ فقد ظهر الطاعون فى أحياء متفرقة من المدينة ثم لم يلبث أن انتشر؛ ففى كل زقاق نواح على ميت، وفى كل دار مطعون يرقبه أهله مشفقين وجلين. وازدحمت الجنائز فى الطريق حتى لا تنقطع مواكبها، وتجاوبت أصوات النوادب ودفوف النائحات من شرق المدينة إلى غربها، وشمل أهل المدينة الخوف والفزع حتى ليظن كل حى أن الموت مصبحه أو ممسيه فى نفسه أو فى أحد من أهله، وحتى بلغ عدد الوفيات فى المدينة كل يوم أربعة آلاف مطعون.

وفزع الناس إلى الله تائبين نائبين، وخفف السلطان من غلوائه وأشفق على نفسه من يوم قريب، فنادى مناديه فى القاهرة بإبطال ضريبة الجمعة، وضريبة الشهر، وحرم بيع

الخمر، وحظر على النساء أن يخرجن من دورهن إلا مؤتزرات منتقبات، وأغلق بيوت البغاء، ومنع النواح على الموتى بالدفوف؛ ولجأ إلى الله فى خلواته يستجير من هذا البلاء النازل!

واستمر الوباء يحصد الأرواح، لم يمنعه دعاء الداعين ولا توبه التائبين، فلم يدع بيتًا فى القاهرة إلا دخله، وما دخل دارًا إلا عاد إليها، حتى قصر السلطان نفسه -على رغم من يحيط به من الحراس الأشداء الغلاظ -لم يسلم من ذلك الوباء؛ فماتت سرية من سرارى السلطان مطعونة، ومات ولده الذى كان الغورى يرجوه لولاية عهده، وماتت ابنته العروس الشابة جان سكر قبل أن يغيب هلال شوال، وقبل أن يبلغ الحاج منتصف الطريق إلى البلد الحرام!

وحُمل نعش جان سكر على أعناق الرجال يتبعه أمراء المماليك، وقادة الجند، ومماليك الخاصة؛ وطومان باى يسير بينهم مطأطئ الرأس، حتى بلغوا الجامع الأزهر فصلوا صلاة الجنازة ووزعت الصدقات، ثم حملت العروس العذراء على سريرها إلى قبة الغورى حيث أودعت التراب، وعاد طومان باى ينفض يديه من ترابها ويتلقى تعزية الناس شاكرًا؛ فلما انفض الجمع أوى إلى غرفته بالقصر صامتًا لا يريد أن يتحدث إلى أحد أو يحدثه احد . . .

أحزين هو لأنه قد فاته صهر السلطان؟ أم هو راضٍ شاكر لأن الحجاب قد زال بينه وبين الأمنية الغالية التى يتمناها منذ أزمان؟ أم هو بين الأسف والرضا فى نوع من القلق والحيرة لا طاقة له باحتماله ولا صبر؟

بلى، إن جان سكر بنت عمه قد ماتت وكانت مسماة عليه برغمه، وكانت تحول بينه وبين أمنية غالية يتمناها منذ أزمان؛ ولكنه حزين، وصاحبته شهد دار اليوم أبعد عن خاطره مما كانت فى أى يوم مضى؛ إنه لا يطيق أن يفكر الساعة فى شأنه وشأنها، لأن نفسه تأبى أن تعبر الطريق إلى مسراتها على جسر من آلام الناس. تلك العروس التى كانت مسماة عليه برغمه لم يزل جسدها دافئًا تحت صفائح القبر، فليس يجمل به أن يفرح ويشتهى ويتمنى ولم يزل يرن فى أذنيه معناها؛ لقد كان لتلك العروس الميتة كذلك أفراح وأمانى وشهوات، ولعلها - على ما كان بينها وبين طومان من الجفوة- كانت تأمل فيه أملاً، فماتت قبل أن تبلغ شيئًا مما كانت تشتهى وتتمنى وتأمل!

وتطورت خواطره فانتقلت به من حال إلى حال؛ فإذا صورة جان سكر التى طواها الموت منذ لحظات تملأ صفحة خياله، فليس له فكر إلا فيها، فيها وحدها، وإذا صورة صاحبته شهد دار تتوارى عن عينيه، أو هو نفسه قد واراها

طائعًا، لا يريد أن يجتمع فى خياله صورتان لا يجتمع مثلهما فى قلب رجل إلا اجتمع معهما الشماتة والحقد والبغضاء؛ وإنه لأرفع نفسًا عن مثل تلك الدناءات!

وطالت غيبته عن عمه، فإذا عمه يسعى إليه فى غرفته ليسأله عما به، أو لعله أراد أن يعزيه فى مصابه؛ ومصاب الرجل فى صاحبته أحق بالعزاء من مصاب الأب فى ابنته... إن الأب هو يصنع بنيه وبناته فهم كالثمرة من شجرته: تسقط الثمرة عن فرعها والشجرةُ هى الشجرة لم تنقص شيئًا فى رأى العين؛ ولكن المرأة هى تصنع رجلها وتبنيه فترتفع به أو تنزل، كما يبنيها رجلها ويرتفع بها أو ينزل؛ فكلاهما من صاحبه هو النفس الثانية، أو الشخص وصورته فى المرآة؛ أرأيت المرآة تملك أن تمسك الصورة لو زال ذلك الجسد الذى كانت تتراءى صورته فى مائها. فذلك مكان المرأة من رجلها ومكان الرجل من امرأته، ولا كذلك مكان الآباء من بنيهم وبناتهم!

قال الغورى وهو يربت كتف طومان:

- آجرك الله يا بنىّ وألهمك الصبر ورزقك حسن العوض؛ إنك لم تزل بعينى يا طومان وإن ذهبتْ تلك؛ لأنك ذكراها الباقية لى على الزمان!

ودمعت عين الشيخ فجاوبتها دمعة من عين الفتى، ثم اصطحبا ذراعًا فى ذراع يجوسان خلال غرفات القصر وقد صفا ما بينهما، كأنما كانت تلك التى ماتت هى الحجاز بين قلبيهما، أو كأنما ألفت بينهما المصيبة حين لم تؤلف بينهما نعماء الحياة؛ ولا تزال النفس البشرية لغزًا من ألغاز الكون يستعصى فهمه على الأحياء، وإنما مفتاح هذا القفل فى يد الموت، هو وحده الذى يفتح ذلك الصندوق المقفل على ما فيه من غيب الله!

***

وقال الغورى لنفسه ذات يوم وقد خلا إلى نفسه:

إن طومان لفتى يُعتز به، وإنه لولدى ولا ولد لى غيره إلا ذلك الطفل الذى يدرج بين يدى حاضنته؛ وإنه لأهل لأن أعتمد عليه فى مهماتى، فلماذا لا أجعله أدنى إلىَّ منزلة؟

وفكر وقدر، وذهب به الفكر مذاهبه، وتذكر شهد دار بنت أقبردى؛ فدعا إليه طومان يسأله:

– أتريدها لك زوجًا يا طومان؟

وازدحمت فى رأس الفتى خواطره وغلبته أشجانه؛ وغص بأنفاسه فلم تخلص من بين شفتيه كلمة، فارتمى على صدر الغورى ودفن رأسه فى طيات ثباته وهو يجهش باكيًا . . .

وسقطت دمعتان على وجه الغورى ثم انحدرتا فى لحيته، وقبَّض أصابعه فى لحم الفتى وهو يضمه إلى صدره بعنف وحنان، وهتف:

- يا ولدى!

كما ناداه ذات يوم فى حلب حين التقيا لأول مرة منذ سنين بعيدة!

فى هذا اليوم الراهن، وفى ذلك اليوم البعيد... كان هذا العناق الدافئ تعبيراً بليغًا عن سعادة طومان باى باجتماع شمله بعد تفرق، مرة فى حلب حين وجد له عماً... بعد يأس من لقاء الأهل، وهذه المرة فى القاهرة حين وجد شهد دار... بعد يأس من اللقاء!

***

واجتمع بالقلعة القضاة الأربعة، وأمراء المماليك، وأعيان الناس، ليشهدوا عقد الأمير الشاب طومان باى، على شهد دار بنت أقبردى!

فلما كان بعد بضعة أشهر، زفت العروس الفاتنة إلى عروسها الشاب، وشهدت القاهرة كلها مهرجانًا لم تشهد مثله منذ سنين، وحمل الحمالون جهازها الحافل بين عزف الموسيقى ونقر الدفوف يتخللون به دروب القاهرة، وشق

موكب الأمير الشاب المدينة يحيط به الأمراء والوزراء وأمناء البلاط، فى أيديهم الشموع الموكبية يرقص لهبها على ألحان المزامير وعزف الشابات وغناء المغنين والمغنيات، حتى انتهى الموكب إلى القصر. ونعمت القاهرة بليلة سلطانية ساهرة كأنها من ليالى الأحلام!

وكانت مصرباى جالسة وراء الستر فى شرفتها تشاهد ذلك المهرجان وهى تردد بيتًا من الشعر حفظته عن خاير بن ملباى فلم يزل على لسانها منذ فارقها خاير إلى حلب، فإنها لتتمثل صورته فى نبرة كل حرف ونغمة كل مقطع وهى تنشد:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كل الظن أنْ لا تلاقيا!

واكتملت سعادة الأمير طومان باى وعلا نجمه، فهو الدوادار الكبير، وهو الأستادار، وهو كاشف الكشاف وأمير أمراء الشمال والجنوب، وهو مشير السلطنة وصاحب الحول والتدبير!

وهو إلى كل ذلك حبيب المصريين، وصديق المماليك، وحامى العربان؛ وهو مريد من أخلص المريدين فى حلقة الشيخ أبى السعود الجارحى...

شيء واحد كان ينغص على طومان باى هذه السعادة التى اجتمعت له أسبابها؛ ذلك هو أن عمه السلطان لم يزل على ما رسم لنفسه من أساليب السياسة منذ ولى العرش؛ فإن أهم ما يعنيه هو أن يجمع المال من كل سبيل فلا ينفق منه شيئًا؛ وأن يحشد المماليك الجلبان فى القلعة فيؤثرهم بنعمته دون غيرهم من القرانصة وأولاد الناس؛ وأن يستمتع بكل ما يتاح له من أسباب النعيم والترف؛ والشعب يطلب الغذاء والكساء والمأوى فلا يكاد يجد.. ولا يكاد يجد الأمان من الجباة والولاة وعمال السلطان!

لولا هذه الهنات لهدأ بال طومان باى وتمت سعادته، ولكن من أين له أن يهدأ وهو دائب الحركة ليصلح بين المماليك والسلطان، وبين القرانصة والجلبان، وبين أولاد الناس والشعب، ثم ما بين أولئك جميعًا وبين الجباة وعمال السلطان؟!

●●●



نذير العاصفة

- مولاى!

- ما تريد يا طومان؟!

- لست أريد شيئًا لنفسى؛ فقد غمرتنى نعمتك يا مولاى حتى لا أطمع فى مزيد، ولكن أمرًا ذا بال يشغلنى...

- اعرض ما شئت من أمرك يا طومان!

- إنه أمر هؤلاء الروم الذين يتخذون متاجرهم فى خان الخليلى، فيخالطون المصريين، والجركس، وأعراب البادية، ويطلعون من أحوالنا على ما لا ينبغى أن يطلع عليه الغرباء...

- ولكنهم ليسوا غرباء يا طومان، إنهم يعيشون بيننا منذ سنين، وقد اتخذوا مصر لهم وطنًا، وأهلها أهلاً، ولهم بيننا صهر ونسب؛ فماذا يشغلك اليوم من أمرهم؟

- لا شيء، ولكن ابن عثمان ملك الروم اليوم على الحدود قد زين له الطمع ما زين من أوهامه؛ فإنى لأخشى أن يضيق هؤلاء التجار الروم بما يفرض الجباة على التجارة فى مصر من ضرائب فادحة، وبما يلقون من عسف عمال السلطان؛ فيلتمسوها زلفى إلى ابن عثمان ويضمروا لنا الغدر ويكاتبوا سلطان الروم بما يعرفون من أحوال مصر؛ انتقامًا لما ينالهم من أذى الجباة والعمال!

- وماذا يحملك على هذا الظن يا طومان، وأى شيء يدفعهم إلى هذا الغدر وهم فى خفض ونعمة لا يتمتع بمثلهما كثير من المصريين؟

- إنما هو حديث حدثنى به اليوم يا مولاى بعض غلمانى، يزعم أن جانى باى الأستادار قد أحفظ صدر هؤلاء الروم بما يفرض عليهم من الضرائب الثقيلة، وبما يلقون من عنت عماله وغلظتهم فى سبيل ما يحصلون من هذه الضرائب، حتى ليتحدث بعضهم إلى بعض جهرًا، يعلنون عن سخطهم ونقمتهم، ويلتمسون السبيل إلى الخلاص من جور المحصلين والجباة... بمكاتبة ابن عثمان ملك الروم!

- إذن فلينالوا جزاءهم، وسأرسم اليوم بحبسهم وقبض ما فى خزائنهم من المال، ليكونوا عبرة لمن يعتبر!

- مولاى!

- ماذا يا طومان؟ . . .

- أفلا يكون سبيل الإحسان أن تنظر فى شكواهم فتعاقبهم على قدر الذنب؟ إنهم فيما أعلم ليلقون -كما يلقى الناس جميعًا- من الجور وسوء المعاملة ما لا طاقة لهم بحمله، وقد أسرف جانى باى فيما يفرض من الضرائب حتى ليبيع الناس أقواتهم وثيابهم ومتاع بيوتهم ليفوا له بما يطلب؛ فخربت الأسواق، وفر الزراع من أراضيهم وتركوها غبراء مقفرة ليس فيها زرع ولا شجر، وأوشك الشعب أن يموت جوعًا!

قال الغورى:

- إن جانى باى إذن لذو مال!

وصمت برهة يفكر، ثم رفع رأسه قائلاً:

- وسأقبض معهم على جانى باى الأستادار، حتى يؤدى إلى خزانة السلطان ما اغتال من أموال الناس!

قال طومان فى قلق:

- مولاى! فهل ترد إلى الناس ما اغتال جانى باى وعماله من أموالهم؟

قال الغورى وعلى شفتيه ابتسامته:

- ما زلت يا طومان تحسن الظن بما ترى من حال ذلك الشعب! إن هؤلاء الناس يا أمير ليخفون ثرواتهم وراء هذه الرقع الملفقة التى يسترون بها أجسادهم متظاهرين بالفقر والحاجة؛ وإن السلطان بما يدبر من أمورهم لأحوج منهم إلى ذلك المال!

ثم لم يلبث السلطان أن دعا طائفة من جنده، فرسم لهم أن يقصدوا دار جانى باى فيأتوا به فى الأغلال! . . .

***

كانت سورباى بنت جانى باى الأستادار شابة فى نضارة العمر، مليحة، رشيقة؛ قد جمعت إلى جمالها الجركسى خفة الروح المصرية؛ فقد كانت أمها مصرية صريحة النسب؛ رآها أبوها جانى باى فى شبابه، فأحبها، فتزوجها، لم يأبه لتلك التقاليد التى كانت تحرم على الجركس ومماليك السلطان أن يصهروا إلى المصريين؛ فجاءت بنتها سورباى مزيجًا مصريًا جركسياً يوقظ الفتنة النائمة!

وتزوجها خشقدم الرومى عتيق السلطان الغورى، فكانت إنسانَ عينه وحبة قلبه وشغاف روحه؛ وولد له منها بنون وبنات؛ فاجتمعت منهم ومن أمهم فى داره آيات الحسن الثلاث: مصرية؛ ورومية، وجركسية!

وكانت سورباى وحيدة أبويها، فاتخذت خشقدم زوجًا وأخًا، واتخذ هو أبويها أبًا وأمًا؛ وصفتْ لهم الحياة!

وعلى حين بغتة حلت بهم الكارثة، حين قبض السلطان الغورى على جانى باى وألزمه أن يدفع إلى خزانة السلطان ما اغتال من أموال الناس، وأسلمه إلى عماله يفتنُّون فى تعذيبه كل فن؛ بالكى، ودق المسامير فى جسده، وعصر أصداغه بالمعاصر، وبالجوع والظمأ والبرد القارس فى حجرات السجن المظلم؛ وبتخويفه بالنار والخازوق والشنق على باب زويلة . . . حتى يدفع إلى خزانة السلطان ما طلب منه أن يؤديه!

وطال به العذاب ولم يدفع كل ما طلب منه، وطال عذاب أهله لما يناله، وطال عذاب ابنته سورباى وزوجها خشقدم الرومى عتيق السلطان الغورى!

وقالت له زوجته ذات مساء:

- خشقدم! حبيبى! إن لك مكانًا عند السلطان، فهلا شفعت عنده لأبى!

فما عتم خشقدم أن استجاب لدعائها، فذهب إلى مولاه يشفع لصهره. وكأنما ذهب ليذكِّره من نسيان، فما كاد السلطان الغورى يسمع قوله حتى هتف به مغضبًا:

- حتى أنت يا خشقدم! حسبتك من حزبى!

قال خشقدم ضارعًا:

- إننى أنا، وزوجتى، وبنىّ وبناتى، وجانى باى، كلنا من حزبك وصنائع معروفك؛ ولو كان جانى باى يملك غير ما أدَّى إلى خزانة السلطان لأنقذ نفسه من الهلكة وخرج عن كل ماله!

قال الغورى مغضبًا:

- فتدفع أنت من مالك ما يعجز عنه جانى باى!

فبسط خشقدم كفيه قائلاً:

- وماذا يملك عبدك يا مولاى إلا ما تُفضل عليه من معروفك!

قال الغورى ساخرًا:

- أو ما يُفضل عليه صهره مما اغتال من أموال الناس باسم السلطان!

واحمرت عينا الغورى وانتفخ منخراه، وصاح بعتيقه الماثل بين يديه:

- اسمع يا خشقدم، لا يمكن أن تكون لى ولجانى باى فى وقت معًا، فاختر أمان السلطان أو صهر جانى باى...

قال خشقدم منزعجًا :

- مولاى . . .

فقاطعه السلطان صائحًا :

- اسكت ، إنما هو ما قلتُ لك : فإما طلقتَ بنت جانى باى لتخلص لى ، وإما نالك ما يناله !

اصفر وجه خشقدم واختلجت أطرافه ، وقال مسترحمًا :

- وبنىَّ وبناتى يا مولاى ، ما خطبهم؟ وما خطبى؟ وما ذنب زوجتى المسكينة؟ لقد حلت النقمة على أبيها ، فادخرنى لها يا مولاى واجعلنى بعض إحسانك إليها وإلى هؤلاء البنين والبنات !

قال الغورى ولم يزل فى سورته :

- لقد حكمت ، فاختر لنفسك !

ثم ولى وجهه ليؤذن عتيقه بالانصراف ؛ فمضى يتعثر فى خطاه وقد دارت به الدنيا وثقل رأسه بما يحمل من الهم ، فلولا أنه جلدٌ لانهار على الطريق ليس له وعى ولا رشاد !

****

- ماذا وراءك يا خشقدم؟

- الخير يا سورباى إن شاء الله!

- هل قبل مولاى شفاعتك؟

- نعم!

- هل يطلق أبى؟

نعم!

- متى يا خشقدم؟

- يوم يحين أجله!

دقت المرأة صدرها يائسة وهى تقول:

- ماذا يا خشقدم؟ أليس يريد السلطان أن يطلق أبى؟ أحكم عليه بالموت فى هذا العذاب؟

قال خشقدم وعيناه عند موطئ نعله:

- سيموت أبوك فى هذا العذاب، وستخرجين من دارى مطلقة لا زوج لها، وسيعيش بنونا وبناتنا فى هذه الدار أطفالاً بلا أم، أو يصحبونك حيث تكونين ليعيشوا معك يتامى بلا أب. . . بهذا حكم السلطان!

ثم هَبَّ واقفًا وقال وقد ارتفع صوته واختجلت ألفاظه كأن فيها نبضات قلبه:

- ولكن شيئًا من ذلك لن يكون . . . ستعيشين لى وتبقين فى دارى، وسيعيش بنونا وبناتنا تحت جناح الرحمة من عطف الأب وحنان الأم، وسيعلم الغورى أين منقلبه!

ثم عاد إلى مقعده هادئًا ثابت الجأش، فأسند رأسه إلى راحته وراح يفكر، وطال تفكيره، وطال استناد رأسه إلى راحته، وتعاقبت الساعات وهو لم يزل فى مجلسه ذاك وفى هيئته تلك، وزوجته بين يديه صامتة ترمقه بعينين فيهما قلق وإشفاق، ولا تكاد تتحرك فى مكانها ولا يكاد هو يراها أو يحس أنها منه فى مكان قريب؛ فلما أوشك الظلام أن يبسط رداءه، رفع خشقدم رأسه وألقى إلى زوجته نظرة مطمئنة، ثم قال فى صوت هادئ:

- تأهبى منذ الغد يا سورباى لرحلة طويلة . . .

ثم نهض فأصلح هيئته وخرج إلى الطريق، فلم يعد إلى داره إلا حين أوشك الصبح.

ومضى يومان، ثم أبصر الناس فى ميناء دمياط مركبًا شراعيًا يتأهب لرحلته، وقد جلس فى صدره شاب فى عنفوانه إلى جانب زوجته، وبين يديهما بنون وبنات، يتبعه مركب آخر قد احتشد فيه طائفة من المماليك كأنهم حاشية ذلك الفتى . . .

وقطع الملاحون حبال المرساة وشدوا القلاع، فاتخذ المركبان طريقهما نحو الشمال حتى ابتعد عن الساحل؛ ثم غير الملاحون وجهتهم نحو الشرق، يقصدون بلاد ابن عثمان. . .

ورفتْ ابتسامة على شفتي ذلك الفتى وهو ينشد لنفسه:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق!

●●●



أول الطريق

عاد أبرك من حلب مغاضبًا لأميرها خاير بن ملباى، وكان أبرك نائبًا لقلعة حلب من قِبل السلطان الغورى، وعينًا على أمير المدينة من قِبل مولاه طومان باى الدوادار الكبير . . .

ومثل أبرك بين يدى السلطان ليقص عليه أسباب الخلاف بينه وبين الأمير، ولكن السلطان لم يكن بحاجة إلى أن يسمع شيئًا عن خاير، فهو يثق به ثقته بنفسه، ويوليه من بره وعطفه ما لا مطمع بعده لمستزيد؛ فما كاد يرى أبرك ماثلاً بين يديه حتى انهال عليه تقريعًا وملامة، فلم يأذن له فى كلمة أو يقبل منه معذرة؛ فغادر مجلس السلطان لا يكاد يتبين موضع خطاه من الغيظ والحنق؛ فقد كان السلطان فى حال شديدة من الغضب؛ فلولا أن أبرك هو غلام الدوادار الكبير لكان حقيقًا بأن يناله من غضب السلطان فى ذلك اليوم شر عظيم!

قال أبرك لمولاه :

- فوالله يا سيدى ما غاضبته إلا إشفاقًا على هذه الدولة من عاقبة ما يدبر لها ، وإن خاير اليوم لذو تدبير وحيلة !

اعتدل طومان باى فى مجلسه وقال :

- ماذا تعنى يا أبرك؟ فما علمتُ قبل اليوم أن لخاير تدبيرًا يصيب ، إلا أن يكون ذلك بسبيل امرأة !

قال أبرك :

- فهذا من ذاك يا مولاى ، وما تزال الرسل والرسائل تَتْرَى بينه وبين مصرباى الجركسية منذ عاد من رحلته إلى القاهرة آخر مرة ، وقد أجدَّت له هذه الرحلة أمانى ومطامع ، فهو اليوم رجل آخر غير الذى تعرفه يا مولاى .

قال طومان قلقًا :

- ولكنك لم تحدثنى يا أبرك عن تدبيره ذاك ! ما شأنه؟ وما غايته؟

قال أبرك :

- ذاك ما لا أعرفه على التحقيق يا مولاى ، ولكن مكانه فى تلك الإمارة البعيدة على الأطراف ، قد أتاح له صلات من الود بينه وبين جيرانه من أمراء ابن عثمان ، فهو يهدى إليهم

ويهدون إليه، والرسل بينه وبينهم لا تكاد تنقطع، وبينه وبين جان بردى الغزالى أمير حماة صلات أخرى . . .

قال طومان وقد زاد به القلق :

- جان بردى الغزالى؟ . . .

- نعم يا مولاى، وإن جان بردى ليتعبد له كأنه مولاه؛ ثم هناك علاء الدولة، أمير مرعش وديار بكر، وأنت تعلم يا مولاى ما بينه وبين ابن عثمان من القطيعة والجفوة، فإن بين خاير وبينه من أمارات العداوة على قدر ما بينه وبين ابن عثمان من المودة؛ كأن أمير مرعش وديار بكر ليس مثله أميرًا من أمراء مصر على بلد من بلاد السلطان الغورى، أو كأن خاير أمير من أمراء ابن عثمان!

هَبَّ طومان باى واقفًا وراح يذرع الغرفة ذهابًا وجيئة قد بلغ به القلق مبلغًا بعيدًا، وراح يتحدث إلى نفسه همسًا لا يكاد صوته يبلغ أذنيه، ولكنه مما يصطرع فى رأسه من الهواجس يخال أن لذلك الهمس صدى يتجاوب بين جدران الغرفة الأربعة، فيرتد إلى أذنيه ضجيجًا صاخبًا لا يكاد يطيقه!

ثم عاد فاستقر فى موضعه وهو يقول لغلامه :

- ثم ماذا يا أبرك؟

قال أبرك :

- لا شيء يا مولاى إلا ما علمتُ منذ قريب من أمر خشقدم الرومى، فقد بلغ فى بلاد الروم منزلة ومكانة، وله أخ فى حاشية السلطان سليم قد هيأ له مكان الحظوة والجاه عند السلطان؛ فهو اليوم من جلسائه وأصحاب سره، وقد استفاض بين الناس أن خشقدم قد زين للسلطان سليم أن يغير على بلاد السلطان الغورى وكشف له عن عوراتها وأطلعه على أسرار الدفاع؛ ولا يزال الناس على بلاد الحدود فى هَمٍّ منذ استفاضت بينهم هذه الأخبار... وبين خشقدم اليوم وخاير بن ملباى رسل ورسائل ومودة وثيقة...

هز طومان رأسه حنقًا وهو يقول كأنما يحدث نفسه:

- كذلك تضيق حلقاتها على عنق السلطان، والسلطان فى غفلته لا يكاد يفطن إلى ما يدبر له؛ ولقد رأيت خاير فى زيارته الأخيرة للقاهرة وهو يشهد موكب السلطان فى أبهته وتمام زينته، فكأنْ قد رأيت فى عينيه وقتئذ خيال أمنية يتمناها مما بهره من جلال ذلك الموكب؛ وكأنْ قد سمعت من ورائه صوت مصرباى هاتفة: إلى العرش يا خاير، فإن مصرباى تتمنى أن تعود سلطانة!

- ولكن السلطان لا يخشى تدبير خاير؛ لأن أبا النجم الرمَّال لم يخوِّفه إلا سيباى أمير الشام، فهو دائم الحذر منه تصديقًا لنبوءة الدجال!

- فهل سماه له الرمَّال باسمه يا مولاى؟ . . .

قال طومان ساخراً :

- أحسبه قال له : إن عرشه سيكون من بعده لأمير أول اسمه س !

قال أبرك فى همس وقد زاغت عيناه وحال لونه :

- أول اسمه س؟ فما أحراه يا مولاى أن يأخذ حذره من السلطان سليم بن عثمان ويقطع ما بينه وبين خاير من علائق المودة !

قال طومان غاضبًا :

- اخسأ عليك اللعنة ! وهل هانت مصر حتى يكون عرشها لسليم بن بايزيد ! إنما هى شعبذة دجال وأوهام شيخ مريض .

ثم سكت برهة يفكر وعاد يقول فى هدوء :

- لا عليك يا أبرك مما نالك من غضب السلطان ؛ وستعود بإذنه إلى قلعة حلب ، لتكون لنا عينًا وأذنًا ، ولن ينفذ لخاير بن ملباى تدبير وعلى ظهرها طومان باى !

ثم شيع غلامه إلى الباب وعاد إلى مجلس يفكر . . .

***

كانت مرعش وديار بكر وما يليها من تلك البلاد، إمارة مصرية، وكان يحكمها من قبل سلطان مصر الأمير سوار، ولكن هوى سوار كان مع بنى عثمان، فجرد السلطان قايتباى حملة فهزمه وفرق جنده وقاده أسيراً إلى القاهرة، ثم أمر به فشنق على باب زويلة، وجعل إمارة مرعش من بعده لأخيه علاء الدولة، وفر أبناء سوار إلى ابن عثمان فأقاموا فى جواره ينتظرون أن تسنح فرصة تعود بهم إلى كرسى الإمارة ويخلعون عمهم علاء الدولة؛ وعاش علاء الدولة أميراً على تلك البلاد خائفًا يترقب، والشر يتربص به من ثلاث جهات، فوراءه أبناء أخيه يأملون أن يعود إليهم عرش هذه الإمارة، وعن يمينه ابن عثمان ملك الروم لا تزال نفسه تراوده ليبسط سلطانه ويوسع رقعة ملكه، وعن يساره الشاه إسماعيل الصفوى أمير العجم يطمح أن يحتاز هذه البلاد ليتخذها قاعدة للهجوم على الشام ومصر. وفى نفس علاء الدولة مع ذلك كله أمل فى الاستقلال عن سلطان مصر!

وكان السلطان بايزيد العثمانى يحكم بلاد الروم قبل أن يغلبه على العرش ولده سليم، وكان سليم فتى فى عنفوانه واسع الطموح بعيد مطارح الآمال؛ فما كاد يثب على عرش أبيه حتى توجس إخوته الشر، فتفرقوا فى البلاد فراراً من بطشه؛ فمنهم من استجار بالشاه إسماعيل الصفوى، ومنهم

من عاش فى جوار السلطان الغورى؛ فاشتجرت أسباب الخلاف بين الدول المتجاورة وكان لابد من بعدها أن تشتجر الرماح!

وعبأ السلطان سليم جيشه يقصد بلاد الصفوى، وما كان له أن ينفذ إلى حيث يريد وفى الطريق علاء الدولة أمير مرعش وديار بكر؛ فكتب علاء الدولة إلى السلطان الغورى يؤذنه بنية السلطان سليم ويلتمس معونته؛ وكتب إليه السلطان سليم يشكو إليه عامله علاء الدولة ويسأله حق المرور؛ وكان الغورى يخشى السلطان سليمًا، ويحذر الصفوى، ولا يأمن غدرة علاء الدولة؛ فكأنما عاوده داؤه القديم، وخيل إليه أنه مستطيع بسياسته التقليدية العتيقة أن يغرى بعض أعدائه ببعض ويخلى بينهم حتى يتفانوا؛ فكتب إلى علاء الدولة يأمره أن يعترض سبيل ابن عثمان، وكتب إلى ابن عثمان يغريه بعلاء الدولة ويصفه بالعصيان والمروق من الطاعة. . . وأيقن أن الغالب منهما سيولى وجهه شطر إسماعيل الصفوى، فيخلص من الثلاثة أو يكسر شوكتهم فى وقت معًا. . . ووقف ينتظر.

وكان أبناء سوار فى جيش السلطان سليم، فتدانت لهم الآمال فى العودة إلى الإمارة التى كانت لأبيهم فى يوم ما قبل أن يليها علاء الدولة؛ فتقدموا الصفوف يطلبون الثأر. . . وانحاز إليهم من انحاز من جند علاء الدولة، ولاءً لأبيهم؛

ودارت الدائرة على علاء الدولة، وسيق هو وأمراء جنده أسرى إلى السلطان سليم، فاحتز رءوسهم وأرسلها هدية إلى السلطان الغورى فى القاهرة. ووثب ابن سوار إلى عرش أبيه . . . تؤيده جند السلطان سليم!

ورفرف لواء الدولة العثمانية على أول أرض مصرية، وتلبَّث السلطان سليم ينتظر رجع الصدى فلم يتقدم إلى شمال أو إلى يمين.

قال خشقدم الرومى:

- أما إنك يا مولاى قد حميت ظهرك من إسماعيل الصفوى بتولية ابن سوار على هذه الإمارة، فلو شئت لمضيت فى طريقك حتى تغلب على حلب، ودمشق، وتحتاز الشام من أطرافها فلا يقف فى سبيلك شىء!

قال السلطان سليم ضاحكًا:

- إنك يا خشقدم لتتعجل الأمر قبل أوانه؛ ومن أين لنا الجند والعتاد حتى نتغلب على حامية حلب فننفذ منها إلى دمشق والشام ونحتاز البلاد من أطرافها كما تأمل، وفى حلب قوة مصرية لا يثبت لها جيش من الروم؟ . . .

قال خشقدم منكرًا:

- أفلا يزال مولاى يشك فى ولاء خاير بك، على ما قدم من المواثيق وأمارات الطاعة، أم إن مولاى لا يراه أهلاً للوفاء بما وعد من نصرة جيش الروم!

قال السلطان:

- بلى، ولكن خاير جركسى كما تعلم، فلست آمن أن ينتقض علينا حين يجدُّ الجد، انتصاراً لبنى جنسه!

قال خشقدم ضاحكًا:

- وهل علم مولاى لجركسىّ من هؤلاء المماليك عاطفة تحن به إلى أهله أو تربطه بوطنه، وإنما يقتل بعضهم بعضًا ليبلغوا العرش يستمتعون به حينًا حتى يأتى من يقتلهم ليبلغ من بعدهم ذلك العرش ويتخلق بدم السلطان القتيل! ثم هنالك يا مولاى جان بردى الغزالى أمير حماة، فقد عقد لى المواثيق والأيمان؛ وهنالك سيباى أمير الشام. . .

فقاطعه السلطان سليم قائلاً:

- أما سيباى فلست آمن جانبه، على ما تصف مما بينه وبين الغورى من أسباب العداوة والبغضاء!

قال خشقدم:

- نعم، ولكنه إلا يكن معنا فلن يكون علينا، فنحن على الحالين فى أمان منه!

قال الوزير أحمد بن هرسك :

- يا مولاى! إنها أمانى تهتز لها النفس ولكنها لا تغنى من الحق شيئًا ؛ لقد كنتُ أمير الجند فى تلك الحرب التى كانت بين جيش أبيك وجند قايتباى فى ذلك التاريخ البعيد، وكأنى أرى بعينى الساعة مصارع جندى على تلك الغبراء، لا يكاد يثبت جندىٌّ منهم لطعنة مصرية، وقد رأيتنى يومئذ وأنا أقاد أسيرًا فى الأغلال إلى مجلس السلطان قايتباى فى القاهرة، فيعفو عنى ويمن علىَّ بالحرية وهو يقول باسمًا : «كيف رأيت جيش مصر يا أمير؟ . . . » وأقسم لمولاى صادقًا أننى لم أومن فى حياتى بحقيقة كما آمنت يومئذ ولا أزال أومن حتى اليوم بأن جيش مصر لا يُغلب ؛ وقد آليتُ من يومئذ ألا أرفع سيفى وجه مصرى من أهل القبلة . . . فإن شاء مولاى فقد بذلتُ له النصح :

قال السلطان ضاحكًا :

- اسكت يا شيخ ؛ إنك لتحمل على كاهلك من أعباء السنين ما لا تقوى معه على حمل الراية على رأس جيش السلطان سليم!

***

ومثل سفير ابن عثمان بين يدى السلطان الغورى يبشره بما

فتح الله على السلطان سليم وما أتاح له من النصر على علاء الدولة صاحب مرعش، ويقدم له رءوس القتلى . . .

وخفق قلب السلطان الشيخ خفقة ذعر، واختلج ضميره اختلاجة ندم؛ وتخيل علاء الدولة وقد تفرق من حوله جنده وأسلموه إلى عدوه يحتز رأسه؛ فكأنْ قد رأى نفسه في مثل موقفه ذاك في يوم ما؛ فشحب وجهه وبردت أطرافه، ثم استجمع قوته ليقول لسفير ابن عثمان:

– إننى لسعيد بما أفاء الله على السلطان سليم من النصر والغنيمة، ولعله أن يجد من توفيق الله فى قتال الصفوية مثل ما لقى فى قتال ذلك الخارجى العاصى!

وعض على شفتيه وعاد قلبه يخفق، وأحس وخز ضميره!

وغادر السفير مجلس السلطان، فدعا الغورى أمراءه ليشاورهم فى الأمر: إن قلبه ليحدثه بأن شرًا يتربص به على حدود الدولة حيث خيمت جنود ابن عثمان فى انتظار ما يصدر إليهم من أمر، إما إلى الشرق وإما إلى الغرب.

واجتمع الأمراء فى مجلس السلطان يتبادلون المشورة؛ وقال الغورى:

- ليس بى من خوف، وإن أمراءنا على الحدود لأهل حمية فى الدفاع، وما أخشى منهم إلا أن ينتقض سيباى نائب الشام.

قال الدوادار الكبير طومان باى:

- ولكنى يا مولاى أخشى غدرة خاير بن ملباى نائب حلب أكثر مما أخشى سيباى؛ إن سيباى لذو حفاظ ومروءة، وإن خُيل لمولاى ما خيل من أمره؛ أما خاير . . .

فقاطعه الغورى قائلاً:

- لا تزال يا أمير تسىء الظن بخاير بك، وما أراه أهلاً لموجدتك؛ على أننا لم نجتمع الساعة للمشاورة فى شأن خاير أو سيباى، ولكننى أخشى غدرة ابن عثمان!

وتشاور الأمراء ساعة ثم انتهوا إلى الرأى، واتفقوا على إنفاذ حملة احتياطية إلى حلب، تنتظر ما يكون من أمر ابن عثمان والصفوى وتعد عدتها للدفاع . . . وإيفاد رسول إلى بلاد ابن عثمان يستطلع الأنباء ويقتص الأثر . . .

ومضت أشهر قبل أن تخرج الحملة المصرية، إلى حلب، وقبل أن يسافر رسول السلطان؛ وكان سفراء ابن عثمان لا يزالون يفدون إلى القاهرة سفيراً بعد سفير ثم يعودون، فيُولِم لهم السلطان ولائمه ويكرم وفادتهم، وعيونهم مبثوثة فى كل حى من أحياء القاهرة وآذانهم مرهفة للسمع . . .

ثم بدأت الحملة المصرية تخرج إلى الشام فى طريقها إلى حلب، انتظاراً لما يكون من أمر الغورى والسلطان سليم، وكان على رأسها الأمير أبرك صاحب الدوادار الكبير طومان باى!

●●●



شعاع من النور

استدار المملوك الشاب على عقبيه وفى وجهه أمارات غيظ شديد، فالتقت عيناه بعينى تلك الجركسية الملثمة التى تلاحق خطاه منذ خرج من دار الإمارة فى حلب، فأقبل عليها مغضبًا يقول:

- ما شأنك وشأنى يا أماه، ولما تطاردينني كذلك على طول الطريق كأنما مطلتك بدين؟...

قالت نور كلدى وقد اخضلَّت عيناها وبدا فى وجهها الانكسار والذلة:

- لا تعجل علىّ بالغضب يا بنىَّ، إن أنا إلا أم فقدت وحيدها فبرزت إلى الطريق تتفرس وجوه الناس آملة أن تجد فتاها الذى تفتقده منذ عمر مديد!...

قال المملوك وقد زاد به الغيظ والغضب:

- وتحسبيننى ذلك الفتى أيتها الجركسية، أم أنت تحاولين أن تخدعينى كأننى لا أعرف من تكونين؟ .

ثم عاد فأولاها ظهره ومضى فى طريقه، وتركها فى مكانها لا تنقل قدمًا ولا تحاول حركة، وقد تعاقب على نفسها ألوان من العاصفة وغمرتها موجة من الشك والقلق وهى تقول لنفسها فى حيرة:

- إذن فهو يعرف من أكون. . . فهل يعرف أين ألقى ولدى طومان!

ثم هرولت تناديه فى لهفة لا تبالى نظرات الناس وما ارتسم على وجوههم من أمارات السخرية والدهشة وما تلفظ شفاههم من عبارات الاستنكار!

امرأة فى خريف العمر قد جف عودها وأدبر عنها الشباب، لا يزال يراها الناس فى حلب منذ سنين، تجوس خلال أسواق المدينة تتفرس فى وجوه الرجال بعينين ظامئتين فيهما لهفة وحنين، وتعترض سبيل الشبان فى الأسواق بوجه ليس فيه حياء، فلو قدرتْ لاستوقفت كل عابر فى الطريق وكل جالس على دكانه تتحدث إليه. . .

وعرفها كل فتى فى المدينة وكل رجل، تلك الجركسية الملثمة التى تبرز للرجال فى حنايا الدروب على شفتيها ابتسامتها وفى نظراتها الحنين واللهفة. . . مجنونة!

ها هى ذى تعدو فى أثر ذلك الفتى من مماليك الأمير خاير بك تناديه وهو ماض فى طريقه لا يلتفت ولا ينظر كأن لم يسمع نداءها، والناس ينظرون إليها ساخرين أو منكرين؛ هل فيهم من يعرف حقًا من تكون تلك الجركسية الملثمة التى تعترض الفتيان بكل سبيل وتقعد لهم فى كل مرصد؟

وغاب المملوك الشاب عن عينيها فى زحمة الطريق فأمسكت عن العَدْو ووقفت لاهثة وهى تدير فى وجوه الناس نظرات حائرة فيها القلق والحيرة، وفيها الحنين واللهفة!

ذلك مملوك من بطانة الأمير خاير بك كانت تأمل أن يهديها إلى طريق ولدها طومان باى، أليس مسعود الخانى قد أنبأها منذ بعيد أن أمير حلب كان فى يوم ما رفيقًا لولدها طومان؛ فإن الأمير أو غلامًا من بطانته يستطيع أن يكشف لها عن شىء من خبر ولدها الذى تفتقده منذ سنين؛ لقد كان مسعود يستطيع أن يصحبها إلى دار الإمارة ويجمع بينها وبين الأمير نفسه فتتحدث إليه وتسمع منه، ولكن مسعودًا قد أبى عليها أن تسلك هذا السبيل حين خُيل إليه أن ولدها طومان يعيش فى حلب، لأنه لم يفارق حلب يوم فارقها خاير فى ركب تاجر المماليك جانى باى؛ وإذن فلابد أن تلقاه أمه يومًا ما فى سوق من أسواق هذه المدينة على غير ميعاد. وفسح لها مسعود فى

ذلك الأمل حتى اعتقدته حقّاً، وعاشت منذ ذلك اليوم فى حلب، تجوس خلال الأسواق، وتتفرس فى وجوه الرجال، وتعترض سبيل كل شاب؛ حتى ليخيل إليها أن تستوقف كل عابر فى الطريق وكل جالس على دكانه لتتحدث إليه وتسأله عن ولدها طومان باى!

وأيقنت بعد لأى أن طومان باى ليس فى حلب؛ لقد فارق هذه المدينة فى يوم ما قبل أن تهبط إليها أمه؛ فإنها لتكاد تعرف كل شاب فى هذه المدينة وكل رجل، وما منهم واحد إلا لقيته مرة أو مرات، فما وقعت عينها منذ بعيد على وجه جديد، إلا وجوه هؤلاء الجند الذين وفدوا إلى حلب منذ قريب يتهيئون للدفاع عن حدود الدولة حين يدعوهم قائدهم إلى الدفاع . . .

ولكن أين ذهب طومان حين ذهب من حلب؟ . . . إنها لتحس إحساس الأمومة الملهمة أنه لم يزل حيّاً يعيش فى مكان ما؛ فمن ذا يدلها على مكانه ذاك؟ لا أحد إلا الأمير خاير بك نفسه؛ أليس قد كان فى يوم ما رفيقًا لولدها طومان كما حدثها مسعود؟ فمن ذا يصحبها إلى دار الإمارة ويجمع بينها وبين الأمير خاير بك لتتحدث إليه وتسمه منه، فلعله قد لقى طومان باى ثانية بعد ذلك الفراق، ولعله يعرف أين تلقاه!

وهذا مملوك من مماليك الأمير خاير بك قد فر من بين يديها قبل أن تسمع منه؛ وإنه ليعرف من تكون، هكذا سمعته يقول قبل أن يولى وجهه، وإذن فهو يعرف أنها أم طومان، ويعرف طومان نفسه وأين يكون!

لماذا فر من بين يديها ذلك المملوك مغضبًا عجلان وأبى أن يتحدث إليها؟ ولكنها لابد أن تلقاه ثانية وتتحدث إليه وتسمع منه، وتعرف أين تلقى ولدها طومان باى!

ومر بها مملوك آخر وهى فى موقفها ذاك تتحدث إلى نفسها ذلك الحديث، فأتبعته عينين فيهما لهفة وحنين وانطبعت على شفتيها ابتسامتها؛ ونظر إليها الفتى وابتسم، فخطت إليه خطوة تهمُّ أن تستوقفه؛ فقال الفتى ساخراً:

- ابعدى أيتها العجوز! قد عرفتك!

وضحك، وجاوبته ضحكات طائفة من أصحابه على مقربة، وقال له واحد منهم:

- أرأيت؟ . . . كذلك تستوقف كل شاب يعبر الطريق، وإنها لعجوز فى خريف العمر!

قال فتى آخر:

- لست أشك أنها مجنونة! . . .

قال ثالث :

- لو كانت مجنونة لتساوى فى مرأى عينيها الشيوخ والشباب! وإنما هى مفتونة!

قال رابع :

- إن من حقها أن يفتنها جمال الشباب! فإن فى وجهها أمارات تنبئ أنها كانت ذات يوم شابة فاتنة!

وكانت نور كلدى منهم بحيث تسمع وترى، وعرفت لأول مرة بماذا يتحدث عنها أهل تلك المدينة . . . أفذلك رأى الناس عنها وتلك أحاديث الشيوخ والشباب! فقد عرفتْ إذن لماذا ترف هذه البسمات على شفاه الناس حين يرونها! . . .

وازدحمت فى رأسها ذكريات بضعة وعشرين عامًا مرت بها بطيئة متثاقلة تتعاقب فيها على نفسها ألوان من الهم والأسى لم يخطر مثلها على قلب بشر، واحتشدت فى مرأى عينيها صور ذلك الماضى الحافل بالآلام وأوجاع النفس وما احتملت من مشقات الحياة راضية فى سبيل ما تنشد من أمل، وضاق صدرها عن ذلك القلب الذى يختنق بذكريات الماضى وأمانى المستقبل، فكأنما رفرف بين ضلوعها بجناحى طائر وهَمَّ أن يثب ليخرج من قفصه إلى فضاء الله، ثم ارتد من

عجز كسير الجناح . . . وهوت العجوز الشابة على الطريق ليس بها وعى ولا حراك!

وأسرع إليها الفتيان ينظرون ما بها واستداروا حولها حلقة؛ ثم حملوها جسداً ساكنًا إلى دار قريبة وراحوا يعالجونها بالعطر والبخور ويذكرون فى أذنيها اسم الله!

وأفاقت، ودارت بعينيها فيما حولها ثم أطرقت . . ومضت ساعات قبل أن تجد فى نفسها القوة لتعود إلى الدار التى اتخذتها مأوى فى هذه المدينة التى ليس لها فيها حبيب ولا نسيب! . . .

وصحبها على الطريق شيخ من شيوخ المماليك إلى حيث تذهب، وكان اسم ذلك الشيخ : جانى باى!

- إذن فأنت جانى باى صاحب الأمير خاير بك؟

- نعم يا سيدتى!

- وكنت تعرف رجلاً من تجار المماليك فى بطانة قايتباى اسمه جقمق؟

- نعم يا سيدتى، وقد كان -رحمه الله- أخى وجارى!

وبلعت المرأة ريقها وهمَّت أن تسأله سؤالاً آخر ثم أمسكت! لقد عاودها الأمل فى لقاء طومان باى، وإنها بهذا الأمل لسعيدة،

وإنها مع ذلك لخائفة، تخشى أن تذهب سعادتها هذه الطارئة لو سألته فأجاب. . . فيردها جوابه ذاك إلى اليأس والعذاب!

قال جانى باى وقد ضاق بذلك الصمت:

- ولكن ما شأنك يا سيدتى وشأن جقمق؟

فعادت المرأة إلى نفسها وقالت باسمة:

- ذلك ماضٍ بعيد، فهل تذكر أن جقمق قد باعك ذات مرة فى حلب فتاة جِركسية اسمها مصرباى، فرحلتَ بها فى قافلتك إلى القاهرة؟

نعم، أذكر ذلك يا سيدتى! وكيف أنسى خوند مصرباى أرملة الناصر بن قايتباى، وزوجة الظاهر قنصوه، وصديقة أمير حلب خاير بك!

فغرت المرأة فمها مدهوشة وقالت:

- خوند مصرباى!

- نعم يا سيدتى، وكانت قبل أن تصعد إلى العرش رقيقًا فى يد جانى باى، ومن قبله فى يد جقمق! فأين منها اليوم جقمق وجانى باى! . . .

قالت المرأة وأطرقت برأسها تغالب ما فى نفسها من القلق والإشفاق:

- وطومان باى؟

قال الرجل فى دهشة :

- وتعرفين الأمير طومان باى الدوادار يا سيدتى! . . .

- الدوادار؟

- نعم، ابن أخى السلطان، ودواداره الكبير، وصاحب سره ونجواه!

- طومان؟

- نعم، وكان رقيقًا تحت يد جقمق، قبل أن يشتريه قنصوه الغورى فيعرف أنه ابن أخيه، وكأنى أراه الساعة هو وخشقدم الرومى فى يد جقمق بالبهو الكبير فى خان مسعود، لا يعرف ماذا يخبئ له الغد من المجد والسعادة!

قالت المرأة هامسة وكأنما تهذى من حمى وقد غاب سواد عينيها ومال رأسها إلى ناحية :

- طومان، ابن أخى السلطان؟

وانهار عزمها فهوت فى مكانها وعاودها الداء، ثم استفاقت، وكان لم يزل إلى جانبها جانى باى الشيخ . . .

قال الرجل وقد فاءت المرأة إلى نفسها وعادت إلى مجلسها بين يديه صامتة تحدق فيه بعينين شاكرتين وعلى شفتيها ترفّ ابتسامة هادئة :

- ماذا بك يا سيدتى؟

قالت وكأنما تتحدث إليه من مكان بعيد:

- لا شىء، إنما هو داء يعتادنى إذا ضاقت نفسى؛ ولكن قل لى: من أخبرك أن السلطان هو عم طومان، وما أعلم لأبيه أخًا؟

قال الرجل مدهوشًا:

- أفأنت تعرفين طومان وأباه يا سيدتى؟

فعضت المرأة على شفتها واستدركت قائلة:

- لا، وإنما حسبته لا عم له!

قال جانى باى:

- وكذلك كان يحسب طومان باى نفسه فيما قص علىَّ، ولكن حديثًا جرى على لسانه ذات يوم فى مجلس قنصوه الغورى بحلب، عرف منه قنصوه أن طومان باى ابن أخيه، فأعتقه واتخذه ولدًا، وهو اليوم دواداره الكبير وصاحب تدبيره، وما أراه إلا سلطان مصر فى غد؛ وقد خلفته منذ أسابيع فى القاهرة وليس بها أحد أعز منه جانبًا وأرفع شأنًا . . .

وصمت جانى باى برهة ثم قال:

- ولكنك يا سيدتى لم تحدثينى ما شأنك وشأن جقمق، ومصرباى، والأمير طومان باى الدوادار!

قالت المرأة فى هدوء :

– لا شيء هناك يا سيدى ، ولكنى لقيتهم ذات يوم منذ سنين فى خان يونس بقيسارية ، فطاب لى أن أسأل عن خبرهم صديقًا كريمًا مثلك ! . . .

ثم أمسكت لحظة تفكر ، وعادت تسأل جانى باى :

– إننى علىّ أن أذهب فى رحلة إلى القاهرة بعد أيام ! فهل تعرف قافلة أصحبها فى ذلك الطريق؟ . . .

قال جانى باى :

– أما الآن يا سيدتى فلا ، إن جيوش السلطان الغورى اليوم لتزحم الطريق بين حلب والقاهرة فلا سبيل إلى تلك الرحلة إلا بعد أن ينتهى ما بين ابن عثمان وسلطان مصر ! وما أظنه ينتهى عن قريب ، فقد تركت السلطان الغورى فى القاهرة يتأهب لحرب طاحنة قد حشد لها كل ما فى طوقه أن يحشد من الجند وعدة القتال ، وأظنه اليوم على الطريق إلى حلب فى جيش كثيف يحجب غباره وجه السماء ! . . .

قالت نور كلدى :

– وطومان باى معه؟

– لا يا سيدتى ، فقد اختار الغورى أن ينيب عنه بالقاهرة فى أثناء غيبته ، طومان باى الدوادار الكبير !



بوادر المعركة

لم تكد الحملة الاحتياطية التى بعث بها السلطان الغورى إلى حلب تستقر فيها أيامًا حتى نشأت بينها وبين أهل المدينة جفوة، فقد كان الجند فى حاجة إلى الغذاء والمأوى، فغلت الأسعار، وازدحمت الدور بسكانها، وكان ما لابد أن يكون بين المحاربين والمدنيين حين تضيق المدينة بأهلها والطارئين عليها فتنشأ أسباب الخصام والبغضاء؛ وطالت إقامة الجند فى طلب فارغين لا عمل لهم، فزينت لهم البطالة ما زينت من الشهوات، فانطلقوا فيما زُين لهم من الباطل حتى غضب الخاصة والعامة، وغضب أمير المدينة!

واستحكم العداء بين الجند والشعب، فآثر كثير من هؤلاء وأولئك أن يغادروا حلب فرارًا بأنفسهم من فتنة توشك أن تندلع نارها بين طائفتين من رعايا السلطان! وكان تدبيرًا مبنيًا لتفريق القلوب المؤتلفة وتقريب عوامل الهزيمة!

كـان ذلك فى حلب، أمـا فى القـاهرة فكانت الأنـباء تَتْرَى من الشرق بما أعد السلطان سليم من الجند والعتاد، فإن حديثه ليدور على ألسنة المصريين جميعًا حيث يلتقون فى المساجد للصلاة، وحيث يجتمعون فى الأسواق للبيع والشراء، وحيث يتنادون للسمر واللهو فى دور الأمراء والسادة وفى مجالس الغناء! . . .

***

قال بدر الدين شيخ قبة يشبك:

- أما أنا فلا أحسب سليم بن عثمان يقصد مصر؛ إنه لأبعد نظرًا من أن يرمى بجنده إلى الهلكة فى غير مطمع، إن مصر لأعزّ جانبًا وأعظم قوة!

قال جركسى من القرانصة فى المجلس:

- أفما سمعت بما اجتمع له من الجند وما هيأ من أدوات القتال؟ أفتحسبه قد أعد ذلك كله من أجل إسماعيل الصفوى؟ .

قال بدر الدين:

- نعم، وليس يغيب عنك أن له ثأرًا عند الصفوية يطمع أن يناله! ثم إنه -ولا ريب- يعلم على اليقين قوة بأس السلطان الغورى وشدة مراسه! وأين سليم بن بايزيد من الغورى؟

تململ أرقم الرمال فى مجلسه وقال منكرًا :

- لا تزال يا سيدنا تذكر الغورى بما ليس فيه، فكيف يغيب عنك قوة سليم بن عثمان وشدة مراسه؟ وإنه لشاب لم يزل فى يديه غده!

قال بدر الدين مغضبًا :

- اسمع يا أرقم : أما أن تقحم ما بينك وبين الغورى من عداوة فى الأمر وتنسى حق بلادك عليك فهذا ما لا صبر عليه! قد يكون سليم بن عثمان على نية الحرب لمصر، وقد يكون استعداده لحرب الصفوى؛ وقد يكون الغورى على ما تصف من سوء التدبير وضعف النفس وفساد الضمير أو لا يكون، ولكنه على ما يكون من صفاته، سلطان مصر التى يتربص بها العدو على الحدود؛ فاليوم تنمحى كل أسباب البغضاء لنذكر حق هذا الوطن! . . .

اختلج أرقم فى مجلس اختلاجة ظاهرة وهَمَّ أن يجيب، ثم أمسك حين ابتدر الحديث واحد من الجماعة يقول :

- ليس فى مصر أحد يزعم أن الغورى -وقد جلس على عرش مصر ستة عشر عامًا- قد حكم فعدل، ولكن الأمر اليوم ليس هو أمر السلطان الغورى، ولكنه أمر مصر التى توشك أن

تطأها خيل الروم! وقد أجمعتُ أمرى -على ما بى من الكره لهذا السلطان- أن أتطوع جندياً فى المقدمة أو فى المؤخرة، يوم تسول للسلطان سليم نفسه أن يغزو مصر أو يكون له فى بلادنا أمر! . . .

قال الجركسى:

- فقد سولتْ له نفسه . . . فهل نراك غداً يا صديقى فارسًا على السرج أو راجلاً فى الصف؟ . . .

قال الرجل:

- بل إننى كذلك منذ اليوم ومن ورائى بنىَّ وإخوتى وأهلى!

قال أرقم الرمَّال باسمًا:

- ومن ورائك أرقم الرمَّال . . . ولا يحسب سيدنا أننى أقل حفاظًا على حق الوطن وإن كنت أكره ذلك السلطان! .

قال الجركسى:

- أما أنا فلن أحمل السيف حتى أعرف كم ينفق علىَّ الغورى مما اجتمع فى خزائنه! فلست أرضى أن أكون فى جيشه جندياً بلا نفقة وهو ينفق على جلبانه ما ينفق ولا يندبهم لحرب؛ حتى لكأنى به يريد أن يستأصل القرانصة لتخلص له

والجلبانه مصر كلها يأكلون الحرام مما اجتمع لهم من مالي ومال الناس بالغصب والعذاب!

قال الشيخ بدر الدين منكراً:

- أخ!

فأجاب الجركسي في حدة:

- لا أخْ ولا بخْ يا سيدنا، إنما هو الحق يقال!...

قال أعرابي في أقصى المجلس وهبّ واقفًا يتهيأ للانصراف:

- نعم إنه الحق وإن غضب الشيخ! لقد أكلنا الغوري شحمًا ولحمًا ويطمع أن يحارب عدوه منا بعظم معروق، حسبه أن يكون في جنده أرقم الرمّال إن كان عنده للقتال عزم!

ثم غادر المجلس تشيعه الأنظار، فلم يكد يبتعد حتى ارتدت أبصار الجماعة إلى أرقم الرمّال... ذلك المسيخ المشوّه الخلق الأحمش الساقين المستكرش البطن، كأنه صرة ثياب على عصوين من قصب.. أيريد ذلك المسيخ على ما به من الهرم والضعف والوهن، وعلى ما يضمر من الكره والبغضاء للغوري، أن يكون جندياً تحت رايته ليدفع عن مصر كيد الروم!

وكأنما ألمّ بالجماعة خاطر واحد حين التقت أعينهم فى لحظة معًا بعينى ذلك المسيخ الهرم وهو متكور فى مجلسه إلى يمين الشيخ، فابتسموا! وكأنما ألمّ الخاطر نفسه بأرقم، فانفرجت شفتاه عن شيء يشبه الابتسام! ثم حدق بعينيه فيما أمامه وانسرح فى وادٍ من الأوهام!

وعاشت القاهرة فى همٍّ ناصب بضعة أشهر، ولم تزل الأنباء تترادف على مصر بعظم استعداد ابن عثمان على الحدود؛ فأجمع السلطان أمره على الخروج... وأصدر أمره إلى الأمراء، وإلى القرانصة والجلبان، وإلى الفلاحين وأولاد الناس، وإلى أعراب البادية... ودعا إلى صحبته الخليفة العباسى، ودعا شيوخ الصوفية الأربعة، ودعا قضاة القضاة ونوابهم، وحشد العمال والصناع وذوى الحرف وأصحاب الفنون، ولم ينسَ أن يكون فى ركبه طائفة من المغنين والمغنيات وناقرى الدفوف ونافخى الشبابة وأصحاب المزامير...

واجتمع للغورى جيش لم يجتمع مثله لقايتباى ولا لسلطان مصرى قبل قايتباى أو بعده، وحمل معه خزائنه بما اجتمع له فيها من المال منذ ولى العرش، وحزم نفائسه ومقتنياته الغالية محمولة على البغال والنجائب. واحتشدت القاهرة كلها تشهد جيش السلطان الغورى خارجًا للقاء ابن عثمان...

ويبقى فى القـاهرة نائب السلطان: الأمـيـر طـومـان باى الدوادار!

وترادفت الكتائب على الطريق كتيبة وراء كتيبة تحمل أعلامها ويشيعها الناس بالدعوات، وخرج موكب السلطان آخر الركب تظلله رايته ويختال من تحته فرسه وقد حف به أتباعه وبطانته وخاصة أمرائه، وكان يتبعهم على الطريق فارس على سرجه كأنه صورة ثياب مشدودة إلى ظهر حصان قد تدلى منها على الجانبين عصوان من قصب!

وأشار الناس بالأصابع إلى ذلك الفارس هاتفين فى عجب ودهشة، أو فى إعجاب وتقدير:

- أرقم الرمَّال!

ولكن أرقم لم يكن وقتئذ فى حالة من الوعى بحيث يرى هذه الأصابع مشيرة أو يسمع هذه الأصوات هاتفة! بل كان فى سبحة من سبحاته الخيالية البعيدة تكاد تتراءى فى عينيه بعض صورها!

وانتهى الجيش إلى دمشق، فانضم إليه سيباى أمير الشام بجيش من جنده، وانضم إليه جان بردى الغزالى أمير حماة...

واستأنف الجيش سيره حتى بلغ حلب!...

وتلبث السلطان قليلاً حتى تأتيه الأنباء . . .

وجاءه سفير من قبل السلطان سليم بن عثمان يستهديه بعض طرائف مصر ويسأله شيئًا من السكر والحلوى؛ فاطمأنت نفس الغورى وثاب إليه الهدوء، وبعث مع السفير بما طلب . . . وأرسل وراءه سفيره مغل باى يقتص الخبر!

***

قال خاير بك أمير حلب:

- يا مولاى، إن ابن عثمان ليضمر لك المودة ويحفظ لك الأبوة؛ وإنى لكفءٌ للدفاع إذا آثر مولاى أن يعود إلى حاضرته آمنًا موفورًا ويدع لى حماية الحدود!

قال جان بردى الغزالى:

- وعبدك جان بردى يا مولاى من وراء الأمير خاير بك يمده بما يحتاج إليه من الجند والعتاد، وما أراه فى قتال الروم بحاجة إلى مدد من الجند أو العتاد!

وصرَّت أسنان سيباى ولم ينطق، فمال إليه السلطان يسأله:

- وماذا ترى أنت يا أمير سيباى؟ . . .

قال سيباى وفى وجهه أمارات الجد:

- فيأذن لى مولاى فى خلوة لأتحدث إليه فلا أغشه!

فأنغض السلطان رأسه ولم يجب. . .

ثم خلا لهما المجلس بعد حين فأسر إليه سيباى برأيه. . .

قال السلطان مدهوشًا:

- تريد أن أقتل خاير بك يا أمير؟ ومن يبقى لى من أمراء الجند بعد مقتل خاير بك؟. . .

- يبقى لك الجند مجتمعة قلوبهم على الولاء لك لا يسعى بينهم ساعٍ بدسيسة عثمانية تفرقهم شيعًا حين يجدُّ الجد وتنشب المعركة!

قال الغورى قلقًا:

- أتظن خاير بك يسعى بالدسيسة بين المماليك؟. . .

- بل أنا مستيقن يا مولاى، وذلك الشغب الناشب بين القرانصة والجلبان من أجل النفقة ليس إلا تدبيراً من تدبيره! ليهيئ لابن عثمان فرصته!. . .

- وترى خاير أهلاً لهذا التدبير يا أمير؟

- بل هو لا يحسن إلا مثل هذا التدبير! يريد أن يبتدر الوسيلة ليخلص إلى العرش يا مولاى!

- خاير يطمع فى عرش الغورى؟

- نعم، وقد واثق ابن عثمان على أن يؤازره فى سبيل هذه الغاية! قهقه الغورى ومال برأسه إلى الوراء وهو يقول:

- ولكن أصحاب الطوالع لم يذكروا لى أن العرش من بعدى يكون لأمير أول اسمه خ! فإن صح ما حدثونى به فإن لك مأربًا من وراء هذه الوقيعة بينى وبين الأمير خاير!

ثم قطب وكشر عن أنيابه وأردف:

- وأظنك يا سيباى قد استنبأت أصحاب النجوم فأنبؤوك فخُيِّل إليك ما خيل من تلك الأوهام، وإنما كانوا ينظرون فى نجوم آفلة!

بدت الدهشة فى وجه سيباى واحتبس لسانه فلم يدر بماذا يجيب، لأنه لم يفهم شيئًا مما عناه السلطان. وهَمَّ أن يَسألهُ توضيح ما قال حين رأى جان بردى الغزالى مقبلاً من بعيد فأمسك! وأقبل جان بردى فحيا وجلس، وأطبق الصمت على المكان. وقال السلطان بعد برهة:

- وأنت يا جان بردى بماذا تشير علىّ فى أمر خاير وقد أشار سيباى بمقتله، ويراه يضمر لنا الغدر والخيانة!

اصفر وجه جان بردى وأمسك لحظة عن الجواب وهو يقلب بصره بين السلطان وسيباى، ثم قال:

- ومـاذا يظن بنا العـدو يا مـولاى إذا بلغـه أن السلطان الغورى يقتل أمراءه؟

ثم سكت وهو يردد بصره بينهما قلقًا ولم يزل فى وجهه الشحوب، قال السلطان:

- صدقت! فماذا يظن بنا العدو يا جان بردى؟ . . .

***

كـان ذلك الحـديث يدور فى خيـمـة السلطان؛ وإن بين المماليك القدماء فى مضاربهم حديثًا آخر يلقفونه فمًا عن فم لا يدرون من أشـاع بينهم شائعته ونبههم إليه؛ فقد جاءهم أن السلطان قد أجمع خطته على أن يكون المماليك القرانصة فى الصف الأول حين تنشب المعركة، لتحصدهم المنايا ويبقى مماليكه الجلبان بمنجاة من سيوف الروم ونيران بنادقهم!

«أفلم يكف السلطان أن جعل أرزاق الحرب ضعفين للجلبان ولم يَمنح القرانصة إلا القليل من النفقة؟ أعليهم وحدهم أن يموتوا بلا ثمن على حين يستمتع الجلبان بالرزق والسلامة؟».

قل قائل منهم:

- احذروا الفتنة أيها الجند، فما أرى السلطان قد قدمكم فى الصف الأول إلا إقرارًا بشجاعتكم وعرفانًا بما اكتسبتم من

الخبرة فى الحرب وطول المراس! وإنكم لجديرون إذا غلبتم بأن تكون لكم وحدكم الغنيمة دون من وراءكم من الجلبان! . . .

ولكن ذلك القائل لم يكد يفرغ من حديثه حتى غرق صوته فى ضجة صاخبة قد انبعثت من كل جانب؛ يستنكرون دفاعه ذاك ويعبرون بالضجيج عن سخطهم على خطة السلطان، فقد وقر فى نفوسهم منذ سمعوا الكلمة الأولى أن السلطان الغورى لا يقصد بهم إلا الشر! . . .

وهمس مملوك منهم فى أذن صاحبه:

- أحسبنى قد عرفت من قالها وماذا أراد! فما هى إلا دسيسة عثمانية أرسلها فى الجند خاير بن ملباى على لسان مملوك من مماليكه لأمر قد بيَّته بليل! . . .

قال صاحبه:

- صهْ! . . . هذا خاير وجان بردى الغزالى يتفقدان الجند! . . .

●●●



الثـــــأر

هل كان سليم بن عثمان يعبئ جيشه لحرب الصفوية أو للغارة على بلاد مصر؟

وهل كان مقدم الغورى فى جيشه ذاك ليحاول الصلح بين ابن عثمان والصفوى كما زعم أو ليتأهب للدفاع عن حدود بلاده؟ . . .

ذانك هما السؤالان اللذان كانا يترددان على شفاه العسكرين فى تلك الأيام الشداد، وكان الغورى والسلطان سليم يحاول كل منهما أن يخدع صاحبه ليخفى عنه مقصده حتى يستكمل أهبته! ولكن الجواب الصريح لم يلبث أن جاء الغورى على لسان سفيره مغل باى حين عاد من بلاد ابن عثمان حليق اللحية خلق الثياب على رأسه طرطور وتحته حمار هزيل لا يكاد يقله! وكأنما لطمه السلطان سليم لطمة أطارت لحيته وعمامته، ورده إلى مولاه كسيراً يحمل إليه نذير الحرب!

وكان الموعد مرج دابق على مسيرة يوم شمالى حلب!

وإذن فهى الحرب لا مناص!

وخرج الغورى فى حاشيته يرفرف عليه لواؤه السلطانى، ويحيط به الخليفة العباسى، وشيوخ الصوفية، وطائفة من الدراويش وأهل الصلاح والخير! وكان على ميمنته سيباى أمير الشام، وعلى الميسرة خاير بن ملباى أمير حلب، وفى المقدمة القرانصة من مماليك السلاطين الماضين، وقبع الجلبان مماليك السلطان الغورى فى المؤخرة يأملون أن يغنى عنهم دفاع القرانصة الشجعان فلا يصلون حر القتال فى الصفوف الأولى. . .

وفى الجمع المحتشد من الصوفية والدراويش والفقهاء تحت لواء السلطان، كان شيخ مسيخ، مشوه الخلق، مائل الفك، مستكرش البطن، أحمش الساقين -قد لصق بظهر فرسه متكوراً عليه كطأنه صرة ثياب يتدلى على جانبيها عصوان من قصب، وكان فى يده سيف مشهور يترقرق فى مائه شعاع الشمس، وعيناه تدوران فى محجريهما إلى يمين وإلى شمال، لا يريد أن تفوته حركة حوله. . .

ذلك أرقم الرمَّال قد خرج فى يوم الكريهة ليؤدى فريضته!

والتقى العسكران، وحمل الفرسان من جيش الغورى على عسكر الروم فأثخنوا فيهم طعنًا بالرماح وضربًا بالسيوف يشقون الصفوف المتراصة، وتبعهم من تبع من الركبان والرجالة يحصدون الرءوس عن أيمانهم وعن شمائلهم فلا يكاد يثبت لهم راجل ولا راكب، والغورى فى موقفه يشهد المعركة راضيًا قد خُيل إليه النصر . . . وكان على رأس أولئك الفرسان قائد الميمنة سيباى أمير الشام! وهتف الغورى فى زهو وحماسة:

– سلمتْ يداك ولا عاش من يشناك يا سيباى! . . .

وفجأة برق فى الجو شعاع من نار، وثار غبار، وسُمع دوى قاصف كالرعد! وخر مائة من المصريين صرعى من طلقة مدفع. ثم توالت الطلقات وانهالت قذائف البارود تحصد المصريين حصدًا فلا تبقى ولا تذر . .

ما هذه النار الخاطفة كأنما انبعثت من طاق الجحيم؟ وما تلك الشظايا الملتهبة على الرءوس كطير أبابيل ترميهم بحجارة من سجِّيل؟

هذا سلاح جديد فى يد الروم لم يحسب المصريون حسابه ولم يتخذوا له أسبابه! وصاح صائح المصريين يستنفرهم:

– اقتحموا عليهم قبل أن يحاط بكم، فإن نارهم لا تنال إلا من بُعد!

فاندفعت الميمنة إلى جيش العدو واقتحمت على الرماة فأسكتت أفواه المدافع وهَمَّ العدو أن يرتد . . .

وفى اللحظة التى حان فيها النصر وأوشكت أن تنتهى المعركة تقهقر خاير بمن وراءه من الميسرة وحطم جناح الجيش، وأحيط بسيباى ومن معه من الفرسان فسقطوا صرعى تنوشهم سيوف الروم من كل جانب.

وصاح خاير فى الجند ليفلَّ جموعهم :

- النجاة! . . . النجاة قبل أن يحاط بكم فقد مات السلطان!

فتفرق الجيش المصرى أباديد على ظهر البادية وخلى أمراءه على الأديم صرعى، وخلَّى سلطانه على فرسه يصيح بمن حوله ليثبتهم فلا يستجاب له. وانطوى اللواء المنشور على رأس السلطان وفرَّ حامله، فلوى عنان فرسه يطلب لنفسه النجاة فيمن نجا، فلام يكد يفعل حتى تراءت لعينيه صورة ورَنَّ فى أذنيه صوت . . . فجفل الفرس وألقى براكبه على الغبراء وراح يعدو خفيف الظهر ليدرك غبار الجيش المنهزم.

وهَمَّ السلطان أن ينهض من كبوته فما أطاق، ورأى سيفًا مسلولاً يلمع على رأسه فى يد شيخ مسيخ، مشوه الخلق، مائل الفك، بشع المنظر. وكأنما تجسد الموت بشرًا فكانت

صورته هى ذلك المسيخ فى يده ذلك السيف المسلول! وانعقد لسان السلطان من الرعب فلم ينطق، وهوى الشيخ بسيفه على رأس السلطان ويصيح فى نشوة:

- خذها من يد أركماس! . . .

فتح الغورى فمه مذعوراً، واتسعت حدقتاه، ومد ذراعيه أمامه كأنما يحاول أن يدفع بهما شبحًا بغيضًا يتراءى له، وقد انبعث فى خياله صورة ماضيه البعيد حية كأن لم تمضِ دونها تلك السنون، وحرك فكيه وقد سال الدم إلى فمه من الجرح الغائر فى جبهته وهو يقول بصوت مختنق:

- أركماس؟ . . .

صاح الشيخ فى غلظة والسيف فى يده يقطر دمًا:

- نعم، أركماس الذى ظننت يومًا أنه مات تحت أخفاف البعير الهائج فى دروب القاهرة وذهب إلى غير معاد، قد نُشر اليوم من موت ليأخذ منك ثأر أبيه الذى جاء يطلبك به من أقصى بلاد الأرض منذ أربعين سنة!

قال الغورى وقد ارتخت أجفانه وسقطت ذراعاه الممدودتان إلى جانبه وامتلأ فمه بالدم حتى فاض:

- أنت . . . أنت . . . أركماس . . . أركما . . .

ومال رأسه، وانطبقت أجفانه، ولفظ النفس . . .

واحتز أرقم رأسه فألقاه فى جب قريب، وخلف على الغبراء جسدًا بلا رأس لا يعرفه أدنى الناس إليه صلة وأقربهم مودة، ومسح الدم عن سيفه وهو يقول فى شماتة :

- فليبقَ قنصوه الغورى فى هذه المفازة طريحًا حتى تتخطفه الطير، فلا يضم جسده ضريح فى بطن الأرض . . . كذلك دعاها عليه مختص الطواشى حين اغتصب الغورى قبره فخط عليه مسجده، وقد استجاب الله دعوته ! . . .

ثم استدار أرقم فاتخذ طريقه فى أدبار الجيش المنهزم، إلى حلب !

***

أوصدت حلب بابها فى أوجه المرتدين من جيش الغورى؛ توقيًا من مثل ما نالها من مظالم الجند قبل رحيلهم إلى مرج دابق، وضناً بأقواتهم أن يستنفدها هؤلاء المتبطلون، وحفاظًا على أهليهم ودمائهم وأموالهم من الهتك والسفك والنهب، وطمعًا فيما خلف عندهم أمراء المماليك والجندُ من الودائع الغالية، واستجابة لنصيحة أميرهم خاير بن ملباى . . .

وتبعثر جند الغورى على الطريق بين حلب ودمشق، لا يملك أحد منهم زادًا ولا مأوى ولا راحلة؛ واستسلمت قلعة

حلب الحصينة للفاتح بلا قتال، وتسلم مفاتيحها جندى واحد من جند ابن عثمان، هزيلٌ معروق أعرج ليس معه إلا سيف من خشب، فوضع يده على كل ما كان فى خزائن القلعة من ودائع الغورى التى جلبها معه من مصر، وبينها من الذهب والفضة مقادير لا تكال ولا توزن ولا تعد، وبينها من أدوات القتال وعتاد الحرب ما لا يثبت له جيش فى الأرض، وبينها من نفائس الآثار وتراث السلاطين الماضين ما لا يقوَّم بمال ولا يعوض بثمن . . . ورفرفت الراية العثمانية على القلعة المصرية الأولى، وشهد الاحتفال برفع الراية خاير بن ملباى أمير المدينة!

والتفت السلطان سليم إلى وزرائه وهو يقول مشيرًا إلى خاير مبتسمًا :

– ذلك فضل صديقنا خاين بك فاذكروه له!

فاختلج خاير وأحس فى قلبه ألم الوخزة الدامية فلم يجب .

وقال خشقدم الرومى :

– اسمه خاير بك يا مولاى!

قال السلطان :

- نعم، أعرفه، وإنما هى نكتة مصرية؛ فقد سمعتهم يتندرون قائلين: السلطان سليم «خان»؛ وما «خنت» ولا غدرت ولكنه اسمى ولقب ورثته عن أجدادى؛ فماذا على صاحبك فى أن يسموه منذ اليوم: خاين بك!

وضحك، وضحك أصحابه، وأنغض خاير بك رأسه خزيان، ثم انصرفوا جميعًا لتدبير ما يشغلهم من الأمر . . .

ولم يطب المقام لكثير من أهل حلب فى ظل الراية العثمانية، فغادروها على آثار الجيش المصرى إلى دمشق والقاهرة، وغادرتها نور كلدى فى قافلة من المهاجرين، تأمل أن تبلغ القاهرة فتلقى ولدها طومان باى، نائب السلطنة. طومان، ذلك الصبى الظريف الذى فارقته ولم تزل تطلبه منذ ثلاثين سنة لا تعرف أين ذهب به نخاسه، وإنها لتطمع أن تراه اليوم سلطانًا على عرش مصر أو نائبَ سلطان! أتراها تعرفه حين تراه؟ أم تراه يعرفها؟

أما هى فنور الأمومة يهديها، وأما هو . . . فمن يدرى؟

إنها لتتخيله الساعة كأنها تراه رأى العين: شاب مستدير اللحية فى زى أمراء المماليك، على رأسه عمامته، وفى وسطه منطقة مرصعة بالجوهر، يتدلى منها خنجر فى جرابه، وبين يديه طائفة من المماليك السلطانية يسعون بين يديه، وعلى

شفتيه تلك الابتسامة العذبة التى طالما تخيلتها على شفتى أبيه أركماس!

آه، ها هى ذى تذكر أركماس الساعة؛ ترى أين هو؟ أحى فترجوه أم ميت لا رجاء فى لقائه؟ . . . أين هو الساعة ليرى ولده طومان باى سلطانًا على عرش مصر أو نائب سلطان؟ طومان الذى لم يرَ أباه قط ولم يره أبوه قط ولا يعرف اسمًا يناديه به حين يلقاه؛ لأنه مضى لوجهه وخلَّفه جنينًا فى بطن أمه لا يعرف أتتمخض عنه ذكرًا أم أنثى . . . ليته اليوم حىٌّ ليراه ويعرفه ويناديه مرة واحدة: يا ولدى! . . . ثم يعود ثانية إلى حيث كان! . . . ليته اليوم حىٌّ فيصحبها على ذلك الطريق إلى القاهرة لرؤية ولدها؛ فليس يكفيها أن ترى ولدها بعينين اثنتين، وليس يشفى ما بها من الحنين أن تسمعه يناديها: أمى! نور كلدى! . . . ولا تسمع شفتيه تهتفان: أبى! أركماس! . . .

ولكن من أين لها؟ . . . من أين لها أن تظفر بمثل هاتين الأمنيتين الغاليتين فى وقت معًا؟ . . . إن الأقدار لبخيلة، إنها لتمنح النعمة أحيانًا، ولكن فى سبيل نعمة أخرى تسلبها؛ فكيف تطمع نور كلدى أن تنال أمنيتين عزيزتين فى وقت معًا؟ إن الطبيعة نفسها تأبى أن تجمع على الإنسان سعادتين، فأمانى الشباب لا تتحقق فى العادة إلا حين يؤذن الهرم، فتجىء

أسباب السعادة التي يتمناها الشباب، ولكن حين لا شباب؛ فمع الشباب دائمًا الحرمان والشوق واللهفة، ومع سعادة الوجدان والظفر عجزُ الشيخوخة والهرم. هذه هى السُّنَّة، هى الطبيعة؛ وهذه سبيل الأقدار فيما تمنح وتمنع، وفيما تعطى وتسلب. إن الشارب المنتشى لا يجد لذته الكاملة إلا حين الكأس بين يديه فارغة من الشراب؛ فمع امتلاء الكأس الشوقُ واللهفة، ومع امتلاء النفس بالنشوة تفرغ الكأس فليست بعد ذلك إلا زجاجة للتحطيم!

أتريد الطبيعة تعلمنا فى أسلوب من أساليبها الصارمة أن السعادة حق السعادة هى الحرمان، والشوق، واللهفة؛ لأن مع كل ذلك الأمل؛ وأن الظفر، والوجدان، وحصول المطلوب المتمنَّى - أول التعس والشقاء؛ لأنه آخر الأمل!

ما أقساها حقيقة لو علم الناس!

كذلك كانت نور كلدى تحدث نفسها حين خطر فى خيالها أركماس وقد هيأت أسبابها للرحلة الأخيرة... إلى القاهرة، حيث تأمل أن تجد ولدها طومان باى!

إنها منذ ثلاثين عامًا على الطريق، لا تفكر فى غير طومان، ولا يتراءى لعينيها فى اليقظة والمنام غير صورته؛ أما اليوم وقد أوشكت أمانيها فى لقائه أن تتحقق فقد خطرت على قلبها

صورة أخرى، فتذكرت أركماس، أركماس زوجها الحبيب الذى فارقها وخلف فى أحشائها بضعة منه منذ أربعين عامًا أو يزيد، لم تسمع عنه فيها خبرًا أو تقف له على أثر. . يا ليتها وليته. . . ولكن لا، إن مثل ذلك التمنى ضرب من المحال؛ لقد عرفت فى هذه السنين الثلاثين ما لم تكن تعرف من علم الحياة؛ حسبها من الأمل أن تلقى ولدها طومان باى!

***

وعلى الطريق بين مرج دابق وحلب كان شخص آخر يفكر من أمره فى مثل ما تفكر فيه نوركلدى. . .

ذلك هو أرقم، أركماس؛ لقد خلف وراءه فى بلاد الغور منذ أربعين عامًا أو يزيد، امرأة فى أحشائها جنين يرتكض، امرأة كان يحبها ويتمنى لها ولنفسه الأمانى؛ ولكن دم أبيه المطلول كان يصرخ دائمًا فى أذنيه يطلب منه أن يدرك ثأره من قاتله؛ فلما أمكنته الفرصة أو خيل إليه أنها ممكنة، خلف وراءه زوجته وجنينها وراح يقتص الأثر ليدرك الثأر، آملاً أن يعود إليها بعد أن يغسل الدم بالدم؛ وقد مضت تلك السنون الأربعون وهو لا يفكر إلا فى تلك الغاية التى غادر من أجلها بلاده؛ لقد شغله ما مر به من الأحداث عن ماضيه، وعن زوجته، وعن ذلك الجنين؛ وقد أشرف على الموت ذات مرة فى سبيل ذلك الثأر، ولكنه نجا؛ أو لعله قد مات حقًا ثم

بُعث، فقد ألقاه الفرس عن ظهره في اللحظة التي هَمَّ فيها أن يقدّ عدوه بالسيف قدّاً، وسقط تحت أخفاف البعير الهائج فهشم أضلاعه، وحطم فكه، ورضرض فخذيه، فلولا أن القدر كان يدخره ليدرك ثأر أبيه لصار يومئذ عجينة من لحم ودم، بل لقد صار يومئذ عجينة من لحم ودّم، ثم نُفخ فيه الروح ثانية وعاد إلى الحياة، وسأله منقذه عن اسمه، فنطق به ولم يكد، مما به من الضعف والإعياء، فلم يسمع محدثه من مقاطع اسمه إلا «أركم»، وصار ذلك اسمه من بعد، لا يعرفه الناس إلا باسم أرقم المسيخ، ثم أرقم الرمَّال؛ وما كان ينبغي له أن يعود إلى اسمه الأول؛ فليس هو اسمه بعد؛ لقد مات أركماس تحت أخفاف البعير الهائج، فهو منذ ذلك اليوم شخص آخر، هذه السحنة المنكرة، وهذا الوجه البشع، وذلك الفك المائل، وهاتان الساقان، وهذا البطن . . . ذلك كله ليس من أركماس الرشيق الخفيف الحركة المعتدل القد المشرق الخد، الدائم الابتسام وإن لم يبتسم؛ من ذا يراه الساعة فيظنه ذلك الفتى الذي كان؟ لا أحد، حتى لو أن أباه وأمه قد بُعثا من موت لأنكرا صورته ولم يصدقا أنه أركماس؛ إنه ليخشى أن يظن أبوه في ذلك العالم الثاني أن ولده أركماس لم يدرك ثأره وإنما أدركه شخص آخر . . . ؛ لأن أرقم الذي قتل قنصوه الغوري لا يمكن أن يخطر في وهم أحد أنه هو أركماس! . . .

ولكن الناس فى العالم الثانى يعرفون من حقائق الأشياء ما لا يعرف الناس فى هذا العالم . . . فليس ينبغى أن يشك فى أن أباه قد عرف الحقيقة ونعم باله ، لأن ولده قد أخذ له بثأره . . .

إنه الساعة على الطريق إلى حلب ليستجم أيامًا قبل أن يبدأ رحلته إلى . . . إلى الغور من بلاد القبج ، حيث يأمل أن يجد زوجته تنتظر ، وأن يجد له ولدًا ، أو بنتًا ، وأن تضمه وأسرته دار ، بعد طول السفار !

ولكن لا ، لا ؛ لقد مات أركماس منذ بعيد ، أما هو فإنه أرقم ، أرقم المسيخ ، أو أرقم الرمَّال ؛ فلن يصدق أحد فى بلاد الغور حين يراه أنه أركماس ؛ فأين صورته اليوم من تلك الصورة التى يعرفها الناس؟ سينكره ولا ريب كل من يراه ، حتى زوجته نور كلدى ، وحتى ولدها الذى لم يره قط ؛ سينكر كل منهما أن يكون ذلك المسيخ المشوه الخلق هو أركماس ؛ وقد تعرفه نور كلدى ولا تنكره ، فهل يرضيه أن يفرض عليها العيش معه ، تطالع منه كل يوم هذه الخلقة البشعة ، وهذا الوجه المنكر ، وهى زينة بنات الغور ، وأجمل نساء الحلة؟ . . .

«زينة البنات ! . . . وأجمل النساء ! . . .» ما هذا الهراء؟ لقد مضى منذ فارقها أربعون عامًا أو يزيد ؛ فإنها اليوم لعجوز قد أشرفت على الستين أو جاوزتها . . . نعم ، ذلك حق ؛ ولكن صورة أركماس مع ذلك لم تزل فى خيالها صورة فتى

رشيق، خفيف الحركة، معتدل القد، مصقول الخد، دائم الابتسام وإن لم يبتسم؛ وإنها لأعز عليه من أن يطلع فى مرآتها بصورته هذه البشعة فيمحو تلك الصورة الجميلة التى بقيتْ لها من سعادة ذلك الماضى البعيد!

لا لا؛ لقد مات أركماس، مات منذ بعيد تحت أخفاف البعير الهائج فى دروب القاهرة وإنما أنشره الله من موت لغاية واحدة، هى إدراك الثأر، وقد أدركه واستراح وأراح الناس من مظالم قنصوه الغورى، وليس فى العالم اليوم من يذكر أركماس، غير امرأة وولدها، إن كانت هى وولدها لم يزالا كلاهما أو أحدهما فى الأحياء؛ أما أرقم فإن كثيرًا فى القاهرة يعرفونه ويذكرون اسمه، وإن كثيرًا منهم ليتمنون أن يعود؛ فليعد إلى القاهرة، وليجعل أول قصده إلى شيخه أبى السعود الجارحى يستغفره من بعض ما كان منه، ويسأله أن يأذن له فى شرف الصحبة حتى يلقى الله؛ لقد مات قنصوه الغورى، فلا شىء هناك بعد يمكن أن يفسد بين شيخه وبينه وقد انقطع ما بينه وبين الناس من أسباب المحمدة والمذمة. . .

❊❊❊

ولوى أرقم عنان فرسه فلم يدخل حلب، ولحق بقافلة من المهاجرين فصحبها على الطريق إلى دمشق، فالقاهرة. . .



أب وأم

أناخ الركب على باب دمشق ليتزود لما بقى من رحلته بعض الزاد من أسواق دمشق؛ ولكن فلول الجيش المنهزم لم تجد فى دمشق زادًا لمسافر ولا لمقيم، فقد خشيت المدينة العريقة أن تقع بين نارين من العدو الغازى ومن الفلول المرتدة، فأغلقت أبوابها دون هؤلاء وأولئك جميعًا. . . لعلها أن تجد فى استقلالها بعض السلامة!

وخيمت القافلة على الطريق لتستريح يومًا أو يومين ثم تستأنف رحلتها إلى القاهرة، واجتمع الرجال لصلاة العشاء على ظهر البادية، ثم استداروا حلقات يسمرون قبل أن يأخذ النوم عيونهم، وجلس أرقم بين السامرين يتحدث وهم يستمعون إليه وقد عرف منهم من عرف أنه أرقم الرمَّال صاحب الحلقة المشهورة فى بساتين القبة!

ووجد أرقم نفـاقًا لبضـاعتـه حـين ظن أنه قد انقطع مـا بينه وبين الناس من صلات، فجعل فنه ملهاة الفراغ ومسلاة الهم للقافلة المكدودة من مشقات السفار وأحداث الحرب، فكلما أناخ الركب فى مرحلة من مراحل الطريق للراحة، فرش أرقم منديله وبسط عليـه الرمل وراح يتـحـدث إلى كل واحـد من أصـحابه على هواه، لا يرجو إلا أن يجفف دمـعة المحـزون، ويمسح على قلب البائس، ويهب لليـائس الصبر والأمل؛ وذلك كل حسبه من الأجر على بضاعته!

وكان الركب على أبواب غزة، حين بدا لبعض نساء القافلة أن يدعون أرقم الرمَّال إلى خيمتهن ليكشف لكل واحدة منهن عن بختها . . .

ورأى أرقم بين النسـاء عجوزًا فى الستين أو هى جاوزتهـا، فى عينيهـا بريق وعلى جبينهـا تاريخ مسطور؛ فلم تكد عيناه تلتقـيان بعينيهـا حتى أحس كأنما تفضى إليـه عيناها بسر من أسرار ماضيه البعيد، فحدق فيها مدهوشًا لا يكاد يصدق أن شيئًا مما يخطر فى باله يمكن أن يكون، ثم أنغض رأسه وراح يخط بأصبعه من الرمل صـامتًا وعيناه لا تطرفان وخـواطره تطوف به فى الآفاق البعيدة ثم تؤوب . . .

ورفع رأسه بعد فترة وهو يسأل نفسه:

- أتكون هى نور كلدى؟ فـمن أين جـاءت؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

ثم أطرق ثانية وعاد يفكر، وطال إطراقه وفكره فلم ينتبه إلا بعد حين، ثم رفع رأسه وحدّق فيها بعينين جامدتين وفى نفسه ريب وعلى شفتيه حديث طويل لم ينبس منه بحرف!

ولكن عينى العجوز لم تطرفا ولم تنفرج شفتاها عن كلمة. لئن كـانت هى نور كلدى إنهـا إذن لا تعرفـه. وطال تحديقـه وطال صـمـتـهـا، وانتـابهـا القلق من وجـهـه الجـامـد وعـينيـه الشاخصتين، فسألته فى لهفة:

- أليس عندك ما تحدثنى به يا سيدى من أنبائك؟

وردّه صوتها من الشك إلى اليقين فلم يدع الفرصة تفلت من يده، وقال فى صوت يختلج:

- نعم يا سيدتى: اسمك نور كلدى، من بلاد الغور وراء جبال القبج، وقد فارقك حبيب من أحبائك منذ سنين بعيدة، إلى حيث لا تعرفين ولا تطمعين أن تعرفى، ولعلك أن تلقيه يومًا...

شحب وجه نور كلدى وتتابعت أنفاسها وهى تقول فى ذهول:

- نعم، فبحق من أنبأك الغيب يا سيدى إلا ما هديتنى إليه، إنه . . .

قال مقاطعًا :

- إنه زوجك أركماس ! . . .

قالت المرأة وقد زاد شحوبها وأخذها البهر :

- نعم، زوجى أركماس، وولدى ! . . .

كأنما أعداه ما بها من الشحوب حين لفظت كلمتها الأخيرة، فبدا وبدت كأنهما تمثالان من الكبريت الأصفر، وبردت أطرافه وتوقفت أصبعه عن الحركة وهو يقول :

- صه ! لغير هذا المجلس يا سيدتى تتمة الحديث عن زوجك وعن ولدك !

ثم أخفى وجهه فى راحتيه وأخذته مثل الغشية وهو يردد فى همس خافت :

- ولدى ! . . . ولدى ! . . .

ثم ثاب إلى نفسه بعد برهة ليدير عينيه فيمن حوله من النساء قلقًا ثم يعود إلى صاحبته فيطيل النظر . . . وما يزال الصدى يرن فى أذنيه :

- ولدى ! . . .

وكأنما خشى أن يفتضح، فطوى منديله ونهض لم يتحدث إلى واحدة من النساء بشىء، وخلا بنفسه مطرقًا لا يكاد يستجمع فكره من دهش المفاجأة، إذن فهى نور كلدى، وإن لها ولدًا تفتقده كما تفتقد أباه... إلى أى طريق تسوقه المقادير؟

فلما كانت العشاء الآخرة، نهض أرقم يدب على الأرض حتى بلغ خيمة نور كلدى، فناداها...

وسمعت المرأة فى هدأة الليل صوتًا يهتف باسمها، فكأنما سمعت صوتًا من وراء السنين أو من عالم الأحلام، فخفّت إلى باب الخيمة فأزاحته ونظرت، فإذا أرقم الرمّال...

وجلس وجلست تستمع إليه وقد أجمع أمره على أن يخفى من أمره ما لابد أن يخفى، حتى لا يمحو من خيالها تلك الصورة الجميلة التى بقيت لها من سعادة الماضى؛ ولكنه أراد أن يعرف.

قالت نور كلدى فى قلق:

– سيدى؛ إن لك أسبابًا وثيقة إلى الغيب، وأنا امرأة مقطوعة بائسة، فهلا أنبأتنى بما عندك من خبر أركماس، وطومان باى.

– طومان باى؟

- نعم، ولدى طومان باى الذى فارقته منذ ثلاثين عامًا أو يزيد فلم أرَه ولم يرنى!

- ثلاثين عامًا؟ . . .

- نعم، وأمه على الطريق ضالة مقطوعة، وهو على عرش مصر نائب السلطان! . . .

يا ويحه! إذن فهو أبو طومان باى! وكان قنصوه الغورى يزعم أنه عمه ولا عم له. . . وأبوه أركماس يتربص للغورى ليأخذ منه بثأره، وولده فى حجره. . . . ويجتمع فى مكان وتحت سقف ألدُّ الأعداء وأعز الأحباب. . . وينفذ عدل الله، ويجلس طومان باى على العرش سلطانًا، وتلقاه أمه، ويلقاه أبوه، كما لقى يوسف الصديق أبويه على العرش، ولكن كم دون ذلك من الأهوال؟».

***

كان أرقم كالمغشى عليه يناجى نفسه. تلك العجيبة التى انبثقت له من حوادث الأيام لم تكن تخطر له على بال، فكأنما طار صوابه فلم يفكر فيما يقول، ولم يذكر ما أجمع عليه رأيه من الكتمان، وفاضت عواطفه فاجتاحت كل ما أقام فكره من سدود وقيود؛ حتى المرأة التى تجلس بين يديه صامتة تصغى إليه -لم تكن فى باله ولا فى مرأى عينيه، فلم يبالِ ما يقول!

على أن نور كلدى لم تسمع ما سمعت منه على الوجه الذى أراد، ولم يخطر فى بالها قط أنها تسمع حديث أب عن ولده، فلم يكن ذلك الشيخ الجالس بين يديها يحدثها إلا رمّالاً حاذقًا يقرأ سطور الغيب، وقد رأت من أمارات اليقين فى حديثه ما لا يدع فى نفسها سبيلاً إلى الشك فيما تسمع منه، فما يعرف أحد من الناس أن لها زوجًا، وأن اسمه أركماس، وأن لها حبيبًا قد فارقها منذ سنين بعيدة، وأن ولدها لا عم له . . . كل ما يعرفه الناس مما حدثها به ذلك الرمّال، أن اسمها نور كلدى؛ فمن أين لهذا الشيخ ما حدثها به من تلك الأنباء إلا أن تكون له أسباب وثيقة إلى الغيب؟ وإنها إلى ذلك لتسمع صوته فتطمئن إليه، إنه صوت لم تسمع مثله فيما تسمع من أصوات الناس، وإنها لتجد فى نبره ذلك السحر الذى يجده العاشق فى صوت محبوبه، فتحس خدرًا لذيذًا يهيئ نفسها لأن تصدق وتؤمن! . . .

واستراحت إلى ما سمعت من نبوءة الشيخ، فشكرت له ونهضت إلى متاعها ثم عادت وفى يدها دنانير تريد أن تدفعها إليه، فترقرقت دمعتان فى عين الرجل؛ هذه الأم تريد أن تأجر زوجها على ما ساق إليها من البشرى بقرب اجتماع شملها وشمله، بولدها وولده، يا لها سخرية!

وقال أرقم فى صوت مختنق وهو يدفع يدها:

- سيدتى! هل تأذنين لى أن أكون منذ اليوم صاحبًا لا يطمع فى أجر على معروفه؟

قالت مترددة:

- سيدى!...

قال وفى صوته رجاء:

- إنه دين علىّ للأمير طومان باى، إنه... إنه صديقى!

وجاوبته دمعتان من عينى المرأة!

واستأنف الموكب رحلته إلى القاهرة، وكانت راحلة أرقم تسير إلى جانب راحلة نور كلدى على طول الطريق، وخيمته إلى جانب خيمتها فى كل منزلة، وكان طعامه مما تهيئ يدها...

***

زوجان قد افترقا جسدًا والتقيا فى عاطفة، فإنه وإنها ليفكران فى شىء واحد، وإنه وإنها لمجتمعان على أمل، وإن فى خياله وخيالها صورة، وإن أحلام الليل لتطرقهما فى وقت معًا تعرض على عينيه وعلى عينيها جميعًا صورة طومان باى؛ أما صورته فى عينى أرقم فكما رآه وعرفه وجلس إليه وسمع حديثه، وأما صورته فى عينيها فصورة صبى فى العاشرة قد استدارت لحيته وعلى رأسه عمامة وقد جلس على العرش!



فى زحام المعركة

قام الأمير طومان باى نائب السلطنة بتدبير أمر الملك فى القاهرة قيامًا عظيمًا، فأبطل كثيرًا من المكوس، وأفرج عمن فى الحبوس من مظاليم الغورى، وضبط الأمن والنظام، وأشرف بنفسه على الصغير والكبير من أمر الدولة، وبث العيون يحصون على تجار الروم حركاتهم، وقبض على جماعة منهم فأودعهم معتقلات الأسر ووكل بهم، وكان له كل يوم خرجة يجوس فيها خلال المدينة فى كوكبة من جنده وبطانته، ليحفظ للحكومة المركزية هيبتها فى عيون الناس، فلا يبيح أحد لنفسه أن ينتهز فرصة للشغب أو يحاول فتنة ما، وأصدر أمره إلى المماليك أو يخرجوا إلى المدينة بسلاح، مخافة فتكهم وهتكهم وعدوانهم على الشعب، فصلح بذلك كله حال الناس، واستقامت الأمور واطمأنت الحياة بالأحياء، وهتف المصريون جميعًا باسم الأمير طومان باى ودعوا له فى السر والعلانية . . .

لم يكن يقلق الناس إلا شىء واحد قد نغص عليهم هذه الطمأنينة التى كفلتها لهم حكومة الأمير طومان باى، ذلك هو انقطاع الأخبار عن حركات الجيش الذى خرج تحت راية السلطان للدفاع عن حدود الدولة، فلم يسمع عنه الناس منذ خرج إلا إشاعات تتطاير على الأفواه لا يدرى أحد أين مصدرها، فتثير الإشفاق والقلق وتبث الرعب فى أنحاء المدينة، كأنما كان هناك من يعنيه أن تضعف القوة المعنوية فى نفوس أهل هذه المدينة الصابرة وتنحل عزيمتهم، فينالهم بالرعب والفزع قبل أن ينالهم العدو بسيفه!

ويلغت تلك الإشاعات مبلغها من نفوس الناس، حتى أعظموا قوة ابن عثمان وشدة بأسه، وبالغوا فى وصف عتاده وجنده، فآمنوا بالهزيمة قبل أن تبلغهم أنباء الهزيمة!

ثم لم تلبث الأنباء أن جاءتهم بما كان بين العسكرين فى مرج دابق، وهتف الناعى بأسماء القتلى والجرحى والمفقودين والمأسورين، ونعى إلى المصريين سلطانهم الشيخ فيمن نعى من الأمراء والقواد والجند والإخوة والأبناء، وقام فى كل دار مأتم!

وأيقن المصريون يقينًا لا شبهة فيه أن دولتهم قد دالت، وأن خيل الروم ستطؤهم مصبحة أو ممسية، وستحصدهم مدافع

البارود وقذائف النار حصداً فلا تُبقى منهم ولا تذر؛ ومن ذا يثبت للبارود والنار، ذلك السلاح الجديد الذى يصفه من يصف ممن شهد موقعة مرج دابق، فكأنما يصف معركة قد نشبت فى طبقة من طبقات الجحيم تتهاوى كرات النار فيها عن اليمين وعن الشمال فتحصد الفرسان والرجّالة وهيهات منها السلامة!

وضعفت نفوس المصريين وأصابها الوهن حتى لو أن صيحة أخذتهم من جانب الوادى لمضوا على وجوههم فارين لا يردهم إلا البحر!

وفعلت الدعاية العثمانية بهم ما لا يفعل السيف والنار . . . وكان الذى تولى كِبْرَ هذه الفتنة منهم طائفة من أصحاب خاير بك وجان بردى الغَزالى وخشقدم الرومى، إلى طوائف من أبناء الروم قد اجتازوا الحدود متنكرين فى زى الأعراب فانبثوا فى الأسواق والمساجد ومجتمعات السمر، يتحدثون فيسرفون فى الحديث، والمصريون يستمعون إليهم فتنخلع قلوبهم من الرعب والفزع!

وكان النواح على القتلى والأسرى والمفقودين فى كل درب من دروب القاهرة، كأنه تأكيد لما يتحدث به هؤلاء من الأنباء المروعة . . .

رجل واحد لم يهن ولم يضعف ولم تنل منه تلك الأنباء، فراح يُعد عدته للدفاع عن مصر والشام، ويستنفر المصريين والعرب والمماليك ليذودوا عن حرماتهم وأعراضهم وذراريهم ويقفوا صفًا فى وجه ذلك العدو الزاحف بخَيْله ورَجِله، وبسيفه وناره... ذلك هو الأمير طومان باى!

ولم يكن لمصر يومئذ سلطان، فاجتمع أمراء المماليك فى القاهرة على مبايعة الأمير طومان باى ليجلس على عرش مصر خلفًا لعمه قنصوه الغورى الذى غاب أثره بين رم القتلى فى البادية فلم يعرف أحد أين كان مثواه الأخير.

ولكن من ذا يبايعه، والخليفة العباسى أسير عند ابن عثمان، وقضاة القضاة ومشايخ الإسلام قد خلا مكانهم فى مصر منذ خرجوا فى ركب السلطان فلم يعودوا، والأمراء العظام قد وقع منهم من وقع فى الأسر وسقط على الغبراء قتيلاً من سقط، ولا تزال طائفة منهم على الطريق بلا زاد ولا راحلة!

وماذا يدفع طومان باى للجند من أعطيات البيعة وقد أفرغ الغورى خزائنه واحتمل ما فيها لتكون معه فى رحلته تلك المشئومة، حتى اللواء السلطانى والتاج والحلة والخاتم، ليس فى القاهرة منها شىء!

ثم ماذا يغريه بالسلطنة اليوم وقد ذهب عزها فلم يبقَ من معناها إلا تكاليف لعل أهونها أن يبذل دمه!

قالت زوجته شهد دار:

- لمثل هذه التكاليف يا أمير تُفتقد الملوك، ولست أهلاً لحبك إن لم تحمل أعباءها راضيًا موقنًا أن أول الواجب أن تموت وأن تُذبح امرأتك وابنتك بين يديك فلا تهن!

وبرقت في عينيه دمعة، وضمها إلى صدره وهو يقول:

- سأحملها راضيًا يا شهد دار، موقنًا أن أول واجبي أن أموت لتعيشي وتعيش ابنتنا هذه نور كلدى الصغيرة؛ لتذكريني بها وتذكري أمي... ولكني أرى التريث حتى يعود سائر الأمراء، ويعود مولاي الأمير محمد ابن السلطان، فإنه أحق بالعرش مني!

قالت مصممة:

- إن يكن محمد ابن الغوري أحق بالعرش منك لأنه ابن السلطان، فإنه لم يزل صبيًا لا ينهض بواجبها، وإنما السلطنة اليوم تكليف ومشقة وأولُ واجبها الموت؛ ولأنت أحق بشرف الموت في سبيل الدفاع عن مصر من ذلك الصبي الناعم، فاحفظ فيه أباه ولا تقدمه إلى الموت وعلى رأسه التاج!

قال وأخفى فى راحتيه عينين مغرورقتين بالدمع :

- سأحملها ، سأحملها راضيًا يا شهد دار؛ لأدفع عن مصر ، وعنك ، ولو بذلت دمى!

ثم نهض ليلقى أمراءه ويستمع إليهم ويبادلهم الرأى؛ وكان الأمراء على الإجماع فى اختياره للعرش!

وفى كوم الجارح ، فى خلوة الشيخ أبى السعود الجارحى وبين يديه ، بايعه الأمراء والجند ، وبايعه ابن الخليفة نائبًا عن أبيه ، وبايعه نواب القضاة ، وبايعه المصريون جميعًا أشرافًا وسوقة؛ ودان له الزعر والعربان ، واجتمعت على محبته القلوب؛ ونادى المنادى فى الأسواق باسم السلطان الأشرف طومان باى «الثانى» فتجاوبت الزغاريد من طاق إلى طاق ، ونسيت القاهرة ساعة من نهار ما تتوقع أن يحل بها من البلاء والشر! .

***

كان ذلك فى القاهرة ، أما هنالك فكان السلطان سليم فى مجلس وزرائه قد جلس بين يديه خاير بك وجان بردى الغزالى وخشقدم الرومى ، يداولون الرأى بينهم فيما يكون من أمر الخطة التالية . . .

قال السلطان سليم:

- أما أنا فحسبى أن ترفرف رايتى على ربوع الشام ويكون أميرها من قبلى خاير بك، جزاء لما قدم إلينا من المعونة؛ وليس لى فى امتلاك مصر أرب ومن دونها الفلاة وأهوال الطريق!

فزم خاير بك شفتيه قائلاً:

- إن مصر اليوم يا مولاى على مد ذراعك، فلو شئت لكان لك ثمة العرش والقصر والقلعة، وبسطت سلطانك على ضفاف النيل، وملكت الحرمين وسواحل بحر الهند؛ وهيهات أن تقوم لجيش مصر قائمة بعد تلك الهزيمة وقد تفانى أمراؤها فليس هنالك إلا طومان باى، وما أراه أهلاً للدفاع!

قال جانى بردى:

- فإن كان طومان باى هو كل هم مولاى فسأكفيه أمره؛ وما أظنه يطمع أن يكون له العرش حين يتراءى له جان بردى الغزالى؛ فإن شاء مولاى كنتُ فى غد على طريق إلى القاهرة!

قال خاير بك قلقًا:

- صبرًا يا جان بردى، فسندخل القاهرة مجتمعين على رأى، فلا يشغلك من أمر طومان باى شىء؛ ولعله يكون أبعدَ

أملاً عن العرش حين يرى خاير بردى معًا . . .

وتبادل الرجلان نظرتين لم يخف مغزاهما على السلطان، فقال باسمًا :

- دعه يا خاير بك وما يدبر من أمره، وليذهب إلى القاهرة إن شاء، فإنى لآمل أن نبلغ بتدبيره ما نريد، فيكون لك عرش مصر وله عرش الشام . . .

غامت سحابة من الهم على وجه جان بردى؛ أفمن أجل أن يكون لخاير بك عرش مصر بذل جان بردى ما بذل وخان وطنه وغدر بسلطانه؟ يا لها خاتمة! ولكنه حتى اليوم لا يزال مستطيعًا أن يبلغ بتدبيره ما يريد لنفسه وإن لم يرضَ السلطان سليم ولا خاير بك؛ فسيقصد من فوره إلى القاهرة يطلب لنفسه العرش، ويدع لخاير بك الندم واللهفة!

وأصبح جان بردى على الطريق إلى القاهرة، فما كاد يصل حتى كان طومان باى قد بلغ العرش وبايعته مصر كلها سلطانًا فلا مطمع لجان بردى فى شىء مما كان يأمله، فأكل الغيظ قلبه وعاد يفكر فى تدبير جديد . . .

وكان السلطان طومان باى قد أجمع خطته على أن يجعل خط الدفاع الأول عن مصر عند مدينة غزة، على حدود

فلسطين، ريثما يهيىء وسائله للدفاع عن القاهرة وما يليها من البلاد. وعرف جان بردى الغزالى خطة السلطان وما أجمع عليه رأيه، فرآها فرصة سانحة لتدبير جديد، فعرض أن يتطوع لقيادة الجيش الذى يتأهب للمسير إلى غزة للدفاع، فأباها عليه السلطان طومان باى وارتاب فى نيته، ولكن أمراء السلطان لم يرتابوا وحملوه على الرضا، فأولاه قيادة الجيش طاعة لمشورة أمرائه وندب له الجند للدفاع...

وخرج جان بردى على رأس الجيش المصرى إلى غزة، فلم يكد يتراءى له جيش السلطان سليم حتى أسلم له جان بردى جنده ورايته، وعاد إلى القاهرة عجلان فى زىٍّ منهزم قد أفلت من منيَّته، ومثل بين يدى السلطان طومان باى يصف له ما لقى من شدة بأس ابن عثمان وقوة عسكره!

وكان الجيش العثمانى فى أثره يجتاز الحدود إلى مصر!

قال السلطان طومان باى:

- ألهذا بعثتك على رأس الجيش يا جان بردى؟

قال جان بردى فى لهجة المعتذر:

- لو رأيت يا مولاى ما حشد الروم من الجند والعتاد، وما تزودوا به من أدوات التحطيم والدمار، لرأيت جيشًا لا يسلم من بطشه أحد من عدوه!

قال السلطان مؤنبًا وعلى شفتيه ابتسامة غيظ وحنق :

- ومع ذلك فقد سلمت أنت يا أمير !

***

وصلت القافلة التى فيها أرقم ونور كلدى إلى القاهرة ، والقاهرة يومئذ فى أمر مريج ، فقد بلغ جيش الروم حدود مصر وأوشكت خيله أن تطأ أرض الوادى الذى استعصى على الفاتحين فلم يدخله جيش أجنبى منذ استقل عن الدولة العباسية لعهد ابن طولون ، حتى التتر والصليبيين على ما اجتمع لهم من أسباب القوة -قد ارتدوا جميعًا عن بابه مقهورين لم ينالوا منه منالاً ونالت مصر منهم منالها ؛ واليوم يوشك هؤلاء الترك أن يقتحموه ليتخذوا المصريين عبيدًا وخَوَلاً وكانوا أصحاب السلطان والسيادة . . .

فى تلك الأيام الرهيبة ، فى هذه المدينة التى تموج بالخلائق من كل جنس ، ويحتشد فيها الجند للدفاع عن كل باب ، وتزدحم فيها أقدام المحاربين على كل طريق ، ويتوزع الناس فيها الهم والقلق على المصير المجهول ، كان يجلس على عرش مصر طومان باى ، ابن نور كلدى وأركماس ، قد شغله همُّ الدولة عن هَمِّ نفسه ، فلم يخطر على باله قط أن على باب

المدينة فى ذلك اليوم رجلاً وامرأة قد أبليا الدهر سعيًا إليه، وقطعا مفازة العمر شوقًا إلى لقائه، وليس بينهما اليوم وبين أن يلقياه إلا مسيرة ساعة من شمال المدينة إلى جنوبها، فلو شاء لاجتمع بثلاثتهم شملُ أسرة لم يجتمع لها شمل منذ أربعين عامًا أو يزيد. . .

ها هو ذا فى مجلسه من قصر القلعة بين زوجته خوند شهد دار، وطفلته الظريفة نوركلدى الصغيرة، مستغرقًا فى الفكر لا يكاد يعرف مَنْ حوله!

وهذان شيخ وشيخة يضربان فى طرق القاهرة قد نال منهما الإعياء واستغرقهما الفكر، يتدافعهما زحام الناس يمنة ويسرة فلا يكاد يخلص لهما الطريق بضع خُطا. من ذا يراهما فيخطر فى باله أن هذا الشيخ وهذه الشيخة هما أركماس أبو السلطان طومان باى، وأمه نور كلدى!

ولكن طومان باى اليوم ليس لأمه وأبيه ولا لأحد من أهله، إنه اليوم يحمل من همّ الدولة ما لا يدع له فراغًا من الزمن أو من العاطفة للتفكير فى شأن أمه وأبيه!

يا عجبًا! لقد عاش فى هذه المدينة واحدًا من أهلها عشرين عامًا أو يزيد، يلقى الناس ويلقونه، ويتراءى لكل من يريد أن

يراه، ويتحدث إلى كل من يريد أن يتحدث إليه، ويستمع إلى كل من يريد أن يحدثه، فلو أرادت أمه، أو أراد أبوه فى يوم من تلك الأيام الخوالى أن يلقاه أو يتحدث إليه لما أعياه فى أى وقت شاء أن يلقاه أو يتحدث إليه، ولكن أباه يومئذ لم يكن يدرى أنه أبوه، فلم يكن يريد، ولم تكن أمه تدرى أينَ تلقاه، فلم تكن تطمع؛ أما اليوم فإنهما يدريان، ويريدان، ولكنهما لا يستطيعان!

من لطومان باى بأن يعرف أن أمه التى فارقها منذ ثلاثين عامًا ولا يزال يذكرها ويحن إلى لقائها هى اليوم منه على قرب قريب، فلو شاء لسعى إليها فلقيها فتحدث إليها ساعة أو بعض ساعة ثم عاد لشأنه؟

من له بأن يعرف أن صاحبه أرقم المسيخ، خادم خلوة الشيخ أبى السعود الجارحى والرمَّال الحاذق الذى يتحدث عن الغيب كأنه يقرأ فى لوح مسطور، هو أبوه أركماس؟ . .

من له بذلك، ومن لنور كلدى؟ . . .

ولكن الوهن لم يتطرق لحظة إلى نفس أمه العجوز الشابة، فإنها اليوم لأدنى أملاً فى لقائه، إنه اليوم منها على مد الشعاع، فلولا هذه الحيطان التى تفصل بين بيوت الناس لرأته

ورآها، ولكنها لابد أن تراه يومًا ما، أو لا، فحسبها أن تسمع عنه كل يوم فكأنها تراه، حتى يحين المكتوب!

واتخذ لها أرقم منزلاً فى سوق مرجوش يطل على طريق الموكب السلطانى حين يغدو أو يروح، لتراه أمه ويراه أبوه إذا بدا له ذات مرة أن يغدو فى موكبه أو يروح. واتخذ أرقم له حجرة في ذلك المنزل إلى جانب الباب، وراح يدبر أمره وأمر صاحبته. . . .





غبار الحرب

قال عز الدين البزاز لأصحابه وهم جلوس على مصطبة دكانه فى سوق مرجوش :

- إن الشر والله ليتربص بنا من سوء تدبير أولئك الجركس؛ فهذه خيل العدو على باب الديار، ولا يزالون مختلفين لا يريدون أن يخفّوا للدفاع إلا والسيف فى رقابهم!

قال أبو بكر الرمَّاح :

- إنه المال وشهوة الإمارة، فلا ترى جنديّاً منهم يرضى أن يخرج للحرب إلا إذا ضاعف له السلطان الرزق، ولا ترى سيداً إلا طامعًا فى ولاية يتولاها أو إمارة يتأمَّر عليها قبل أن يأخذ أهبته لقيادة عسكره؛ وإنى لأعجب للسلطان طومان باى كيف رضى أن يحمل أعباءها وليس حوله إلا هؤلاء الحمقى يوشكون بسوء تدبيرهم أن يُسلموه إلى عدوه ويبيحوا

الروم أرض الوطن ؛ كأنما خُيل إليهم أن سيكونون تحت راية الروم سادة، وما لهم والله عند ابن عثمان إلا السيف!

قال أرقم الرمَّال وقد بلغ منه الغيظ :

- فهل كانت مصر لهؤلاء الجركس وحدهم حتى يكون عليهم وحدهم عبء الدفاع ؛ فأين المصريون، والعربان، وفتيان الزعر؟ ولماذا لا يكتِّبون كتائبهم للدفاع عن حريمهم والذود عن بلادهم، وإنهم لأهل لأن يردوا جيش الرومِ فُلولاً مبعثرة على أديم الصحراء لو اجتمعت عزيمتهم؟

قال عز الدين :

- هذا هو الحق ؛ فما طرق هذا العدو بلادنا من أجل الجركس، بل من أجل مصر ؛ وما هؤلاء الجركس فى مصر؟ هل هم إلا قلة حاكمة لا يعنيها إلا حظها من ترف العيش وأسباب التنعم ولو مات هذا الشعب ووطئته الخيل وهتك حريمه جند العدو، وإنما علينا نحن واجب الدفاع عن حريمنا وعيالنا وأموالنا وعن أرض هذا الوطن!

قال أبو البركات الأعرابى ساخراً :

- وعن عرش السلطان!

قال أرقم محتداً :

- نعم، وعن عرش السلطان، فهلا قلتها يا أخا العرب وعلى العرش قنصوه الغورى ومن سبقه من السلاطين الذين أكلوا هذا الشعب لحمًا وشحمًا وتركوه عظمًا معروفًا على الطريق؛ فإن على عرش مصر اليوم رجلاً غير أولئك، فلولا هذه الفتنة الناشبة لرأيتم كيف ينهض بالحكم فيسوسها سياسة عمر!

قال الأعرابى:

- ومن لنا بأن يظل طومان باى على العرش فلا يخلعه جان بردى الغزالى أو خاير بك؛ وإن شيوخ الأمراء ليتربصون به والعدوُّ على الأبواب يتربص بنا وبهم!

قال أرقم:

- فإننا نستطيع أن نحمى سلطاننا من غدر أولئك الأمراء ونحمى مصر من ذلك العدو!

قال الأعرابى وقد تهيأ للانصراف:

- قد يكون ذلك لو أن السلاطين لم يضربوا الذلة على هذا الشعب حتى ماتت فضائله وغلبه اليأس، فليس يشق عليه أن تكون الدائرة عليه وعلى أعدائه فى وقت معًا!

***

وتواترت الأنباء باقتراب العدو ولا يزال الأمراء مختلفين قد فرقت بينهم المطامع ، ولا يزال المماليك غاضبين يريدون أن يضاعف السلطان لهم الرزق ؛ والسلطان الشاب يحمل وحده عبء التدبير ويرسم خطة الدفاع .

ودنا جيش السلطان سليم من بلبيس ، وهَمَّ أن يخرج السلطان للقائه فثبطه أمراؤه ، وأمر أن تحفر الخنادق فى طريقه عند الخانكاه فلم يجد من يطيع أمره ، وأشار بأن تحرق مخازن المؤن فى شمالى المطرية قبل أن يستولى عليها العدو فلم يسمع مشورته أحد . . .

وصار جيش الروم على مسيرة أيام من القاهرة وسبقه غباره ؛ فقال السلطان طومان باى لأمراء جنده :

- هذه آخرتى وآخرتكم قد حانت ؛ فإما خرجتم للدفاع عن أعراضكم وذراريكم وأموالكم ، وإما خرجت وحدى للقاء العدو !

ثم لبس لأمته ورفع لواءه وبرز للناس فى عُدة حربه ، فأثار نخوة الأمراء وحمية الجند وحماسة المصريين ، فنسلوا إليه من كل حدب ، ورفع الأمراء راياتهم وكتَّبوا كتائبهم ؛ وكأنما لم يدركوا واجبهم إلا حين أحسوا ريح الموت ،

فخرجوا دفاعًا عن أنفسهم لا عن العرش ولا عن الوطن!

واحتشد الجند أفواجًا أفواجًا وكتيبة إثر كتيبة، وكانوا مستطيعين أن يحتشدوا كذلك منذ أسابيع. وأخرجت المكاحل والمدافع واصطف رماة البندق، واستكمل الجيش عدته وعدده في اللحظة الأخيرة وقبل أن يفوت الأوان، وارتجت القاهرة لعظم ما رأت من وسائل الدفاع وكثرة ما شهدت من الجند والعتاد؛ وتجاوبت الزغاريد من طاق إلى طاق...

وعسكر الجيش فى الريدانية شمال القاهرة متأهبًا للقاء العدو، وشق موكب السلطان المدينة من جنوبها إلى الشمال، فاجتاز باب زويلة، ومر على قبة الغورى، واخترق سوق مرجوش؛ وكان فى شرفة وراء الستارة فى بيت من البيوت عينان ترقبان موكب السلطان، ولكنهما لم تريا شيئًا مما غام عليهما من الدمع؛ ومضى ركب السلطان فى طريقه!

وخرجت على أثر الموكب عجوز من دارها مهرولة تريد أن تدرك موكب السلطان وهى تهتف بصوت عميق النبر: «ولدى! ولدى!».

وتدافعها زحام الطريق فردَّها على وجهها قبل أن ترى

السلطان أو تُسمعه نداءها؛ وحملتها الأكف مغمياً عليها إلى دارها فى سوق مرجوش، ولم تزل شفتاها تتحركان فى همس خافت: «ولدى! ولدى!».

وقال لها أرقم وقد ثاب إليها نفسها:

- صبراً يا نور كلدى، فسترينه ويراك يوم يعود مظفراً من هذه الحرب؛ إن طومان باى لذو همة وعزم، وسترين ما سيكون من بلائه فى حرب الروم حتى يردهم على أعقابهم منهزمين؛ ويومئذٍ تلقينه على العرش فتسعدين به وتقرُّ عينك!

- يا ليت يا سيدى يا ليت! ويومئذٍ أنبئه أول ما أنبئه بما لقيتُ من كرم صحبة أرقم الرمَّال!

قال أرقم وقد انحدرت على خديه دمعتان:

- وينبئه أرقم الرمَّال بما لقى فى صحبتك يا نور كلدى!

***

وراح السلطان يحفر الخندق بيده ويحمل التراب على كتفه، ثم أخذ يرتب الجيش ميمنة وميسرة وركب حصانه يرتب الأمراء ويتفقد العسكر صفّاً صفّاً وهو يبث فيهم من روحه وينفخ فيهم من عزمه. من ذا يرى اليوم هذه الكتائب المتراصة قد أجمعت نيتها على النصر أو الموت فيذكر ما كان

يدب فـي صـفـوفـهـا أمـس مـن عـوامـل الخـذلان والـهـزيمـة؟

تلك همـة السلطان قـد جـمـعـتـهـم قلبًـا ، ووحَّـدتـهم رأيًا وشـدَّتهم عـزيمـة؛ ومـا كـانوا لـولا السلطان الشـاب إلا فلولاً مبعثرة قد توزعتها الأهواء وتقسمتها الشهوات.

وبُنى حائط يستر المكاحل والمدافع وقد

فغرت أفواهها ذات اليمين وذات الشمال تأخذ العدو من حيث بدا له أن يبدأ الهجوم.

وأدار جان بردى الغزالى عينيه فيما حوله فرأى من وسائل الدفاع ما لم يخطر مثله على باله، فأكلت قلبه الحسرة. توشك والله هذه القوة أن تأكل جيش ابن عثمان أكلاً وترميه أشلاء على ظهـر الطريق؛ فـمـاذا يكون من أمـره وأمـر خـاير بك لو انتـصـر المصـريون على جـيش ابن عـثـمـان وعـادوا إليـه وإلى صاحبه يناقشونهما حساب الماضى وما أسلفاه من الخيانة؟

واخـتـار جـان بردى مملوكًـا يأتمنه على السـر فـأفـضـى إليـه برسالة يحملها إلى ابن عثمان. . .

ووقف السلطان سليم على أسـرار الدفـاع قـبل أن تنشب المعركة، فدبر أمره لإحباط خطة السلطان طومان باى. . .

ونفذ جيش العثمانيين من وراء الجبل فأطبق على الجيش المصرى بغتة من وراء، وجاءه من مأمنه؛ وتعطلت المكاحل والمدافع فلم ترسل قذائفها، ولم يبقَ إلا السيوف يتجالد بها الأبطال؛ وجال طومان باى بسيفه وحوله طائفة من أصفيائه، ومضوا يشقون طريقهم بين صفوف الروم يقصدون قلب الجيش، فنثروا الرءوس وقدوا الدروع وشقوا المرائر وجندلوا الأبطال ولم يثبت لهم شاب ولا شيخ؛ ولكن ماذا يجدى عليهم أن يصرعوا مائة أو ألفًا وإنهم لآحاد بين مئات الألوف وقد بعثرت المفاجأة جيشهم من ورائهم فليس لهم ظهر يحميهم أو جناح يؤازرهم. . . وفى يد العدو قذائف البارود وليس فى أيديهم إلا السيوف!

ونظر السلطان طومان باى وأصحابه فيما حواليهم فإذا هم فرادى، وقد تمزق جيشهم شراذم مدبرة يطلبون النجاة من النار والبارود؛ وأيقن السلطان بالهزيمة فتقهقر وهو يجيل سيفه فى يده يدفع به عن نفسه، حتى خرج من زحام المعركة. . .

وسقطت القاهرة فى يد العثمانيين قبل مغرب الشمس.

فلما كان يوم الجمعة خُطب فى مساجد القاهرة باسم

السلطان سليم خـان بن بايزيد العـثمـانى ، ملك البـرين والبـحـرين ، وكـاسـر الجيـشـين ، وخـادم الحـرمـين الشريفين . . .

وخـيم السلطان سليم وحـاشـيـتـه على النيل فى الجـزيرة الوسطى تجاه بولاق ، فأقام هناك ينتظر ما يكون من أمره وأمر المصريين وأمراء الجركس .

أطلت نور كلدى من شـرفـة دارها فى سـوق مـرجـوش ، لتشـهـد جند الروم يجوسون خلال الديار يفتكون ويسفكون ويهتكون الحرمات ، وقد أوى الناس إلى بيوتهم فغلقوا أبوابها وجثموا وراءها يتربصون بأنفسهم . وخلت الأسواق من الباعة والمشـترين فلا أحـد هنالك إلا هؤلاء الجند ذاهبين أو آيبين ، وإلا طوائف من الفتيان وشراذم من الأعـراب يسـتخفون حينًا ثم يظهرون ، يطلبون غرة جندى من أولئك العثمانيين قد انفرد فى الطريق ليغتالوه أو يسلبوه ثيابه وماله !

وضـاق نفس نور كلدى بما تشـهـد من تلك المناظر المثيـرة وجثم على صدرها الهم والقلق ، ولكنها لم تزايل موقفها من الشرفة تنظر وتنتظر . لقد غادرها أرقم منذ الصباح الباكر لأمر من أمره فلم يعد ؛ وما بها شوق إلى طلعته ولا قلقٌ لغيابه ،

ولكنها تريد أن تعرف ما وراءه من أنباء الحرب؛ لقد كان ولدها السلطان طومان باى هنالك فى الريدانية يحارب على رأس الجند، وقد انهزم عسكره ونفذ هؤلاء العثمانيون إلى المدينة كما ترى؛ فماذا أصاب طومان باى وأين مستقره الساعة؟ أحى فيرجى أم خلصت إليه قذيفة من قذائف الروم فجندلته؟ ولدها الذى تجدُّ فى أثره منذ ثلاثين عامًا لا تدرى أين ينتهى بها الطريق، فلما خيل إليها أنها بلغت مأملها أو كادت، ثار غبار الحرب فأنشأ بينها وبين ولدها جدارًا لا تكاد تخلص إليه من ورائه، ثم كانت هذه الهزيمة؛ من ذا يخبرها خبره فيهدأ وجيب قلبها وتسكن مما بها من الاضطراب والقلق؟ لو جاء أرقم الساعة. . .

وأظلها الليل ولم تزل فى موقفها من الشرفة تشهد أولئك الجند ذاهبين أو آيبين، وهذه الطوائف من فتيان الزعر، وتلك الشراذم من الأعراب، وإنها فيما بين ساعة وساعة لتسمع طلقة بندقة، أو ضجة معركة، ثم يعود السكون ولم يزل ما بنفسها من القلق والاضطراب!

وجاء أرقم موهنًا فطرق الباب بخفة ولبث ينتظر أن يُفتح له وهو يدير عينيه فيما حوله قلقًا قد توزعته أشجانه. . . .

وفتحت له نور كلدى فدخل وأغلق الباب وراءه فأحكم رتاجه ثم جلس.

وقالت نور كلدى ضارعة:

- بالله خبرنى يا أرقم ماذا جرى لطومان ولا تُخْفِ عنى شيئًا من خبره؛ لقد ذقت من عنت الأيام قسوة المقادير ما لا مخافة بعده؛ فصف لى كل ما تعرف من خبر طومان وما كان مآل أمره بعد هذه الهزيمة!

- إذن فقد عرفت.

- لم أعرف شيئًا غير ما قرأت فى وجوه الناس منذ الصباح وما رأيت فى حركاتهم من الاضطراب والفزع، ثم ما حدثتنى به وجوه أولئك الروم وهم يجوسون خلال البيوت وفى عيونهم شهوات المتنصر... فقد سقطت المدينة فى أيدى العثمانيين، ولكن ما شأن السلطان؟

- السلطان بخير يا نور كلدى ولا خوف عليه!

- هل أصابه جرح غير ذى خطر؟ هل وقع أسيرًا فى يد الروم؟ هل نالته قذيفة بندقية أو طعنة رمح؟

- لا شىء، لا شىء من ذلك يا نور كلدى؛ وإنه لحر طليق سليم البدن، ولكنه...

- ماذا بالله؟ هل أسلم نفسه راضيًا إلى عدوه ودخل فى طاعته؟ هل ذل بعد كبرياء، وهان بعد عزة؟ هل اشترى حياته بالعرش والوطن وباع رعيته للعدو الغالب؟

صرخ أرقم فى وجه نور كلدى غاضبًا:

- اسكتى يا امرأة!... لست أمَّ طومان إن ظننت به هذه الظنون؛ إنه لأعز نفسًا وأرفع منزلة من ذاك!

- إذن فهو محصور فى قلعته قد أطبق عليه العدو من كل جانب وما يزال يدافع عن عرشه بلا يأس!

- ولا ذاك يا نور كلدى؛ لقد غادر طومان باى القاهرة يتهيأ لوثبة جديدة يعود بها إلى العرش ويقذف بهؤلاء الغزاة إلى البادية أو إلى البحر، وقد رأيته منذ ساعة فى طائفة من أصحابه يُعد عدته ويتربص!

- رأيته؟...

- نعم!

- بعينيك هاتين؟...

- بعينىَّ، وتحدثتُ إليه بلسانى!...

- تحدثتَ إليه؟...

– نعم!

– وقلتَ له: أمك نور كلدى تطمع أن تراك. . .

ولمعت دمعتان فى عينى أرقم، وأجهشت نور كلدى باكية واستدارت إلى الجدار لتستند إليه من الإعياء والضعف. . .

ونهض أرقم فوقف خلفها ومس كتفيها بكلتا يديه وهو يقول:

– صبرًا يا نور كلدى؛ فستلقينه فى يوم قريب فترين بطلاً كريمًا يستحق شرف أمومتك الكريمة!

وارتجفت نور كلدى حين أحست يدين تلمسان كتفيها، فاستدارت وقالت مستحيية وفى صوتها نبرة عتاب:

– ولكنك يا أرقم لم تحدثه أن أمه هنا، فى القاهرة، وأنها تطمع أن تراه!

– لا يا نور كلدى!. . .

– وبخلتَ علىَّ بهذه النعمة!

– ليس بخلاً عليك يا نور كلدى، ولكنه بخل بطومان أن تتوزعه العواطف فى وقت يجب أن يجتمع فيه قلبه على

فكره؛ إن طومان باى اليوم تتمثل فيه آمال أمة قد وطئتها خيل العدو وليس لها فى محنتها غير رجل واحد. . .

- صدقت!

- ولم أبخل إذن؟

- بلى، ولكنك استأثرت بالنعمة وحدك فأمتعت قلبك وعينيك!

- وستمتعين قلبك وعينيك عن قريب يا نور كلدى!

قالت باسمة:

- نعم، وأصف له ما لقيت من صديقه أرقم الرمال!

قال أرقم متأوهًا:

- ويصف له أرقم الرمَّال ما لقى من نور كلدى!

ونظر فى وجهها فأطال النظر، كأنما يحاول أن يسترجع ماضيًا قد غبر منذ أربعين عامًا أو يزيد!

ونظرت فى عينيه فأطالت، كأنما ترى فيهما خيال صورة مطبوعة لفتاها المحبوب الذى فقدته منذ أمد طويل ولم تزل تطمع فى لقائه.

هاتان العينان نظرتا فى وجه طومان باى منذ ساعة، فإن

فيهما لصورة منه مدخرة فى الأعماق، فلولا الحياء لقالت لهذا الرجل الملثم بأسراره:

- ادنُ منى يا حبيبى لأرى فى عينيك صورة الفتى الواحد الذى آثرتهُ بالحب على جميع الناس! . . .

هل استشفّت نفسها ما وراء هذا اللثام المضروب على وجه أرقم فأحست إحساس القلب الملهم بما بينها وبينه من الأواصر حين عجز عقلها من استكشاف السر؟ من يدرى؟





الحرب سجال

ارتجت القاهرة رجة عنيفة كأنما رجفت بها زلزلة في يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ٩٢٢، حين تدفقت عليها جيوش العثمانيين كالسيل الجارف لا يعترض سبيله شيء؛ ثم لم تلبث إلا أيامًا حتى رجفت بها زلزلة أخرى أعنف وأقسى في مساء الثلاثاء الرابع من المحرم سنة ٩٢٣؛ ولكن هذه الرجفة الأخيرة على عنفها وقسوتها كانت أروح لقلوب المصريين وأخفَّ وقعًا على نفوسهم، فقد كانت زلزلةَ أقدام المصريين من جند السلطان طومان باي يقتحمون على العثمانيين مضاربهم في هدأة الليل ويدخلون القاهرة بعد خمسة أيام من جلائهم عنها، فلم يلبثوا أن تغلغلوا في السكك والدروب، واحتلوا الدور والمصانع، ووضعوا سيوفهم في أقفية الروم وأضرموا النار في مضاربهم على حين لهو وغفلة!

وسرى النبأ بسرعة فى المدينة النائمة فهبت من رقادها تستطلع الأخبار، فما هى إلا ساعة حتى كانت البشرى على كل لسان بأن السلطان طومان باى قد عاد إلى القاهرة بجيش لجب فأحاط بجيش ابن عثمان . . . فهب كل مصرى إلى سلاحه وأخذ أهبته لمعونة السلطان الباسل، فما أشرق الصبح حتى كان جيش السلطان طومان باى قد استردّ أكثر أحياء المدينة وكاد يغلب على سائرها. واجتمع فى المدينة جيش من المصريين على رأسه الأمير علان الدوادار، فزحف من الناصرية لينضم إلى عسكر السلطان!

واتخذ طومان باى مسجد الأمير شيخو بالصليبة مقرآ لقيادته، وعادت رحى الحرب تدور بين المصريين والعثمانيين فى دروب المدينة. ونادى المنادى فى القاهرة بالأمان لمن يستأسر من جند ابن عثمان ويدخل فى طاعة السلطان طومان باى، وعاد الطالب مطلوبًا!

واستمرت الحرب فى القاهرة أيامًا، فلما كان يوم الجمعة السابع من المحرم، خُطب فى مساجد القاهرة ثانية باسم السلطان طومان باى، ملك القطرين، وسيد البحرين، وحامى حمى الحرمين!

***

وكـانت نور كلدى تطل من شـرفـة دارها فى سـوق مرجوش، لتشهد جند المصريين يجوسون خلال الديار يبحثون عن المختبئين من أمراء ابن عثمان وجنده فيسوقونهم أسرى إلى حيث كان السلطان طومان باى فى مركز قيادته بمسجد الأمير شيخو؛ وكان هتاف الرجال وزغاريد النساء تتجاوب أصداؤها بين أبعاد المدينة، وفيالق فتيان الزعر وكتائب الأعراب تتوالى مواكبها على عينيها فى طريقها إلى حيث تأتمر بأمر السلطان المجاهد طومان باى!

وسألت نور كلدى نفسها وفى عينيها دموعها: ترى أين أرقم الساعة ليحدثها حديثه وينبئها بما يعرف من خبر السلطان؟ إنه لغائب عن عينيها منذ ذاع فى المدينة النبأ برجوع السلطان طومان باى، وإنها لتنتظر مقدمه قلقة تريد أن تعرف كيف ينتهى ذلك الأمر فيصحبها على الطريق إلى حيث تلقى ولدها الذى لم تزل على الطريق إليه منذ ثلاثين سنة!

وطالت غيبة أرقم ثم عاد...

- ورأيته بعينيك يا أرقم؟

- نعم!

- وتحدثت إليه بلسانك؟

- نعم!

- واستمعت إلى حديثه بأذنيك؟

- نعم! .

- ومتى تراه أمه بعينيها يا أرقم وتتحدث إليه بلسانها وتستمع إلى نجواه.

- قريبًا ترينه يا نور كلدى بعينيك وتتحدثين إليه بلسانك وتسمعين نجواه؛ أما اليوم فما أراك تستطيعين وإن بينك وبينه طريقًا قد ازدحمت على جانبيه رمم القتلى من المصريين والروم، وإن الموت ليتطاير فيه على رءوس السابلة ففي كل شارع معركة دامية؛ وإن أولئك الروم الغلاظ ليحملون بنادق البارود يرسلون قذائفها من نوافذ الدور ومن فوق السطوح ومآذن المساجد فلا يكاد يخلص بروحه عابرُ سبيل. لو كان بالسيف والرمح والمزراق ما بيننا وبين الروم من معارك لأيقنّا بالنصر؛ فإن أولئك الروم لا خبرة لهم بأساليب الحرب وليس لهم صبر على القتال، لولا هذه النار؟

- ماذا تقول يا أرقم؟ أفلست موقنًا بالنصر؟

- بلى، ولكن دون ذلك أهوالاً يا نور كلدى!

- ويتعرض طومان باى للشر؟

- لا تخافى يا سيدتى!

- وتظنه يعود إلى عرشه فى القلعة؟

- الصبر يا نوركلدى، إن الحرب مراحل!

- وفى أى مراحلها هى اليوم؟

- ستعرفين بعد قريب، فإن جيشًا من جند ابن عثمان قد احتشد بمصر العتيقة فى طريقه إلى الصليبة للقاء المصريين عند جامع شيخو...

- ثم يكون ماذا يا أرقم؟

- ثم يكون النصر إن شاء الله!

- وأرى ولدى طومان؟

- وترينه وتتحدثين إليه!

- ويومئذ أصف له ما لقيت من صاحبه أرقم الرمَّال، وأسأله أن يُضعِف له المكافأة!

وصرَّت أسنان أرقم وضاق بما يضمر من سره فهَمَّ أن

يجيب، ثم أمسك وهو يقول لنفسه فى همس: ويومئذ يكون أرقم فى غير حاجة إلى مكافأة نور كلدى أو مكافأة السلطان، ويمضى لوجهه فلا يراه أحد. . . حسبه يومئذٍ أن يرى امرأته وولده فى سعادة وأمان!

ثم نهض لبعض شأنه، فتعلقت به نور كلدى تسأله أن يبقى، ولكنه كان فى جو طلق ويذرف دموعًا قد ازدحمت فى عينيه. . .

***

لو ثبت جند السلطان طومان باى ساعة من نهار أمام الجيش العثمانى الذى دهمهم فى معسكرهم عند جامع شيخو، لتم لهم النصر، ولارتدت فلول الروم منهزمة إلى الشرق وجلت عن القاهرة؛ ولكن جند السلطان طومان باى لم يثبتوا لقذائف البارود التى تحصدهم وليس فى أيديهم إلا الرماح والسيوف لا ينالون بها رماة البنادق الذين أشرفوا عليهم من التل القريب وصبُّوا عليهم النار الحامية. وصاح طومان باى بأصحابه:

– اقتحموا عليهم بسيوفكم فإن قذائفهم لا تنال إلا البعيد!

ثم قذف بنفسه فى المعركة ومن حوله طائفة من أتباعه

يفلقـون بسيـوفـهم الهـام ويشقـون المرائر ويجندلون الأبطال، فـأثخنوا فى العـدو ونالوا منه بحـد السيـف أكـثر مما نال منهم بقـذائف البـارود؛ ولـكن الكثرة من أصـحـابه لم يلبـثـوا أن انفـضوا، فنظر حـوله فإذا هـو والطائفـة القليلة من أتبـاعه قـد أوشك جيش الروم أن يُطبق عليـهم من كل جانـب، فـتقـهـقـر والسـيـف فى يده لـم يزل يمـيـل به ويعـتـدل وهو يقطر من دم العدو؛ حتى خلص من الزحام وما كاد! . . .

وكـانت خوند شهـد دار جالسة فى دارها الجديدة عند بركة الفيل تنتظر ما يكون من أنباء المعركة بقلب واجف، وبين يديها طفلة فى الثالثة تهتف باسم أبيها الذى يجالد الأبطال بسيفه وحيدًا فى المعركة والمنايا من حوله تحصد النفوس . . .

وسـمعت شـهـد دار طرقًا على البـاب فخفت إليه ملهوفة لترى من الطارق فى وقت لـم تكن تنتظر أن يزورها فيه حبيب ولا نسيب؛ ورأت أمامـها السلطان والسيف فى يده لم يزل يقطر دمًا وفى وجهه أمارات الإعياء وفى عينيه نظرة يأس، وقـد اصطبـغت حلتـه الملوكـيـة بما تطاير إليـهـا من دمـاء القتلى . . .

وتراجعت شهد دار وهى تقول فى إنكار :

- لغير انتظار مقدمك فى تلك الساعة جلستُ مجلسى هذا يا طومان!

قال طومان وقد أغلق الباب دونه وتقدم إليها خطوات:

- ولغير هذه الخاتمة جاهدتُ ما جاهدت يا خوند!

- الخاتمة؟ إذن فقد يئستَ يا طومان!

- لا وحقك يا حبيبتى؛ ولكن ماذا يصنع فرد انفض من حوله أمراؤه وأصحابه، وطارت أنفسهم شعاعًا من قذائف النار فخلفوه فى طائفة قليلة لا تغنى غناء بين هذه الآلاف؟

- يجاهد وحيدًا حتى ينتصر أو يموت!

- وأنت؟

- وأشهد العيد يوم يعود إلىّ منتصرًا يزين مفرقه التاج؟!

- ويوم يجيئك منعاه يا شهد دار؟

- أباهى بأننى امرأة السلطان الذى حارب وحيدًا دفاعًا عن وطنه حتى استشهد فى ساحة الجهاد!

- ونور كلدى، ابنتنا الصغيرة التى توشك أن تفقد أباها فى المعركة كما فقدت نور كلدى الأخرى فى بلاد الغور ولدها فى غير حرب ولا قتال؟

- ليست نور كلدى الصغيرة بأعز من وطنك الغالى يا طومان!

- وإذن فهو الوداع!

- وداع إلى لقاء!

وانحدرت دمعتان على وجنتيها الشاحبتين فجاوبتهما دمعتان على وجنتيه، وتلاصقا صدراً لصدر، وكانت خفقات قلبيهما تمام الحديث الذى لم تلفظه الشفاه!

وعلى مقربة من الزوجين المتعانقين عناق الوداع، كانت طفلة فى الثالثة واقفة قد تعلقت عيناها بأبويها وظلت صامتة كأنْ قد سمعتْ، وفهمت، وعرفت كل ما هنالك. ثم استهلت هاتفة بعد فترة:

- أبى!

فتناولها الرجل بين ذراعيه فطبع على جبينها قبلة وجفف فى صدرها دمعة، ثم أرسلها من بين يديه واتخذ طريقه إلى الباب!

***

قال أرقم:

- لقد ذهب ولكنه سيعود!

قالت نور كلدى:

- وأراه يا أرقم وأجلس إليه وأسمع من حديثه؟

- نعم، وتحدثينه بما لقى منك أرقم الرمّال؛ ويكون أرقم يومئذٍ فى غير حاجة إلى مكافأة منك أو مكافأة من السلطان، ويمضى لوجهه فلا يراه أحد!

قالت نور كلدى عاتبة:

- لا تزال يا أرقم تمنُّ بما لقيت من النصب فى سبيل معونة أمّ بائسة تريد أن تشتفى مما تجد من ألم الحرمان منذ ثلاثين عامًا أو يزيد؛ فهلا عذرتَ امرأة لم تذق طعم الحنان منذ الشباب، ولم تزل منذ كانت تعيش فى عالم الذكريات والأمانى قد انقطعت فيه عن دنيا الناس!

وحضره بثُّه؛ إن من حقه مثلها أن يشتفى مما يجد من ألم الحرمان أربعين عامًا أو يزيد، إنه لرجل، ولكنه مثلها لم يذق طعم الحنان منذ الشباب، ولم يزل منذ كان يعيش فى عالم من الذكريات والأمانى لم يقطعه عن دنيا الناس وحسب، بل قطعه كذلك عن دنيا نفسه؛ إنه فى سبيل سعادة من يحب قد

أنكر ذاته وشخصه وعاد فى نظر أحب الناس إليه شخصًا غريبًا فلا هو منه ولا هو من نفسه!

ودمعت عيناه، فأخفى وجهه فى راحتيه ومال برأسه؛ ونظرت إليه نور كلدى وقد اختفت سحنته الدميمة فى راحتيه عن مرأى عينيها، فلم ترَ بين يديها حينئذٍ أرقم المسيخ، ولكنها رأت إنسانًا آخر لا تزال تذكره على رغم السنين؛ وعاد إليه الصدى يردد آخر كلماته، فكأن لم تسمع صوت أرقم الرمّال الشيخ، بل صوت فتى فى ريّق الشباب كان يجلس إليها منذ أربعين عامًا يتحدث إليها وتسمع منه، وإن صوته لينفذ فى أعماقها...

ودنت منه ولا يزال وجهه مخبوءًا فى راحتيه، فوقفت خلفه ومست كتفيه بكلتا يديها وهى تقول فى تأثر:

- ما بك اليوم يا أرقم؟

وسرت بينهما كهرباء الذكرى حين تلامسا، فارتجفت يداها وانتفض بدنه كله؛ أما هو فكان يعرف عرفان اليقين من هذه التى تتحدث إليه وقد أسندت يديها إلى كتفيه؛ وأما هى فلم يكن بها إلا إحساس القلب الملهم!

واستدار نحوها فالتقت عيناها بعينيه؛ فلم تلبث سحنته

الدميمة أن أسدلت الستار بينهما وبين ذلك الماضى البعيد، فأغضت المرأة من حياء وأنغض الرجل رأسه من ألم؛ وأطبق الصمت على المكان!

وتمثلت لأعينهما فى وقت معًا صورةٌ واحدة قد التقيا عندها قلبًا وفكرًا وعاطفة، واجتمعا فى الوهم على حقيقية حيث مثلت لهما فى الخيال صورة طومان باى، فتعانق حول صورته شعاع من فكرها وشعاع من فكره وقد تجافيا جسدين!

●●●



السهم الأخير

عبر طومان باى النيل إلى الجيزة وأنفذ الرسل إلى أصحابه يؤذنهم بمكانه، فلم يلبث أن انضم إليه جيش جديد من المصريين والأعراب وفلول المماليك، فأقام فى مضارب هوارة بالصعيد يُعد عدته لغزو القاهرة واسترداد عرشه وحرية وطنه، وتلبَّث زمانًا والمتطوعون ينسلون إليه من كل حدب، وكان قايت الرجبى كبير أمناء الغورى لم يزل حبيسًا فى برج الإسكندرية، فحطم أغلاله وخفَّ لنصرته فى الصعيد، وفك الظاهر قنصوه أغلاله كذلك وهمَّ أن يلحق به، لولا أن مملوكًا من أتباع خاير بك قد اغتاله قبل أن يبلغ حيث أراد . . .

واجتمع لطومان باى فى الصعيد جيش من المتطوعة كلهم صاحب عزم وقوة، قد تحالفوا على الموت أو يطردوا العدو من أرض الوطن ويردوا الأشراف طومان باى إلى عرشه .

وترادفت الأنباء على القاهرة بما تهيأ له من أسباب الحرب وبما اجتمع له من العتاد والجند، وكان في القاهرة يومئذ بضعة نفر يشغلهم من أمر طومان باى أكثر مما يشغله من أمر نفسه: أولئك نوركلدى وأرقم الرمَّال، وزوجته الشابة شهددار بنت أقبردى، ثم مصرباى الجركسية وخاير بن ملباى!

خمسة قد ذهب الفكر بهم مذاهبه، أما أمه وأبوه فجالسان ينتظران لا يشكان أنه سيعود إلى القاهرة يومًا، فيطرد العدو إلى البادية أو إلى البحر، ويسترد عرشه وحرية وطنه؛ ويلقاهما كما لقى يوسف أبويه على العرش!

وأما شهد دار بنت أقبردى فكانت فخورة بما تسمع من أنبائه لا تشك أنه سيحارب حتى ينتصر أو يموت، وحسبها من السعادة أن تستيقن أن زوجها لن يرضى الدنية فيخلع لأَمَتَه أو يضع سيفه دون أن يبلغ إحدى الحسنيين؛ وأى عجب في أن يكون ذلك هو كل ما تفكر فيه شهد دار، وهى بنت أقبردى الذى قضى حياته مكافحًا حتى مات وسيفه في يده!

على أن لحظات ثقيلة كانت تمر بها حين تنظر في عينى طفلتها الظريفة نور كلدى، وحين تسمع هتافها باسم أبيها الذى لم تره منذ بعيد، فتأسى ويجثم على صدرها الهم؛ ثم لا تلبث أن تذكر ماضيها وماضى طومان، وما اعترض سبيلهما

من عقبات قبل أن يلتقيا، فتردها الذكرى إلى الأمل في لقياه!

وأما مصرباي وخاير بك فآهٍ مما كان يحيك في صدريهما!

إن مصرباي اليوم لأرملة قد مات زوجها الظاهر قنصوه بعد سبعة عشر عامًا في الأسر؛ وإنها لتطمع أن تعود إلى العرش سلطانة، وأن يصعد خاير بك إلى العرش سلطانًا في ظل راية ابن عثمان! فهل تظل راية ابن عثمان مرفوعة على قلعة الجبل تُلقى ظلها على القاهرة، أو ينتزعها من ساريتها طومان باي ليرفع الراية المصرية!

وأما القاهرة كلها فكانت على يقين واحد بأن طومان باي سيعود، وسيصعد ثانية إلى العرش الذى لم يصعد إليه سلطان أحب إلى الشعب منه؛ أفتصبر القاهرة على عسف السلاطين هذه السنين المتطاولة، حتى إذا جاءها السلطان الذى تحبه وتفتديه وتأمل الخير على يديه -لم يتهيأ له أن يجلس على العرش إلا بضعة أشهر ثم تفقده مصر؟ إن المقادير لا يمكن أن تبلغ من القسوة هذه الغاية؛ فلابد أن ينتصر طومان باى، وأن يعود إلى عرشه، وأن يرتد هؤلاء الروم على أعقابهم منهزمين، كما ارتد المغول، والصليبيون؛ وكما ارتد بايزيد العثمانى أبو السلطان سليم نفسه، أمام جيوش الأشرف قايتباى!

وقال السلطان سليم لوزرائه :

- إنى والله لأخشى عاقبة هذه الحرب ، فقد انقطع ما بينى وبين بلادى ، ولا يزال صاحب هذه البلاد يُعد العدة ويثير الناس لحربنا فى الجنوب والشمال ، وإنه لذو حول وحيلة ، والرأى عندى أن نهادنه فنعود إلى بلادنا قبل أن تدهمها خيل الصفوية !

قال خاير بك :

- يا مولاى ! . . .

قال الوزير يونس باشا :

- اسكت يا خاير بك ، فإنك لنفسك تعمل ؛ وإنما فى شأن أنفسنا نفكر !

وازدرد خاير بك وجان بردى الغزالى ما كان على شفاههما من الكلام ، وأمسك خشقدم الرومى فلم ينطق حرفًا . . .

واستأنف ابن عثمان قوله :

- وإنى أرى أن نبعث إلى طومان باى رسولاً بأن تكون له مصر ، على أن تكون السكة والخطبة باسمنا ، فإن أجابنا إلى ذلك الشرط فقد كُفينا شره ، وحسبنا أن تكون فى يدنا الشام وما يتاخمها من البلاد ؛ وإن أبى فإن لنا تدبيراً آخر .

ولم يتلبث السلطان، فبعث رسوله بشرطه إلى طومان باى، ولكن الرسول لم يعد بجواب؛ فقد كانت نية المصريين مجتمعة على القتال حتى يجلو ابن عثمان عن البلاد!

وعادت المعارك بين جند السلطان سليم وجند طومان باى.

***

هذا شهر ربيع الأول سنة ٩٢٣ قد بزغ هلاله. فى مثل هذا اليوم منذ عام كانت القاهرة تشهد كتائب السلطان الغورى تتهيأ لحرب ابن عثمان، تلك الحرب التى جمع لها الغورى ما جمع من العدد والعتاد، ثم لم يلبث إلا ضحوة من نهار فى مرج دابق وتمزق الجيش المصرى أشلاء على رمال الصحراء، واختفى أثر السلطان نفسه وبدأ زحف العثمانيين على مصر...

إذن فقد مضى عام ولم تزل مصر فى حرب الروم، فهل يا ترى تحتفل القاهرة بذكرى المولد النبوى فى هذا العام أم يشغلها ما هى فيه من الفزع والتربص عن الاحتفال بتلك الذكرى الكريمة؟ ومن ذا يرأس الاحتفال إن كان؟ أيرأسه هذا السلطان العثمانى الذى ينكر المصريون عليه وعلى أصحابه ما يرون من فعالهم، أم يرأسه طومان باى؟

إن الأنباء لتتوارد منذ أيام باحتشاد جند السلطان طومان

باى على النيل تجاه بولاق، فى إمبابة، والمنوات، ووردان؛ ولعل الثانى عشر من ربيع الأول لا تشرق شمسه إلا وهو فى القاهرة، يحتفل بالعيد النبوى الشريف فى قصر القلعة، على رأسه التاج ومن حوله الخليفة المتوكل على الله، وشيخ الإسلام، والقضاة الأربعة ونوابهم، ومن بقى من أمراء الجركس وأشراف المصريين، تلك عادة مأثورة منذ سنين بعيدة، وإن الله ليحب أن يحتفل المسلمون بذكرى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم!

وأشرق وجه نور كلدى حين جاءها النبأ باحتشاد الجند على شاطئ النيل استعداداً للمعركة الفاصلة؛ وإذن فسينتصر طومان باى، وسيدخل القاهرة فى موكب الفتح، وسيحتفل بذكرى المولد النبوى فى قصر القلعة كما كان يحتفل أسلافه من السلاطين!

وأقامت القاهرة أياماً تنتظر فى لهفة وشوق، فلما كان يوم الأحد السادس من ربيع الأول، بدأ جيش ابن عثمان حركته وعسكر على شاطئ النيل استعداداً للدفاع، فما أهلَّ اليوم العاشر حتى كانت جموعهم مجتمعة، ثم نشبت المعركة الخامسة بين المصريين والروم!

ولعب المصريون بالسيوف والرماح فى رقاب الروم، وانطلقت قذائف البارود من أفواه البنادق الرومية تحصد

المئات، وكان جان بردى الغزالى ملثمًا متنكرًا فى زى أعرابى قد اندس بين الأعراب فى جيش السلطان طومان باى، حتى حانت له الفرصة فانخزل بطائفة غير قليلة من حزبه وكشف ظهر المصريين للعدو؛ ووقع أصحاب طومان باى بين نارين من وراء ومن أمام، فتبعثروا على ظهر الفلاة يطلبون النجاة. . .

وطيف برءوس القتلى من عسكر السلطان طومان باى منصوبة على سوار من خشب فى شوارع القاهرة ينادى أمامها المنادون، وألقيت سائر الجثث فى النيل؛ فلم تأت ليلة المولد حتى كان فى كل درب من دروب القاهرة مأتم ونواحٌ!

***

قالت نور كلدى:

- فهذا ما رأيت يا أرقم من غلظة السلطان سليم؛ فكيف تراه يصنع بولدى طومان إن ظفر به؟

- لن يظفر به يا نور كلدى!

- ولكنه قد انهزم وذهب فى الأرض، ويوشك أن يعثر به جند السلطان سليم فيسوقوه إليه فى الأغلال!

- إنما الحرب سجال، فما انهزم طومان، وما أحسبه يقع فى

يد السلطان سليم، وما أراه إلا عائدًا إلى القاهرة فى يوم قريب وقد اجتمع له جيش يسترد به القاهرة ويجلس على عرشه!

- أتصدقنى القول يا أرقم أم هى أمنية تتمناها؟

- بل هو اليقين يا نور كلدى!

- ولكن أتباعه قد تبعثروا أشلاء وطيف برءوسهم على السوارى؛ فمن أين له جيش يحارب به فينتصر؟

- إن مصر لم تعقم ولم تفقد رجاءها يا نور كلدى، وإن طومان باى لحبيب إلى كل نفس!

- ولكن هذه الهزائم المتوالية يا أرقم، تفرق القلوب المجتمعة، وتصدع الرأى الملتئم، وتقلقل العزم الراسخ!

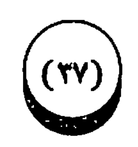
- أنت إذن لا تعرفين طومان باى يا نور كلدى!

- إننى أنا أمه!

- نعم، ولكنى أنا. . . أنا صديقه!

وعاودته أحزانه فأطرق صامتًا وأطرقت نور كلدى صامتة؛ لقد أوشك أن يقول كلمة أخرى لولا أن ثاب إليه وعيه فأمسك. نعم، إنه أبوه. . . ولكنه فى مرآة نور كلدى وفى مرايا الناس: أرقم المسيخ!

●●●



آخر الطريق

أين يذهب طومان باى وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت؟ لقد بذل آخر ما فى طوقه ليدافع عن عرشه، وعن وطنه، وعن الأمانة التى حملها على كاهله حين رضى أن يحمل على رأسه ذلك التاج؛ إنه لمسئول منذ ذلك الحين عن رعيته وعليه وحده تبعة ما ينالها، لا يخليه من هذه التبعة أنه فرد ليس له من الناس أعوان؛ فليحارب حتى يموت ويخضب دمه الأرض، وإلا فإن على رأسه دم كل أولئك الشهداء الذين[1] قادهم إلى الموت باسم الدفاع عن الوطن. الموت فى المعركة، هو العذر الواحد الذى يخليه من تلك التبعة الثقيلة، ولكن من أين له الجند الذين يحارب بهم حتى يموت؟

وتذكر صديقه حسن بن مرعى السنهورى شيخ أعراب البحيرة؛ إن لطومان باى عليه يدًا منذ أطلقه من سجن السلطان الغورى، فلولاه لبقى فى ذلك باسمه المعونة

والنجدة، فلعله يجمع له من فتيان القبائل العربية الضاربة فى بوادى الشمال والجنوب جيشًا يحارب به. لقد خاض حتى اليوم من العثمانيين خمس معارك لم ينهزم فى واحدة منها من ضعف أو من جبن، فلولا الخديعة والمكر، أو الغدر والخيانة، لكان القائد المظفر فى تلك المعارك جميعًا؛ وإنه ليأمل أن يظفر بعدوه فى المعركة السادسة أو فى السابعة، بمعونة أولئك الأعراب الشجعان الذين يأمل أن يجمعهم لنصرته صديقه حسن بن مرعى السنهورى؛ ويومئذ يعود إلى عرشه، ويتخذ من شيوخ أولئك الأعراب أمراء ووزراء وقادة . . .

لماذا لم يفطن سلاطين الجركس قبل اليوم إلى حق شيوخ الأعراب فى الإمارة والوزارة وقيادة الجند، وإنهم لأولو عزم وقوة، وفيهم مروءة وحفاظ على العهد، وقد كانوا يومًا سادة هذه البلاد؟ ليت السلاطين قد فطنوا إلى ذلك منذ بعيد، إذن لاستطاعوا أن يجمعوا قلوبهم على محبتهم والولاء لهم؛ ولكن إلا يكن السلاطين قد فطنوا إلى هذه الحقيقة فقد فطن إليها طومان باى آخر الأمر، وما ينبغى له أن يغفل عنها حين يعود إلى عرشه!

كذلك كان طومان باى يحدث نفسه، وفرسه يخبُّ به فى طريقه إلى سنهور، حيث يأمل أن يلقى صديقه حسن بن مرعى شيخ أعراب البحيرة ليعينه على أمره!

والتقيا، وجلس طومان باى يتحدث إلى صديقه ساعة من نهار، وأقسم له صاحبه لينصرنه بكل ما يملك من مال وجند وعتاد، وتحالفا على الوفاء!

وأوى طومان باى إلى خيمته متعبًا يلتمس بعض الراحة، فأخذته عيناه واستسلم للنوم، وظل صاحبه السنهورى يقظًا يؤامر نفسه على خطة لعل مثلها لم يخطر على باب عربى قبله!

وقال الرجل لنفسه:

- ما لى ولهذا الرجل الذى يريد أن يحملنى على مغاضبة السلطان سليم ويدفعنى إلى عداوته؟ ثم ماذا أسلفنا هؤلاء الجركس من الإحسان لنبقى على حكومتهم، وهذا رجل قد أفل نجمه وصارت الدولة برغمه عثمانية؟

ثم حانت منه التفاتة نحو فرس السلطان طومان باى ربيطًا إلى جانب خيمته وعليه سرجه وركابه وزينته الملوكية، فلم يستطع الأعرابى أن يقاوم إغراء شيطانه، فوثب إلى ظهر الفرس وولى وجهه شطر الجيزة حيث كان عسكر السلطان سليم؛ واستأذن على السلطان فأذن له، فدخل ليُسِرَّ إليه النبأ، ثم عاد أدراجه إلى سنهور!

وأطبق جند السلطان سليم على خيمة طومان باى فوضعوا

في يديه الأغلال وحملوه على ظهر فرسه وساروا به، وكان في الركب خاير بك، وجان بردى الغزالى!

***

قال السلطان سليم وقد رأى بين يديه رجلاً لم يرَ مثله في الرجال:

– ها نحن أولاء قد ظفرنا بك يا سلطان! فبالله ماذا خيّلتْ لك أوهامك حين شرعت في وجهنا السيف وأبيت الاستسلام؟

قال طومان باى ولم تفارق شفتيه ابتسامته:

– ذلك حق هذه الأمة عليّ يا سلطان الروم، فهلا سأل مولاى نفسه: ماذا كان يفعل لو أن جند مصر قد اقتحمت عليه بلاده وبسطت سلطانها على رعيته؛ أكان يستأسر لها طائعًا أم يدافع عن وطنه حتى الموت؟

قال السلطان سليم:

– قد كان لك هذا لو كنتَ سلطان الروم، أما أنت. . .

قال طومان وقد رفع رأسه شامخًا:

– أما أنا فسلطان مصر التى أوشك أبوك بايزيد بن عثمان أن يستأسر لجندها طائعًا لولا أن منَّ عليه بالفداء سلفى السلطان قايتباى!

بدا الغضب فى وجه أصحاب السلطان وأحدقت عيونهم بطومان باى وقد اشتعلت جمراتها؛ ولكن السلطان سليم لم يلبث أن ردهم إلى الهدوء حين قال باسمًا :

- عن غير هذا سألتك يا سلطان؛ وإنما أردت أن أعرف لماذا أبيت أن تبقى على عرش مصر فى ظل الراية العثمانية، وما طلبنا منك إلا أن تكون السكة والخطبة باسمنا ولك الحكم والإمارة والجباية، فكيف آثرتَ على كل ذلك هذا المصير؟

قال طومان :

- ذلك العرش قد ائتمنتنى عليه الرعية، فما كان لى أن أجعله تحت سلطان غير سلطان الرعية التى حمَّلتنى أمانتها!

قال سليم :

- فالآن يا سلطان سترد الأمانات إلى أصحابها؟

ثم أمر فأعدت لطومان باى خيمة مفردة ريثما يفكر فى أمره.

وقال سليم لأصحابه وقد خلا لهم المجلس :

- أما إنه لرجل، ولقد والله حدثتنى نفسى أن أخلى بينه وبين عرشه وأعود أدراجى، لولا أننى أخشى انتقاضه!

قال الوزير يونس باشا :

- إن مولاى ليكسب به حليفًا يعين فى وقت الشدة وإنه لذو حفاظ ومروءة!

قال خاير بن ملباى مغيظًا:

- نعم، وإنه إلى ذلك لذو حفيظة وثأر!

قال السلطان ضاحكًا:

- صدقتَ وما قصدت يا خاير بك!

***

وشاع فى المدينة النبأ بوقوع السلطان طومان باى فى يد ابن عثمان فلم يصدقه أحد؛ إن طومان باى لأرفع مكانًا من أن ينتهى إلى مثل ذلك المصير؛ ومن ذا يعرف طومان باى فيصدق أنه اليوم أسير فى يد السلطان سليم؛ إنه لفارس كأنْ قد وُلد على ظهر فرسه؛ فلغيره الأسر وله النصر أو الشهادة!

إن المصريين جميعًا ليرقبون ظهوره كرة أخرى كما ظهر مرة ومرة على رأس جيشه، ليرد عليهم حريتهم ويستنقذهم من جور ابن عثمان؛ فإنهم لينكرون ذلك النبأ ويرمون قائله بالإفك والبهتان!

وكأنما كان شيوع الخبر فى المدينة بالقبض على طومان باى أذانًا يدعو المصريين إلى الكفاح، فولوا وجوههم نحو النيل

حيث ينتظرون مقدمه، يتوقعون كل يوم أن يثور غباره فينضموا تحت لوائه لجهاد ذلك الباغى؛ وطال ارتقابهم أيامًا ولم يظهر طومان باى، وما كان له أن يظهر وهو أسير فى يد ابن عثمان!

وقال خاير بك للسلطان سليم:

- أرأيت يا مولاى ماذا يكون لو أفلت من يدك طومان باى، وهذا الشعبُ على ما ترى من نية الانتقاض والغدر!

قال جان بردى الغزالى:

- وما أراهم يصدقون أو يستكينون حتى يروا بأعينهم أميرهم فى الأغلال بين يدى حراسه!

قال خاير بك:

- بل ما أراهم يصدقون حتى يروه مشنوقًا قد شُدت حول رقبته الحبال وتدلى جسده على باب زويلة، وحينئذٍ يستتب لمولاى الأمر!

قال السلطان سليم وقد غامت على وجهه سحابة:

فسنوكب له غدًا موكبًا يشق به المدينة فى أغلاله، حتى يراه كل ذى عينين فى القاهرة فيعلم أن الحكم اليوم لسليم بن عثمان!

***

وكـان أرقم مما به من الهم والضيق لا يكاد يعى ، فليس يدرى أيصدق ما يُرْجف به الناس أم ينكره؛ لقد مضى بضعة عشر يومًا منذ معركة إنبابة ولم يرَ أثرًا أو يسمع خبرًا عن السلطان طومان باى ، فأين يكون إن لم يكن أسيرًا فى يد ابن عثمان؟

وكانت نور كلدى من حديث نفسها فى قلق ووسواس؛ فهؤلاء جند العثمانية يسلكون الدروب ويجوسون خلال المدينة آمنين تطفح وجوههم بشرًا وتتراءى فى عيونهم أمارات الاطمئنان، كأنما استتب لهم الأمر فليس وراءهم ما يخشونه أو يحسبون حسابه؛ وهذا أرقم صامت لا ينطق كلمة ولا يتحدث إليها بحرف يرد إلى نفسها الهدوء والطمأنينة، وكلما همت أن تسأله أو تتحدث إليه ردت نفسها، مخافة أن يفضى إليها بما لا تريد أن تسمع من الأنباء!

وضاقت آخر الأمر بما يهجس فى نفسها فلم تجد طاقة على الصبر، فتقدمت إليه تسأله وفى عينيها قلق وفى وجنتيها شحوب!

وأرهفت أذنيها للسمع، ولكنها لم تسمع جواب أرقم، ولعله لم يجبها ولم يفتح فمه، فقد كان مثلها مرهف السمع يريد أن يستبين ما يترامى إلى أذنيه من أصوات فى الطريق

وزياط وضجة، وهتاف يتردد صداه بين جدران المدينة الأربعة ولا تكاد تَبين منه كلمة أو يتميز صوت من صوت. . . .

وأسرع الشيخ والشيخة إلى النافذة يستطلعان النبأ. . .

يا ويلتا! هذا السلطان طومان باى فى آخر مواكبه: فارس على سرجه قد أحاط به جند الروم وفى يديه أغلاله، والناس على جانبى الطريق قد ارتفع صراخهم واختلطت أصواتهم فما يبين صوت من صوت، فما هو إلا الصدى يتردد بين أبعاد المدينة الأربعة، والسلطان مغلول اليدين يرد إليهم تحياتهم إيماء بالرأس وابتسامًا على الشفتين، وعلى وجهه نور اليقين وفى عينيه روح الطمأنينة!

وكان فى شرفة الدار المطلة على طريق الموكب السلطانى فى سوق مرجوش شيخ وشيخة قد انطبقت شفاههما وجمدت فى عيونهما نظرتان فيهما كل معانى القنوط واليأس ومرارة الخذلان!

وصرخت المرأة وقد جاوزها الركب مصعدًا نحو الجنوب:

- ولدى!

ثم استدارت لتتعلق بعنق صاحبها وهى تسأله فى لهفة:

- قل لى: أين يذهبون به؟

وكان الرجل شاحب الوجه كأنما قد نزف دمه، فقال وهو ينتزع الكلمات من بين فكيه:

- صبراً يا نور كلدى، وسنلحق بالركب لنرى!

ثم ولى وجهه نحو الباب والمرأة متعلقة بذراعه، فاندفعا نحو الطريق وخاضا فى أحشاء الزحام...

وكان الركب قد أبعد وجاوز الشرابشيين وقبة الغورى ودنا من جامع المؤيد، ولكن الطريق وراءه من زحمة الخلق لم يكن فيه موضع لقدم، فلا يكاد السالك يمضى إلى الأمام خطوة حتى يرده الزحام إلى الوراء خطوات...

وقالت المرأة ولم تزل متعلقة بذراع صاحبها:

- بالله قل لى يا أرقم: أين يذهبون به؟ لقد رأيته ولكنه لم يرنى ولم يسمع ندائى!

قال أرقم:

- فسيراك ويسمع نداءك، وما أراهم الساعة إلا ذاهبين به إلى السجن ليقيم فيه أيامًا قبل أن يرحلوا به إلى منفاه فى مكة أو إلى معتقل السلاطين فى برج الإسكندرية!

قالت وفى صوتها رجاء:

- وتصحبنى يا أرقم إلى حيث يذهبون به، حتى ألقاه وأتحدث إليه وأسمع منه؟

- وأصحبك إلى حيث تريدين يا نور كلدى!

وردّهما الزحام خطوات إلى الوراء، وازداد صراخ الناس وارتفعت ضجتهم إلى عنان السماء، واستجمع الشيخان قوتهما الذاهبة ومضيا فى طريقهما يشقان الزحام، لا يكادان ينظران إلى أحد من الناس أو يريان غير طريقهما، ولا يكادان يسمعان. . .

وبلغا باب زويلة بعد نصب ومشقة. . . .

وكان على الباب جسد معلق قد شدت حول رقبته الحبال وتعلق به أنظار الناس وارتفع بكاؤهم إلى السماء!

وهتف كل من الرجل والمرأة فى وقت معًا:

- ولدى طومان!

وتعلقت به أعينهم كأنما ينتظران رد الجواب، وكانت عيناه مفتوحتين كأنْ قد رأى وسمع وعرف أباه وأمه، وكانت شفتاه منفرجتين كأنما يرسل إليهما ابتسامة رضا واطمئنان. . . وتحية!

هتفت المرأة ثانية:

- ولدى!

وخيل إليها كأنما سمعت جوابه، فانفلتت من يد صاحبها عجلى تحاول أن تشق الزحام لتصعد إليه، ولكنها لم تصعد،

بل سقطت مغشيًا عليها فى ظل جسد مشدود بالحبال يترجح فى الفضاء، ثم استفاقت!

وملأت نور كلدى عينيها من ولدها كما تمنت، وأسمعته نداءها، فهل رآها طومان باى وأسمعها نداءه؟

وبلغت آخر الطريق التى دميت عليها قدماها منذ ثلاثين عامًا أو يزيد، فلم تجد فى آخرها ولدها طومان، ولكنها وجدت زوجها أركماس!

وأنزل الجسد الميت عن الباب بعد ثلاثة أيام، وحمله الرجال على الأعناق إلى حيث يدفن فى قبة الغورى!

***

وألف الناس منذ ذلك اليوم أن يروا أربعة أشخاص يحضرون إلى قبة الغورى كل صباح قبل مطلع الشمس فيقضون حول الضريح ساعة مطرقين لا يتكلم أحد منهم إلى أحد، ثم يمضون لشأنهم. أولئك أرقم الرمّال وصاحبته، وشهد دار بنت أقبردى وطفلتها الصغيرة نور كلدى بنت طومان باى!

وجلس على عرش مصر «ملك الأمراء» خاير بك ترفرف على رأسه الراية العثمانية، وصعدت إليه فى قصر القلعة عروسه الفاتنة خوند مصرباى!

الفهرس

الموضوع	الصفحة

***